
كتاب الهلال
تيودورا
الممثلة المتوجة
شارل ديل
الثمن ١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١٠٩ — شوال ١٣٧٩ — ابريل ١٩٦٠

No. 109 — April 1960

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

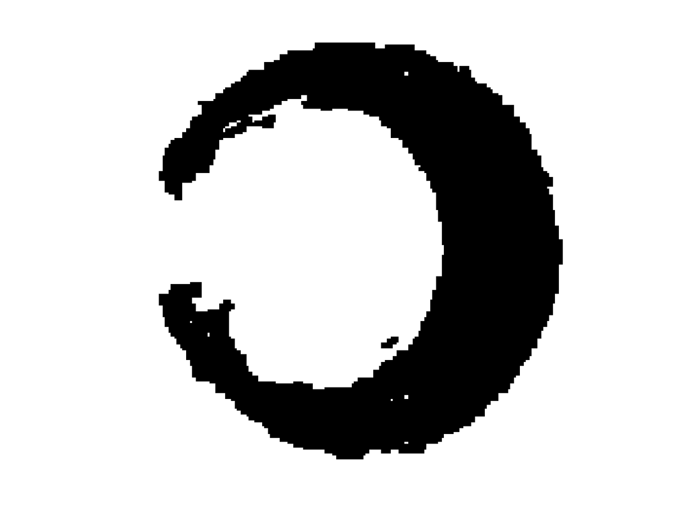
المكاتبات

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) اقليم مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ — اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا أو لبنانيا — للسعودية والعراق والاردن وليبيا واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغا — فى الامريكتين ٥ ١/٢ دولارات — فى سائر انحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

تيودورا
الممثلة المتوجة

تأليف

شارل ديل

ترجمة

حبيب جاماتي

مؤلف الكتاب

ولد ميشل شارل ديل فى مدينة ستراسبورج بفرنسا سنة ١٨٥٩ . وبعد دروس منوعة ورحلات طويلة ، تخصص فى دراسة تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، وتناوله من جميع وجوهه ، السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية والاثرية ، فاحتل بين المؤرخين مكانة سامية ، وأصبحت مؤلفاته مرجعا يعتمد عليه فى كل ما يتعلق ببيزنطة والدور الذى لعبته الامبراطورية الرومانية الشرقية ـ أو امبراطورية الروم كما يسميها العرب ـ فى تاريخ العالم

ولقد ظل شارل ديل نحو ستين سنة يبحث ويدقق ، ويكتب فى تاريخ هذه الامبراطورية العظيمة ، حتى مات فى سنة ١٩٤٤ عن خمس وثمانين سنة ، تاركا ذخيرة تاريخية خالدة

وكان من عادته الا يكتب شيئا الا بعد التحقق من صحته بالاطلاع على ما يتصل به من الوثائق المطبوعة ، أو المخطوطة ، وزيارة المتاحف والاماكن الاثرية . ومن هنا أصبح حجة فى كل ما يتعلق بالامبراطورية البيزنطية وأثرها فى حياة الشعوب ،وفى التطورات التى انتابت الشرق على الخصوص

ومن أشهر المؤلفات التى تركها : كتابه « درس فى الادارة البيزنطية فى ايطاليا » وقد فصل فيه تاريخ الحكم البيزنطى فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية الرومانية الشرقية تسيطر على ايطاليا مهد الامبراطورية الرومانية الغربية . وكتاب « رحلات فى الاماكن الاثرية باليونان » وقد بسط فيه تاريخ

الامبراطورية البيزنطية من خلال الآثار الباقية من ذلك العهد فى بلاد اليونان مهد الامبراطورية الشرقية . وكتاب « أفريقا البيزنطية » وهو تاريخ الحكم البيزنطى فى ليبيا والبلدان المجاورة لها . وقد ضم اليه تاريخ الحكم البيزنطى فى مصر منذ انهيار الحكم الرومانى حتى الفتح الاسلامى

وقد أجمع النقاد على أن كتابه « تيودورا امبراطورة بيزنطة » الذى نقدم ترجمته لقراء العربية هو أوفى وأصدق كتاب صدر عن تلك المرأة العجيبة ، التى حكمت الامبراطورية الرومانية مع زوجها جستنيان

وقد زار شارل ديل بلدان الشرق العربى التى كانت خاضعة للحكم البيزنطى فى وقت من الاوقات ، وهى مصروليبيا وسورية ولبنان وفلسطين وآسيا الصغرى وغيرها . وبحث ودقق ونقب فى المكتبات الخاصة والعامة : وفى الاماكن الاثرية ، والمتاحف وغيرها . ودون ثمرة جهوده هذه فى الكتب التى وضعها عن الحكم البيزنطى فى هذه البلدان . وقد كان له فى الشرق العربى أصدقاء كثيرون بين علماء الآثار والباحثين والمنقبين . وألقى قبل الحرب العالمية الثانية محاضرات عن بيزنطة فى مصر والآستانة وأثينا وغيرها من العواصم

وقد امتازت مؤلفات شارل ديل بأسلوبها السلس ، وتعد همزة وصل بين التاريخ والقصة . وهذا ماجعلنا نختار كتابه عن « تيودورا امبراطورة بيزنطة » لنقدمه فى سلسلة « كتاب الهلال »

مقدمة بقلم المترجم

« تيودورا » .. شخصية من أعجب شخصيات التاريخ . ممثلة خرجت من بيئة وضيعة ، ثم ارتفعت الى أوج المجد ، وتربعت على عرش أعظم دولة فى عصرها . فهى جديرة اذن بأن يتناولها محبو الاطلاع بالدرس والتمحيص

والكتب التى الفت عن حياة هذه الامبراطورة كثيرة ، وقد كتبت بمختلف اللغات ولكن الخيال كثيرا مايمتزج فى هـذه الكتب بالحقائق الثابتة . ومن هنا يصعب على قارئها ان يميز الحد بين الحقيقة والخيال ، وبين التاريخ والقصة

وحياة تيودورا موضـــوع مرن قابل للتحوير والتشـويه والابتكار . فقد اقترن أسم « الممثلة المتوجة » بسلسلة من الحوادث الرائعة التى اهتز لها العالم فى منتصف القرن السادس للميلاد . وانبرى الـكتاب يظهرون تيودورا فى صورة امرأة فاسدة فاجرة تارة ، وفى صورة قديســـة تقية طاهرة تارة اخرى . وبقيت الحقيقة تتأرجح بين الصورتين .. فتيودورا لم تكن هذه أو تلك ، وانما هى مزيج من الصورتين معا . غير أنها ، على كل حال ، أمرأة عظيمة حكمت أعظم امبراطورية عرفها العالم فى عصرها

وقد اعجبت بتاريخ هذه الامبراطورة وشخصيتها ، فطالعت كثيرا من الكتب والابحاث التى تناولت حياتها بالنقد والتحليل

وكان آخر ما طالعت عنهـا كتاب « تيودورا امبراطورة بيزنطة » للمؤرخ الفرنسى شارل ديل . وما ان انتهيت من

مطالعته حتى تبين لى أن كل ما يمكن أن يكتب عن تيودورا ـ الممثلة والمراة والامبراطورة ـ قد تضمنه هذا الكتاب ، وان مؤلفه قد قتل الموضوع بحثا ، فدون الحقائق والو قائع الثابتة ، وحقق الحوادث المشكوك فيهـا ، وأشار الى ما يعد اختلافا وخيالا ، فجاء بحثه خير ما يمكن أن يكتب عن تلك الممثـلة المتوجة فى جميع مراحل حياتها العجيبة ، وعن الاثر الذى تركته فى تاريخ الشرق الأدنى

وعلى هذا نقلت هذا الكتاب الى العربية . وها هو ذا الآن بين أيدى القراء . ولست أدرى أهناك كتاب آخر بالعربية عن « تيودورا » أم لا ، ولكن هناك رواية مسرحية للمؤلف الفرنسى « فكتوريان ساردو » نقلت الى انعربية ومثلت على مســارح القاهرة فى الماضى وقامت فيها الممثلة الكبيرة السيدة فاطمـة رشدى بدور تيودورا ، وقام الاستاذ حسين رياض أمامها بدور الامبراطور جستنيان ، وأخرج الرواية المرحوم فقيد المسرح العربى عزيز عيد

ولكن فكتوريان ســاردو لم يصور على المسرح شخصية تيودورا كما تبدو على حقيقتها من خلال وقائع التــاريخ الثابتة . بل أطلق لخياله الخصب العنان ، وحشا مسرحيته بالحوادث المثيرة والمشاهد العنيفة ، التى تجعل الرواية بلا شك من أقوى المسرحيات ، وان كانت فى كثير من تفصيلاتها لا تتفق والتاريخ الصحيح

وقد جاء فى بعض كتب التاريخ أن تيودورا مصرية الاصل . وجاء فى بعضها الآخر أنها سورية من حمص أو من حماة ، أو فينيقية من لبنان . وقد حاولت عبثا أن اتبين الحقيقة من خلال المطالعات العديدة ، على أن شارل ديل نفسه ، وهو الخبير المتخصص فى تاريخ بيزنطة ، يعترف هو الآخر بأنه عجز عن معرفة مسقط رأسها . وكل ما يمكن قوله فى هذا الشأن ، بالتأكيد ، انها شرقية هبطت بيزنطة قادمة من أحد الاقطار

الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، اى من آسيا الصغرى ، أو من سورية ، أو من لبنان ، أو من مصر !

وحياة تيودورا صفحة من تاريخ الشرق حافلة بالمآثر ، والأحداث ، فقد كانت شديدة الاهتمام بالنهضة النسائية ، وتحسين حالة الرعية ، والقيام باصلاحات اجتماعية وعمرانية ، وقد اختلفت مع زوجها ثم أقنعته بوجوب الاعتماد على محبة الشعب وولائه ، بدلا من الاعتماد على القوة الغاشمة للبطش بالشعب وارهاقه وارهابه . ولا عجب فتيودورا هى ابنة الشعب التى أصبحت سيدة الشعب ، وقد ظلت بعد تتويجها تشعر بشعور الشعب وتعمل لاسعاده . وهى فوق ذلك كله أول ملكة فكرت فى أن ترفع مستوى المرأة وتمنحها حقوقا توازي حقوق الرجال

وتعتبر تيودورا أول ملكة فى التاريخ وضعت قانونا ينص على وجوب اعتبار المرأة التى تحترف التمثيل متساوية مع اية أمرأة أخرى من النساء فى أنحاء الدولة . وكانت مهنة التمثيل من قبلها ممتهنة محتقرة ، وهى كذلك أول ملكة حاولت أن تنقذ المرأة من هوة العار والفساد . وقد ترك زوجها مجموعة قوانين عرفت باسمه : « قوانين جستنيان » ولو أنصف المؤرخون ورجال القانون لسموها « قوانين تيودورا » . فقد كانت الامبراطورة هى التى أوصت بها الى زوجها ، بل انها هى التى كتبت بيدها جانبا منها

هذا ، وأن حياة تيودورا المليئة بالدروس والعظات ، فلا شك أن فى مطالعتها فائدة كبرى ، بجانب ما فيها من عبرة وتسلية

معلومات فى سطور

● **تيودورا** : ممثلة اصبحت امبراطورة بيزنطة . من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٤٨

● **جستنيان الاول** : امبراطور بيزنطة .. تزوج تيودورا قبل ارتقائه العرش . وملكه من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٦٥ . وعاش ١٧ سنة بعد وفاة زوجته ، ولم يتزوج بعدها

● **جستين الاول** : امبراطور بيزنطة من سنة ٥١٨ الى سنة ٥٢٧ . عم جستنيان . كان جنديا ثم انتخبه الجيش امبراطورا واصدر قانونا خاصا لكى يسمح لابن أخيه جستنيان بأن يتزوج تيودورا الممثلة

● **أنطونينا** : وصيفة تيودورا وكاتمة أسرارها .. وهى زوجة بليزيروس قائد الجيش البيزنطى . وكانت دساسة ماكرة

● **بليزيروس** : أعظم قائد فى عصره . فتح كثيرا من البلاد التى ضمت الى الامبراطورية الرومية . وحالفه التوفيق فى كل المعارك التى خاضها فلم يهزم فى معركة منها بقوة السلاح

● **كوميتو** : أخت تيودورا .. ممثلة أصبحت أميرة

● **أناستاسيا** : الاخت الثانية لتيودورا .. كانت هى الاخرى ممثلة وأصبحت أميرة

● **صوفيا** : ابنة كوميتو .. زوجتها خالتها تيودورا من ابن أخى الامبراطور جستنيان ، فاعتلت العرش مع زوجها بعد وفاة الامبراطور

● جان كابادوكى : وزير بيزنطى كان داهية عصره ، ولكنه عارض تيودورا فحطمته

● نرسيس : خادم تيودورا ومن خصيان القصر الامبراطورى فى بيزنطة . كان موضع ثقة الامبراطورة ورسولها الى العظماء

● هيباتيوس : مطالب بعرش بيزنطة . رفعه زعماء الثورة الى العرش ولكن تيودورا عادت فأسقطته وسجنته

● معنى كلمة تيودورا « هبة الله »

● بيزنطة هى القسطنطينية . أنشأها اليونانيون فى العصور الخالية ، وسماها الامبراطور « قسطنطين » باسمه فى أواخر القرن الثالث للميلاد ، ولكنها ظلت محتفظة أيضا باسمها الاصيل . ولما فتحها العثمانيون سنة ١٤٥٣ م على يد محمد الفاتح أطلقوا عليها اسم « الآستانة » أو « استانبول »وأصبحت عاصمة الامبراطورية العثمانية الى أن نقل كمال أتاتورك مركز الحكم فى تركيا الى « أنقرة » بعد الحرب العالمية الاولى

● مات الامبراطور جستنيان ، زوج تيودورا ، فى سنة٥٦٥ اى قبل نحو مائة سنة من نشوب القتال بين امبراطورية الروم والجيوش العربية فى بدء الفتوحات الاسلامية فى القرن السابع للميلاد

● كانت امبراطورية الروم ، أو امبراطورية بيزنطة ، تضم بلاد اليونان والبلقان وجانبا من ايطاليا وآسيا الصغرى وسورية ، ولبنان وفلسطين ، وجانبا من بلاد العرب ومصر وليبيا وتونس . فكانت أعظم امبراطورية فى عصرها ، وأوسع من امبراطورية الفرس . وقد هاجم العرب أطرافها فانتزعوا منها فلسطين وسورية ، ولبنان ومصر ، وافريقا . فانكمشت فى آسيا الصغرى ثم فى القسطنطينية أو بيزنطة ، الى أن جاءتها الضربة القاضية على يد السلطان الفاتح محمد الثانى فى سنة ١٤٥٣ الميلادية

● لما فتح العرب مصر ، كانت البلاد خاضعة للحكم الرومى

البيزنطى ، وكان فى مصر جيش رومى حاول صد الغزو العربى. ولم يكن لمصر ولا لسورية جيش وطني فى ذلك الحين

● الامبراطورية الرومية ورثت الامبراطورية الرومانية فى الشرق . فقد انقسمت امبراطورية « روما » الى شطرين ، عرف الاول منهما بامبراطورية الغرب ، والثانى بامبراطورية الشرق . وأول امبراطور « رومانى » اتخذ بيزنطة عاصمة لدولته هو « قسطنطين » الذى أطلق عليها اسمه . وكلمة « رومى » أطلقها العرب على البيزنطيين وهى غير معروفة فى لغات الغرب . وقد جاءت على لسان العرب تحريفا لكلمة « رومانى » ثم أطلقها العرب والترك على « اليونانيين » الذين عرفوا منذ ذلك الوقت باسم « الروم » أو « الاروام »

● لما اعتنق الامبراطور قسطنطين الدين المسيحى ، فى القرن الثالث للميلاد ، فرضه على رعاياه ، فانتشر فى جميع انحاء الغرب وفى بلدان الشرق التى لم يكن الدين الجديد قد عمها بعد . اما مصر ، فكان سكانها جميعا يدينون بالمسيحية قبل قيام الحكم البيزنطى فيها



الفصل الأول

المشكلة

اليتيمات الثلاث !

فى أوائل القرن السادس للميلاد ، كانت تيودورا ، الممثلة الراقصة ، تملأ مسارح القسطنطينية بشهرتها ، وتسترعى بفنها وجمالها اعجاب النظارة على اختلافهم . وقد اختلف المؤرخون الذين جاءوا بعدها فى تحديد المكان الذى ولدت فيه . فقال بعضهم انها ولدت فى جزيرة قبرص ، موطن الربة افروديت الهة الجمال عند اليونان . وقال آخرون : انها ولدت فى سورية ، أو فى جبال لبنان ، أو على ضفاف النيل بمصر

والذى لاشك فيه ، أن تيودورا جاءت الى القسطنطينية مع اهلها ، وهى فى سن الطفولة . وانها نشأت فى تلك المدينة ، بين ألوان الضجيج والفجور !

ومن العجيب أنها ظلت طول حياتها محتفظة بطابعها الشرقى وفية للبلاد الشرقية التى انجبتها . وبينما كان زوجها الامبراطور جستنيان الذى ولد فى جبال مقدونية العليا ، متشبعا بالروح الغربية الرومانية ، كانت هى متشبعة بالروح الشرقية مستمسكة بجميع مظاهر الشرق وميوله ومعتقداته وأوهامه . وكما لم يوفق المؤرخون الى معرفة موطنها كذلك لم يوفقوا الى معرفة شىء يذكر عن الاسرة التى تنتمى اليها تلك الممثلة التى صارت امبراطورة . وقد تعمدوا فيما بعد — ولعل هذا كان من قبيل التملق — أن يفتعلوا لها حسبا ونسبا يتفقان مع المقام الاسمى الذى بلغته ، ومع مكانة الاسرة المالكة فى النفوس . فادعى بعضهم انها ابنة نبيل من أعضاء

مجلس الشيوخ . وادعى آخرون ان اباها كان قائدا من قواد الجيش المعروفين . ولكن الحقيقة والواقع بعيدان كل البعد عن هذا الادعاء . ولم يبق الآن شك فى ان تيودورا ابنة رجل يدعى « أكاسيوس » لا هو بالنبيل ولا هو بالقائد . وانما كانت مهنته ترويض الدببة فى ملعب المدينة

أما أمها فكانت امرأة لا تحسب حسابا للاخلاق الكريمة فى حياتها ولا فى حياة أفراد اسرتها ، شأنها فى ذلك شأن كل امرأة عاشت فى السرك بين مروضى الوحوش والمهرجين فى ذلك الحين

وكان الملعب أو « السرك » الذى يعمل فيه أبواها ، يضم الى من فيه من المروضين والمهرجين ، زملاء لهما من الممثلين والحواة ومحترفى الرقص والغناء

وفى ذلك الوسط الصاخب البوهيمى الذى نشأت فيه مع والديها ، كانت تشترك معها أختها الكبرى « كوميتو » وأختها الصغرى « أنابستاسيا »

وكان مولد تيودورا نحو سنة ٥٠٠ للميلاد . ومات أبوها وهى واختاها مازلن فى سن الطفولة ، لم تجاوز كبراهن السابعة من عمرها وأرادت والدتهن بعد أن ترملت ، أن تحتفظ بالعمل الذى كان يقوم به زوجها ، لكى تبقى باب الرزق مفتوحا أمامها وأمام بناتها الصغيرات ، فتزوجت رجلا آخر ، رضى بأن يصبح حارسا للدببة فى الملعب ، ومعيلا للصغيرات الثلاث فى البيت !

وكان عليها لتحقيق هذه الامنية ، أن تحصل على موافقة « أستيريوس » منظم الالعاب ، الذى كان زوجها الاول أكاسيوس تابعا له . ولكن الامر لم يكن سهلا . اذ كان الذين يشتركون فى هذه الالعاب ، كما كان الموظفون بالملعب ، يشترط فيهم أن يكونوا من المنتمين الى الفريق الاخضر أو الفريق الازرق ، اللذين تخصص أفرادهما فى هذه الاعمال وتدربوا

عليها حتى أتقنوها فاستحق كل منهم ان يرتدى الثوب الخاص بفريقه وان يعلق الشارة الخاصة به على صدره

وكان الاهلون فى المدينة قد انقسموا حزبين : احدهما يناصر الفريق الاخضر ، والآخر يناصر الفريق الازرق . وتبعا لاشتداد المنافسة بين الفريقين ، كانت الخصومة تشتد بين الحزبين المناصرين لهما من الاهلين . بل لقد تمدت الخصومة حدود الملعب ، فانتقلت منه الى ميدان السياسة وغيره . فأصبح كل واحد من السكان معروفا بانه من « الخضر » أو من « الزرق » حسب انتمائه الى هذا أو ذاك من فريقى المهرجين والمروضين والممثلين فى ملعب القسطنطينية !

▱

وكان اكاسيوس ، والد تيودورا من افراد الفريق الاخضر الذى يتولى رياسته وينظم ألعابه ويدير مصالح افراده « استيريوس » وقد رفض هذا اجابة رغبتها فى تعيين زوجها الجديد خلفا لزوجها السابق فى وظيفة حارس الدببة ، وعين فى هذه الوظيفة رجلا آخر من محاسيبه ، اتضح للمرأة فيما بعد انه اشترى تلك الوظيفة بالمال !

على أنها برغم ذلك لم تيأس ، وأخذت تواصل سعيها فى سبيل تحقيق تلك الرغبة ، لان تحقيقها كان يعنى ايجاد المورد الذى تعيش منه هى وبناتها الثلاث . وعلى هذا قررت أن تستثير عطف جمهور المتفرجين واهتمامهم بأمرها وأمر بناتها. وفى ذات يوم بينما كانت مدرجات الملعب تغص بالناس، والانظار كلها متجهة الى الحلبة المستديرة حيث تجرى المباريات والمصارعات وغيرها من فصول برامج التسلية ، ظهرت على الحلبة وهى تدفع أمامها فتياتها الثلاث وقد توجت رءوسهن بالازهار ، فاندفعن الى وسط الحلبة مسرعات حيث وقفن فى خشوع ، رافعات أكف الضراعة والاستعطاف نحو المدرجات

المليئة بمختلف النظارة ، وفى الوقت نفسه اخذن فى البكـــاء استزادة من التأثير فى النفوس

وكانت الام تأمل أن يسارع الفريق الاخضر عقب ذلك الى تلبية رجائها بايجاد عمل للرجل الذى تبنى صغيراتها وتولى أمرهن بعد موت والدهن . كما انها كانت تؤمل آلا تقوم أية معارضة من جانب الفريق الازرق وانصاره فى سبيل عمـل انسانى كهذا ، ولاسيما بعد ذلك المنظر المؤثر الذى أعدته . ولكن الامر جاء على غير ما توقعته ، اذ قابل الفـريق الاخضر وانصاره ذلك المنظـر بالضحك وعـدم المبالاة ، أما الفريق الازرق فقد رأى فى ذلك فرصـــة سانحة لربح يجنيـه على حساب الفريق الاخضر المنافس له ، وسرعان ما هب أفـراده يؤيدهم انصارهم داعين المراة وبناتها الى الانضمام اليهم ، متعهدين بتعيين زوجها الثانى فى وظيفة بفريقهم ، لا تقـل عن الوظيفة التى كان زوجها الاول يشغلها فى الفريق الاخضر !

ولم تجد الارملة بدا من اجابة هذه الدعوة على الفـور ، وهكذا انتقلت الاسرة من فريق الى فريق ، أو من حزب الى حزب ، فأصبحت « زرقاء » بعـد أن كانت « خضراء » . وكان هذا العرض الذى نظمته لصغيراتها فى الملعب على مشهد من النظارة ، هو أول اتصال لتيودورا بالشعب البيزنطى ، الذى قدر لها فيما بعد أن تحكمه وتصرف شئونه كما تشاء . وقد ظلت ذكريات طفولتها مطبوعة فى ذهنها طول حياتها . ولم تنس تنكر « الخضر » لها ولامها وأختيها يومذاك قط ، فلما أصبحت أمبراطورة قادرة على كل شىء ، عمدت الى الانتقام منهم ، ونكلت بفريقهم شر تنكيل !

ولقد ترعرعت تيودورا مع أختيها جنبا الى جنب ، فى كنف أم لم تكن الفضيلة همها ورائدها ، وفى وسط موبوء ، بين

أناس يبيعون الرذيلة وأناس يشترونها ، فضلا عن فريق ثالث يتاجر بها على حساب هؤلاء وأولئك معا !

ولما كانت امهن امراة عملية ، وقد رات أن بناتها الثلاث يكتسبن مع الايام مسحة من الجمال ، لم تحجم عن أن تدفع بهن الواحدة تلو الاخرى الى الاشتغال بالتمثيل . وكانت كوميتو أول من ظهرت منهن على المسرح ، حيث حازت منذ ظهورها نجاحا عظيما . فكان هذا النجاح الذى لقيته الابنة الكبرى مما شجع أختها تيودورا على أن تحذو حذوها ، فبدات تظهر الى جانبها على المسرح ، فى أدوار بسيطة تافهة ، كانت لها خير تدريب عملى مفيد على التمثيل

وفى الوقت نفسه ، جعلت تيودورا ترافق أختها فى روحاتها وغدواتها ، فتؤم المجتمعات العامة والمجالس الخاصة ، حيث لفتت الانظار بسرعة الى جمالها الناشىء ، ورشاقتها وطلاقة لسانها ، وما بدا عليها قبل الاوان من مستلزمات الاغواء واللعب بالعواطف والمشاعر

وكان طبيعيا أن يؤدى اختلاطها بالناس ، فى ذلك المجتمع الذى يحوى طلاب اللهو والمتعة ، وفى تلك السن ، الى التأثير فى سلوكها ، فجنحت عن جادة الاستقامة ، وفقدت البقية الباقية مما كان لها من طهر وعفاف

ولما أصبحت قادرة وحدها على الاشتغال بالتمثيل ــ مثل أختها الكبيرة ــ ولم تعد بها حاجة الى مرشد أو دليل يأخذ بيدها على المسرح وفى المجتمعات والاندية ، راحت تبحث عن النجاح والثروة ، سالكة الطريق الذى مهده لها ذووها وساروا فيه من قبلها

والواقع انها كانت جميلة بارعة الجمال ، مغرية شديدة الاغراء ، جذابة ساحرة . وقد أجمع الذين عرفوها وكتبوا عنها ، سواء أكانوا من أصدقائها المعجبين أم من أعدائها المفترين ، على أن جمالها من الطراز الاول ، وعلى أن الفنانين الذين سجلوا

صورتها فى تماثيلهم ولوحاتهم ، لم يستطيعوا أن يرسموا تلك الصورة على حقيقة ما كانت عليه من روعة وبهجة وبهاء . وصحيح انها قصيرة القامة ولكنها على جانب عظيم من الاناقة والطلاوة واللطافة .. واذا كان لون بشرتها يميل الى الشحوب ، فان هذا كان يزيد فى لمعان عينيها الواسعتين ، وفى الاشعاع الذى كان ينبعث منهما ساحرا آخاذا ، وطالما أحرقت به القلوب ، والهبت المشاعر فى طيات الصدور !

▱

ولعل الناظر اليوم الى صورتها الرسمية المحفوظة فى مدينة « رافينا » بايطاليا ، لا يجد فيها شيئا ينطبق على ذلك الوصف الذى أجمع عليه من عرفوها من الاصدقاء والاعداء على السواء. ولكنه مع ذلك لن يسعه الا أن يقف مشدوها أمام عينيها السوداوين البراقتين ، اللتين امتد اشعاعهما حتى غمر كل وجهها كما يبدو فى تلك الصورة !

ولم يكن ذلك الجمال الاخاذ كل ما لدى تيودورا من سلاح تغزو به القلوب ، فقد كانت مع ذلك على حظ عظيم من الذكاء والفطنة وبراعة التعبير وسرعة الخاطر والتفنن فى التنكيت ورواية النوادر المسلية . وقد اكتسبت ذلك كله من ممارسة التمثيل على المسرح ، والرقص فى الاعياد والحلقات الشعبية والحفلات الخاصة . كما انها بطبعها كانت شديدة الميل الى التهكم والسخرية ، ولم تكن تحجم عن اطلاق أقسى العبارات اللاذعة الجارحة كلما سنحت لها فرصة مناسبة ، غير انها كانت سرعان ما تستدرك ما فرط منها فى لباقة عجيبة ، فاذا بتلك العبارات الجارحة نفسها وكأنها على قلوب من نالتهم بها برد وسلام !

كانت تيودورا تعرف كيف تمزج فى حديثها بين الجد

والهزل ، وبذلك كانت تضـــحك من تؤلمهم بعبـــاراتها او تصرفاتها ، واستطاعت ان تظل حائزة على رضاهم ، مستوليـة على أفئدتهم فى جميع الظروف والاحوال !

وكانت جريئة ليس لجرأتها حد تقف عنده ، كما انها فى كثير من الاحيان لم تكن تنتظر حتى يوجه اليها محدثوها آيات المديح والثناء من تلقاء أنفسهم ، بل كانت تمهد لهم السبيل، وتشجعهم على ذلك بما تبديه من ضروب التحدى أو الاغراء !

على انها برغم عدم مبالاتها بالنواحى الادبية والخلقية والتقليدية فى أحاديثها مع الناس . وبرغم استساغتها كل عبارة تلفظها مادامت تؤدى المعنى الذى تقصده ، وتصيب الهـــدف الذى تريده .. كانت تحمل فى صدرها قلبا أشبه ما يكون بالاتون المتأجج ، ذلك لانها كانت مشبوبة العاطفة دائما .. تحب الحب للحب ، وتنشد المرح والتسلية حتى فى أحرج الاوقات . ولذلك كان لابد من أن تلقى على مسرح الحيـــاة فى ذلك المجتمـــع البيزنطى ، مثل النجاح الذى لقيته منذ اللحظة الاولى فى ملعب العاصمة ، ثم على مسرح التمثيل !

▱

وقد مارست تيودورا الى جانب التمثيل ضروبا من الرقص والغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ولكنها كانت تنفر من أن يقول عنها الناس أنها راقصة أو مغنية أو عازفة ، بقـدر ما كانت ترغب فى أن يصفوها بأنها ممثلة !

وكانت تبحث عن الادوار التمثيلية الناطقة أو الصامتة، التى تتيح لها ــ فى تأديتها ــ فرصة الظهور أمام المشاهدين والسامعين عارية أو شبه عارية ، لكى تتجلى أمام الانظار بدائع جسمهـــا وتقاسيمه الخلابة !

كذلك كان ميلها شديدا الى الادوار الهزلية المضحكة ، لانها تلائم طبعها المرح ، ومع رغبتها فى أن تنقل مرحها من المسرح

حيث تمثل الى القاعة حيث النظارة يرمقونها بأعينهم وانتباههم!

وكان البيزنطيون يؤثرون المناظر المثيرة ، والمواقف المضحكة، على ما عداها من أنواع التمثيل واللهو . ومن هنا كانوا يصفقون كالمجانين كلما تجلت لهم تيودورا على المسرح بابتسامتها الساحرة وجسمها العارى الا من غلالة شفافة أو بدونها ! كما كانوا يضحكون ملء أشداقهم لكل كلمة أو كل حركة تصدر عن تلك الممثلة الجميلة البارعة ذات الصوت الرخيم !

ومن المشاهد التى كان البيزنطيون يؤثرونها على غيرها ، رؤية تيودورا على المسرح وقد تعرت من ثيابها وجعلت عصافيرها الاليفة المتنوعة الالوان تتنقل على كتفيها وراسها وذراعيها . ولم يكن هؤلاء البيزنطيون اقل حماسة أمام المشاهد الهزلية التى تظهر فيها تيودورا مع بقية افراد فرقتها ، وتتبادل معهم اللطمات والصفعات ، فتضرب بشدة ، وتتلقى الضرب بقدم ثابتة !

وليس بعجيب اذن .. ان كان نجاح تيودورا ، فى علاقاتها الخاصة وفى داخل بيتها ، مع المعجبين والمريدين ، لا يقل عن نجاحها على المسرح ان لم يزد عليه !

ومما يذكر أنها كانت فوق ذلك كله كريمة سخية ، تنفق المال بلا حساب مادام المال متوفرا بين يديها . ويقول عنها المؤرخ جيبون « ان كرمها كان مضرب الأمثال فى بيزنطة ، وان مآدبها الفاخرة كانت أهم ما استرعت به الانظار فى حياتها الخاصة ، كما كانت مضرب الامثال . فى أحاديثها الجريئة ، وتعدد عشاقها ! »

ووصفها مؤرخ آخر بأن هدفها الاول على المسرح وخارجه كان هو حمل الناس على الاعجاب بجمالها وخفتها ، ولهذا كانت لا تكاد تنتهى من تمثيل دورها على المسرح ، حتى تدعو زملاءها وأصدقاءها ، لترقص أمامهم خلف الكواليس « رقصة البطن » التى تجيدها ، على توقيع تصفيقهم وغنائهم . وكانت

تفعل مثل هذا فى بيتها ، بعد العشــــاء أو فى أثناء السهرة ، لا رغبة فى ارضاء المدعوين فقط ، بل لكى تشبع رغبتها أيضـــا فى انتزاع الاعجاب والتصفيق ممن يشاهدونها حينذاك حتى من الخدم والاتباع !

وقد عرفت تيودورا بأنها خصبة المخيلة ، بارعة فى رواية النوادر ، واسعة القدرة على الابتكار ، دائمة الاهتمـام بادخـال السرور الى نفوس سامعيها ومدعويها أيا كان عددهم وأيا كان نوعهم . ولكن هذا التحرر من كل قيد ، وذلك الانغماس فى الشهوات ، جعلا فريقا من المجتمع البيزنطى يأنف من مجالستها ويتهرب منها . فقد ذاعت شهرتها بسرعة كممثلة وغانية ، ولكن شهرتها هذه ما لبثت أن امتزجت بشىء من ســوء السمعة ، فصار كثيرون من البيزنطيين المحافظين يتأففون من الاتصـــال بها والاقتراب منها . ولكنها كانت لم تقم وزنا للرأى العام وما يقوله عنها أولئك المتأففون الحذرون ، ولم يكن ليهمها الا ان تنعم بمباهج الحياة ، وأن تشرك من حولها فى هذه المباهج ، غير عابئة بنقد الناقدين وعتب العاتبين . فلا يهمها أن يغضب عليها فريق من المتمسكين بأهداب الفضيلة ، ما دامت الجماهـــــير تصفق لها ، وما دام العشاق يزداد عددهم حولها على مر الايام!

غير أن هناك حادثا وقع لها نغص عليها عيشها بضعة اشهر ، وأوشك ان يترك فى حياتها أثرا مزعجا . فقد حملت ووضعت طفلا . وخشى والد الطفل أن تعمد الأم الى قتله ، فاخذه منها ، وسافر به الى بلاد العرب حيث أرسل فى مهمة رسمية . وهكذا تخلصت تيودورا من ابنها الذى كرهته منذ اليوم الذى رأى فيه النور . وقد عاد ذلك الابن فيما بعد وحاول استغلال نفوذ امه بعد أن اصبحت فى أوج الشهرة والمجد !

ولم يكن هذا الحادث درسا كافيا لتيودورا ، فقد تــكررت

المأساة ، ووضعت مرة اخرى طفلة ، لم تقف منها ذات الموقف الذى وقفته من الابن . بل عنيت بها وظلت تعطف عليها بعد ان كبرت .. وكان ذلك فى سنة ٥١٧ . ولم تكن تيودورا قد جاوزت بعد سنتها الثامنة عشرة . ولكنهـا كانت فى سمـاء القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، نجما يتلألأ ويبهر الانظار !



سلطان الشياطين !

كانت القسطنطينية حين بدأت تيودورا تظهر فى مجتمعاتها ، فى أوائل القرن السادس للميلاد ، مدينة موبوءة يعم الفساد جنباتها ، فالدعارة منتشرة جهارا نهارا . والبيوت الخاصة بها منتشرة فى جميع الاحياء بلا تمييز ، حتى أن بعضها كان يقع بجوار الكنائس والاديرة . وتجار الرقيق الأبيض الذين يقومون بجلب النساء الى تلك البيوت يطوفون أرجاء الامبراطورية الشاسعة ، ويمنون فرائسهم التعسات بالامانى والآمال والوعود الخلابة ، ملوحين لهن بالنقود والثياب الفاخرة والجواهر البراقة . وكثيرا ما وقعت فى حبائل أولئك الشياطين الاشرار فتيات لم يجاوزن العاشرة من العمر ، ونساء من حرائر العائلات ، فضلا عن الجوارى والخادمات ، مدفوعات جميعا بدافع الحاجة او الرغبة فى حياة أخرى . وهكذا كان أولئك النسوة يتجهن الى العاصمة ، حيث يرتبطن بعهود ومواثيق مع القائمين بادارة تلك البيوت ، وبذلك يتعذر عليهن أن يتركنها اذا ما أردن ذلك فيما بعد . وما أشبه القسطنطينية، وقد عمها الفساد وانتشرت فيها الدعارة خلال تلك المرحلة من مراحل تاريخها ، بمدينة سدوم التى احرقها الله بالنار اقتصاصا من سكانها الذين انغمسوا فى المحرمات والموبقات . وكان القليلون الباقون على وفائهم لمبادىء الدين وتعاليمه من أهل القسطنطينية يأسفون لهذه الحالة ، ولكنهم لا يملكون أن يعملوا شيئا لعلاجها . ولئن كان هؤلاء لم ينصرفوا الى الغواية والضلال خوفا من غضب السماء ، فانهم من ناحية أخرى لم

يكونوا يحجمون عن ممارسة الالعاب المختلفة وحضور مبارياتها متحمسين لهذا الفريق أو ذاك . ولذلك كان ملعب القسطنطينية ملتقى جميع الطبقات . وفى الوقت نفسه كانت أماكن اللهو والميسر تعج بروادها من الجنسين ، وكان الكثيرون يقامرون بثرواتهم كلها بلا حياء ولا وجل ، اذ استشرى داء المقامرة فى المدينة الموبوءة فلم يسلم منه حتى بعض رجال الدين انفسهم !

ولم يكن ذلك عجيبا فى الوقت الذى كان فيه « جستنيان » ولى عهد الامبراطورية نفسه يصرح بقوله : « لابد لنا من ألعاب مثيرة لتسلية الشعب ! » . وكان الكبراء جميعا يتسابقون الى تشجيع جميع تلك الالعاب بلا استثناء ، حتى صارت تجرى فى نطاق المساكن والقصور ، فضلا عن الملعب الكبير الذى انفقت الحكومة مبالغ طائلة لتشييده واعداده وتنظيم الالعاب فيه ، بحيث يجد السكان فيه ، على مدار السنة كلها ما يشفى غليلهم ويشبع نهمهم !

وفى هذا الملعب الكبير بالعاصمة كانت تنظم المباريات والمسابقات على اختلاف أنواعها ، كسباق المركبات ، وسباق الخيل ، وصيد الحيوانات ، والمصارعة بين الرجال أو بينهم وبين الوحوش الكاسرة ، والتمثيل الناطق والصامت ، وحلقات الرقص ، وحفلات الغناء والموسيقى ، وكل مايمكن أن تتفتق عنه الاذهان لتسلية الشعب البيزنطى وحمله على المراهنة والتصفيق والهتاف !

وكثيرا ماكانت تقام فى الملعب ـ ولا سيما فى أول كل عام ـ حفلات تستمر سبعة أيام بلياليها بلا انقطاع ! .. وكان أحد هذه الايام السبعة يطلق عليه اسم « يوم بائعات الهوى » . وفيه تخرج الى الملعب جميع النسوة اللائى تضمهن بيوت الدعارة بالمدينة ، حيث يشتركن فى الالعاب والمراهنات ، فيتضاعف تبعا لذلك عدد رواد الملعب من جميع الطبقات !

وكان الامبراطور نفسه يشرف اشرافا مباشرا على تنظيم

تلك الالعاب ، فهو يريد أن يكون هناك دائما ما يدفع الشعب الى التردد على الملعب ، لانه يرغب فى استمالته واكتساب عطفه، وكان لا يبخل بشىء فى هذا السبيل . وقد حدث مرة أن نظم الامبراطور بنفسه حفلة عامة شاهد فيها الجمهور الهائج عشرين أسدا وعشرين نمرا تتناهش وتتقاتل ، ثم وزع الامبراطور فى نهاية تلك الحفلة خيولا مطهمة على اللاعبين الذين فازوا فى المباريات ، واقام مأدبة هائلة جعل الدعوة اليها عامة بحيث يسمح بحضورها لكل من شاء من أفراد الشعب . واستمرت هذه المأدبة الكبرى ثلاثة أيام بلغ ما أنفقه الامبراطور خلالها أربعة ملايين من القطع الذهبية !

وكذلك كان أهل القسطنطينية جميعا يهرعون الى دار التمثيل او الى « السرك » فى ملعب العاصمة ، لا فرق فى ذلك بين النبلاء وعامة الناس ، ولا بين الرجال والنساء ، أو بين الشيوخ والشبان

وصحيح أن التقاليد حتى ذلك العهد كانت لا تبيح حضور تلك الحفلات الصاخبة الاباحية لرجال الدين ونساء الاسر النبيلة ، ولكن الكثيرين والكثيرات من هؤلاء وهؤلاء كانوا يحضرونها بملابس تنكرية . كما كانت القليلات اللائى يتورعن عن حضورها ، يحرصن على الاشتراك فى المراهنات وهن قابعات فى بيوتهن . ذلك لان الاهتمام كان عاما فى أنحاء الامبراطورية كلها بكل ما يتعلق بالالعاب والمسابقات . ولم يحدث فى أية حقبة من حقب التاريخ أن بلغ اهتمام شعب من الشعوب ، بما يجرى فى الملاعب ، ما بلغه اهتمام الشعب البيزنطى فى أوائل القرن السادس ، خلال عهد الامبراطور جستنيان ، حتى لقد فاقت هواية البيزنطيين للألعاب هواية أسلافهم الرومانيين !

وكان الفائزون فى المباريات من سائقى المركبات وغيرهم

يصبحون ملوك الساعة فى المدينة ، لمدة يوم أو أكثر . ولم يكن الامبراطور نفسه يأنف من التقدم اليهم ليصافحهم ويهنئهم على فوزهم ، فى حين كانت الحكومة تقيم لهم النصب والتماثيل، وكان الشعراء ينظمون فى مديحهم القصائد ، ورجال العلم والادب يعلنون فى تأكيد ان هؤلاء الفائزين هم زينة الحياة ولولاهم لبدت خالية من البهجة والحبور !

أما الجمهور فكانت حماسته لهم لا تقف عند حد ، وكان أفراده عادة ينقسمون الى حزبين اثنين : كل منهما يتحمس لاحد الفريقين الكبيرين المتنافسين فى مختلف الالعاب ، أى الفريق الاخضر والفريق الازرق ! . . وهكذا بقيت القسطنطينية بضعة قرون واهلوها منقسمون على انفسهم بين خضر وزرق ، وتناحرهم يشتد يوما بعد يوم لهذا السبب ، حتى لكان بينهم عداوة قديمة لا يخمد لها أوار !

ولم يكن هناك بد لتنظيم تلك الالعاب والاشراف على ادارة الملعب من عدد كبير من الموظفين والخبراء والفنيين والخدم وغيرهم . فكان هناك الشعراء المكلفون بنظم القصائد والاغانى التى ينشدها اللاعبون لتمجيد الامبراطور . وهناك الموسيقيون المكلفون بتلحينها ، وعزفها ، والمغنون والراقصون والمهرجون الذين يقومون بتسلية الجمهور أثناء المباريات . أو بين الفصول وهناك الممثلون والمخرجون ومديرو المسارح ، ثم الموظفون المكلفون بحفظ النظام داخل الملعب ، وعلى المدرجات واجلاس المشاهدين فى أماكنهم ومراقبة الدخول والخروج وفتح الابواب والمنافذ لابطال المباريات من البشر والحيوان على السواء ، فضلا عن المكلفين بحفظ الثياب والدروع ومعدات اللعب والاكاليل التى توضع على رءوس الفائزين، وفضلا عن حراس الاسطبلات ومروضى الوحوش والمدربين والخياطين والخياطات ، والحوذية

الذين يقودون المركبات فى السباق داخل الحلبة الواسعة ، وفى شوارع المدينة نفسها فى بعض الاحيان !

وهكذا كان فى داخل الملعب وحوله أقوام يعدون بالمئات بل بالآلاف ، مهمتهم التنظيم والاخراج . وكثيرا ما كان ينضم اليهم فريق آخر من الناس ، هم المغامرون والانتهازيون من السماسرة وأصحاب الغايات وطلاب الربح والتسلية ، على حساب غيرهم .. وبائعات الهوى الساعيات الى اصطياد الاغنياء وابناء الذوات من طلاب المتعة

وطبيعى أن الاحاديث فى مجتمعات القسطنطينية ومنتدياتها فى ذلك العهد كان محورها الذى تدور حوله غالبا هو الملعب وما يجرى فيه . فجميع النــــاس ، من مختلف البيئات ، كانوا يتبادلون الآراء والافكار والمراهنات حول هـــــذا أو ذاك من اللاعبين ، ويتحدثون عن الحوذى الفائز فى ذلك اليوم ، أو عن الممثلة التى حازت الاعجاب فى المسرحية الاخيرة ، ويتكهنـــون بما سوف يحدث فى الحفلة القادمة . حتى أكثر الناس وقارا لم يكونوا يأنفون من الدخول فى مناقشات حادة حول أصـــل هذه اللعبة أو تلك ، أو حول فائدة الرياضة والمقامرة وضررهما وكثيرا ما كان المتحدثون يتسابقون الى التنبؤ بما ينتظر حدوثه فى المستقبل القريب ، استنادا الى فوز « الزرق » أو الى فوز « الخضر » فى آخر مباراة !

وكان المفهوم حينـــذاك أن اللون الاخضر يرمز الى الارض ومروجها . فاذا فاز الخضر ، فمعنى ذلك أن السنة الجـديدة ستكون سنة خير وبركة ، وأن موسم الحصاد سيكون محققا للآمال . أما اللون « الازرق » فهو يرمز الى مياه البحر . فاذا فاز الزرق فمعنى ذلك أن السفن ستكون موفقة فى رحلاتهـا فى العام الجديد . وعلى هذا الاعتبار ، كان الزراع جميعا من حزب الفريق الاخضر ، وكان رجال البحر من حزب الفــريق الازرق !

وكان الملعب معرضا للأزياء . فهو من هذه الناحية يشبه ميادين السباق فى العصر الحاضر . والشبان من «أبناء الذوات» الذين يؤمونه يفتنون فى ابتكار أزياء عجيبة ليلفتوا بها الانظار اليهم . فهم يرخون لحاهم كما يفعل الفرس ، أو يطلقون شواربهم كما يفعل الغاليون ، أو يحلقون رءوسهم ووجوههم مثل الرومانيين . وهم يقتبسون ازياء ملابسهم عن الرومانيين أو الفرس أو قدماء المصريين ، ويتجملون ويتعطرون ويضعون الحلى فى معاصمهم وأصابعهم وآذانهم . ثم انهم كانوا دائما يتقلدون سيوفا بحدين

وكان أولئك الشبان المتحذلقون يخرجون ليلا الى شوارع المدينة حيث يتعمدون ازعاج المارة ، ولا يترددون احيانا فى الاعتداء عليهم وسلبهم نقودهم وحليهم ، واغتيالهم اذا أبدوا أية مقاومة !

■

ولقد أصبح « الزرق » أصحاب الحظوة منذ وفاة الامبراطور انستاسيوس واعتلى « جستين » العرش . ذلك لان الاسرة المالكة الجديدة كانت تحمى الزرق وتشجعهم على المضى فى مناوأة الخضر . وكان الشرطة لذلك لا يحركون ساكنا فى حالة اعتداء واحد من الزرق على واحد من الخضر مما شجع الاشقياء وقطاع الطرق على الانضمام الى الفئة التى يشملها الامبراطور بعطفه وحمايته ، لكى يتمكنوا من المضى فى أعمالهم الاجرامية فى مأمن من اقتصاص العدالة ؟

وأمام هذا التهديد الدائم الذى تعرض له الخضر ، لم ير هؤلاء بدا من تأليف عصابات مسلحة تتولى الدفاع عنهم وعن أنصارهم ومريديهم : وهكذا اضطرب الامن فى المدينة وأصبحت حياة السكان فى خطر دائم !

ولما رأى السكان الهادئون تفاقم الحالة الى هذا الحد المزرى،

صاروا يخافون الخروج من بيوتهم ليلا ، وصار الاغنياء يرتدون ملابس بالية قديمة ، ويتحلون بجواهر مزيفة من الزجاج ، لكى يأمنوا شر أولئك الاشقياء وقطاع الطرق !

وعم الارهاب المدينة شيئا فشيئا . ولم يعدالناس يتساءلون فى حالات الاعتداء عليهم : هل المعتدون ينتمون الى الزرق أم الى الخضر ؟ بل لم يعد المعتدون أنفسهم يهتمون بالتحقق من شخصيات المعتدى عليهم ليعرفوا أهم من الحزب الذىينتمون اليه أم من الحزب الآخر !

واغتنم المدينون فرصة تلك الفوضى الشاملة ، فأخذوا ينتزعون بالقوة من دائنيهم مخالصة بأنهم دفعوا الدين . وصار العبيد يرغمون أسيادهم على عتقهم ، والابناء يبتزون الاموال بالقوة من آبائهم ، والعشاق يخطفون عشيقاتهم ، وطلاب المتعة يرضون شهواتهم فى ظل اختلاط الحابل بالنابل !

▱

وكان من له عدو يخشاه ، يعمد الى المرتزقة من القتلة المأجورين ليخلصوه منه . وبلغ من جرأة اللصوص انهم أصبحوا يقتحمون الكنائس . ويزهقون فيها الارواح ، وصار الناس يتناقلون فى مجالسهم أخبار تلك الاعتداءات المتوالية ، ويبدون اعجابهم بالقاتل الذى يقضى على غريمه بضربة واحدة ، ويعدون ذلك نوعا من البطولة ، خصوصا اذا تمكن القاتل من الهرب دون أن يعرف شخصيته أحد !

وكما كان الشرطة لا يتدخلون فى حادثة ، الا لمساعدة الزرق ضد الخضر ، ارضاء لرغبة الامبراطور الجديد ، كان القضاة من ناحيتهم لا يحكمون على مذنب الا اذا كان من « الخضر » . أما « الزرق » فنصيبهم البراءة دائما ، لان القضاة حريصون على الاحتفاظ بمراكزهم ، وهم يعلمون أن الامبراطور وأسرته يحمون الزرق !

وقد حدث مرة أن كانت امرأة تستعد لركوب سفينة مقلعة الى الشاطىء الآسيوى ، ومعها زوجها . فرآها فريق من الشبان ورافقت فى أعينهم . فأرغموها على الصعود معهم الى قارب كانوا فيه ، وعبثا حاول الزوج انقاذ زوجته من خاطفيها. ولم تجد المسكين وسيلة للخلاص غير الالقـــاء بنفســها فى البوسفور ، فغرقت تحت أنظار الزوج العاجز

وتكررت أمثال هذه الحادثة من غير أن يتمكن الباقون على قيد الحيـــاة من الاقتصاص من الاشرار الذين سببوا موت زوجاتهم أو بناتهم ، لأن أولئك المجرمين كانوا ينتمون الى فئة الزرق صاحبة الحظوة لدى أصحاب السلطان !

وقليل من القضـــاة والشرطة هم الذين كانوا يجدون فى أنفسهم الشجاعة لكى يطبقوا العـدالة على الزرق المشمولين بعطف الامبراطور وحمايته ، وقد جرب محافظ القسطنطينية ذلك فدفع الثمن غاليا وكان هذا المحافظ ـ واسمه «تيودوث» ـ معروفا بأنه رجل نزيه شديد التمسك بواجبات وظيفته ، فاتفق مرة أن قتل فى المدينة رجل يدعى «هيباتوس» من كبار الاغنياء وأصحاب النفوذ بها ، وكان مصرعه فى داخل كنيسة آيا صوفيا ، وأحدثت هذه الجريمة المروعة دويا فى العاصمة ، وكان جستنيان ابن أخى الامبراطور ، المشهور بعطفه على الزرق ، مريضا طريح الفراش ، فتمكن أهل القتيل وأصدقاؤه وهم من الخضر ، من الوصول مباشرة الى الامبراطور جستين وعرض الامر عليه ومطالبته بالاقتصاص من القتلة . فدعا الامبراطور محافظ المدينة اليه ، وأمره بأن ينزل عقابا صارما بالذين قتلوا هيباتوس ، أيا كانت مكانتهم . وما كاد المحافظ النزيه يسمع هذا الامر حتى سارع الى اعتقال الجناة الاشقياء واعتقال الذين حرضوهم على القتل ، ثم شنق بعضهم ، ومن بين هؤلاء رجل يدعى « تيودوز تسيكا » من الاغنياء وأصحاب الحول والطول . فلما شفى ابن أخى الامبراطور من مرضه ،

عمد الى الثأر لاصدقائه ، والانتقام من المحافظ . فقبض عليه وقدمه للمحاكمة أمام مجلس الشيوخ ، فحكم عليه بالطرد من منصبه والنفي الى بيت المقدس ، حيث اضطر الى دخول أحد الاديرة ، خوفا على نفسه من خنـــاجر الزرق التى كانت ترقبه !

وهكذا كانت الخلافات المنبعثة من داخل الملعب ، تمتد الى الى الخارج ، وتحدث فى المدينة اضطرابا وقلقا وفوضى . ولم تمر بضعة اعوام حتى تطورت هذه الحالة الى ثورة جامحة !

▱

وفى أثناء ذلك ، كان المنجمون وضاربو الرمل ومدعو النبوة وقراءة الغيب ومعرفة ما يخبئه المستقبل فى طياته ، يمرحون فى العاصـــمة ويزيدون الافـــكار بلبلة والنفوس اضطرابا ، ويقضون على البقية الباقيـــة من التوازن المـــادى والادبى والروحى !

وقد حدث مرة ، عند « الباب الذهبى » أن وقفت بين الناس امرأة شـــاردة النظر محلولة الشعر ، وجعلت تصيح متنبئة بأن مياه البحر سوف تطفو قبل ثلاثة أيام على البر ، فيحدث طوفان جديد يغرق العـــالم . وصدق الناس هذه النبوءة ، وهرعوا الى الكنائس حيث ظلوا فيها ثلاثة أيام يصلون لله فى انتظار الكارثة التى اعتقدوا أنها واقعة لا محالة !

وحدث مرارا وتكرارا أن ادعى المنجمون ، وهم يتظاهرون بقراءة الغيب مستعينين بحركات النجوم والكواكب ، أن كوارث ماحقة سوف تقع ، ايذانا بقرب نهاية العالم وحلول يوم القيامة فكان الجمهور يصـــدق تلك النبوءات ، وينطلق النـــاس فى الشوارع مذعورين خائفين ، أو يلجئون الى الصلاة فى الكنائس طالبين من الله المغفرة عن خطاياهم ، وسقط كثيرون فى ميادين العاصمة مغمى عليهم ، ظنا منهم أن أشباحا مرعبة تطاردهم .

وعمد آخرون ، تحت تأثير تلك الموجة من النبوءات المزعجة ، الى هجر العالم ودخول الاديرة للترهب والتنسك والانصراف الى العبادة تكفيرا عن ذنوبهم . وتنازل بعض الاغنياء عن أموالهم وأملاكهم للكنائس للغرض نفسه . وصار كل بيزنطى يرغب فى الا يدركه الموت وهو فى حالة الخطيئة غير حائز على رضا السماء . وكان الذعر يستمر أحيانا بضعة أسابيع قبل أن يستطيع الامبراطور تهدئة الخواطر واعادة الطمأنينة الى النفوس ، بل كان الامبراطور نفسه فى بعض الاحيان يشاطر رعيته مخاوفها وذعرها !

نعم ان أصحاب العقول الراجحة والايمان الثابت كانوا يقاومون هذا التيار ، ويرون أن على الامبراطور أن يقضى على تلك الترهات بالقبض على الدجالين ، وحبسهم أو اعدامهم . ولكن الرأى العام كان قد تسمم بتلك النبوءات الكاذبة ، واستولت الخرافات على عقول الناس ، فتعذر على العقلاء وضع حد لتلك الحالة المقلقة !

وكانت النساء طبعا أقرب الى الاندفاع فى هذا التيار من الرجال . فعمدت كثيرات منهن الى الاعمال السحرية واستخدام الكلام والتعاويذ وما شابهها ، للاحتفاظ بزوج شارد أو بعشيق متقلب . فأصبحت المرأة تعتمد على المنجمين والسحرة والمشعوذين أكثر مما تعتمد على جمالها أو فضائلها !

أما تيودورا ، فقد جارت عصرها فى هذا المضمار ، وراحت تعد المساحيق السحرية وتمزجها بالشراب اعتقادا منها بأن هذا يكفل لها بقاء عشاقها على وفائهم لها وتعلقهم بها . وكانت تساعدها فى هذا العمل اثنتان من صديقاتها ورفيقات لهوها هما: « أندارو » الشقراء و « كريزومالو » السمراء . وكانت النساء الثلاث يعتقدن أن الشياطين تساهم معهن فى الاحتفاظ بسيطرتهن على الرجال ، وهكذا باتت تيودورا تنتظر ارتقاء القمة بمساعدتهم !

عاقبة التوبة !

كانت تيودورا تحب المرح ، كما تحب المال ، حبا جما . وقد جمعت ثروة لا يستهان بها . ثم حدث أن أحبت شابا سوريا يدعى « هيسيبولى » أصبح عشيقها المفضل ، وأشد المعجبين بها سلطانا عليهـــا . وكان يشغل وظيفة فى دوائر القصر الامبراطورى . وله حظوة لدى الامبراطور جستين فوقع عليه الاختيار ليشغل منصب الحاكم فى ولاية ليبيا بافريقــا التى كانت تشمل خمس مدن كبيرة بضواحيها . وقررت تيودورا أن تصحب عشيقها الى مقر منصبه الجديد . ويظهر من هذا أنها كانت قد ملت المغامرات الغرامية العابرة وفكرت فى أن تحتل مكانا ثابتا بالقرب من رجل واحد ، اما كزوجة ، أو كعشيقة !

ولكن هذه القصة الغرامية الجديدة لم تدم أيامها طويلا . فقد اختلف العاشقان ولم يعرف سبب الخلاف بينهما . وكان هيسيبولى شرسا قاسى القلب ، فطرد تيودورا من بيته بعد أن أشبعها سبا ولكما ، فهامت على وجهها ، وتنقلت فى بلدان الشرق مدة من الزمن ، وهى فى حالة مزرية . وقد رئيت فى الاسكندرية وانطاكية وبيروت وحمص وغيرها من المدن المصرية والفينيقية والسورية ، تمـــارس مهنتها وتحترف الرذيلة لتضمن رزقها . ويقول المؤرخ « بروكوبس » الذى كتب تاريخ تيودورا وحشاه بالحكايات المعيبة عنها : « ان الشيطان اراد الا يجهل بلد واحد فى العالم من هى تيودورا الفاسقة ! »

وكان ذلك فى سنة ٥٢١ م

ويبدو أن اقامة تيودورا مدة طويلة بمصر وسورية،وفينيقيا كان لها أثر بعيد فى تكييف حياتها وتوجيهها فى المستقبل . ففى ذلك العهد كانت الاسكندرية مدينة كبيرة ذات تجارة واسعة ، يرحل تجارها الى الصين والهند وسيلان لجلب الحرير والتوابل والحجارة الكريمة وغيرها . كما كانت مستودعا تصدر منه الى موانىء البحر المتوسط حنطة وادى النيل ومنتجات الشرق الادنى وفضلا عما عرفت به فى ذلك العهد من انها مركز من أهم مراكز التجارة فى العالم ، ومدينة اللهو والبذخ والترف والاناقة ، بفضل ما فيها من الثروات الضخمة، ومختلف الغانيات الجميلات اللواتى حفظ التاريخ أسماءهن ، مثل تاييس وكريزيس وغيرهما . كانت الى ذلك كله قد اشتهرت منذ القرن الرابع للميلاد بأنها احدى عواصم المسيحية ومعاقلها الكبرى بجانب كونها عاصمة مصر !

ولم تبلغ المشاحنات المذهبية والخلافات الدينية والمجادلات القائمة على التعصب حينا وعلى التراخى حينا آخر ، مابلغته فى الاسكندرية من شدة وعنف ومبالغة

على أن سكان الاسكندرية كانوا يمجدون ذكرى الابرار الذين انشأوا الاديرة فى صحارى مصر وأشاعوا فيها حياة الرهبنة ، من أمثال القديسين انطون وباخوم وشنودة وسرابيون . فقد احاطت الاديرة وأماكن العبادة مدينة الاسكندرية وملأت ضواحيها ، وكان عدد الرهبان والمتعبدين والزهاد الذين هجروا العالم ليعيشوا فى الصحراء الغربية ، حيث الاديرة وصوامع العبادة التى لا عداد لها ، كبيرا الى حد جعل العالم المسيحى يطلق على تلك الصحراء اسم « صحراء القديسين »

ولما نزلت تيودورا فى مصر ، للبقاء فيها مدة من الزمن ،

كانت البلاد فى حالة قلق واضطراب ، من جراء ذلك العراك الدينى الذى أشرنا اليه ، والذى لم تخفف من غلوائه جهود المتعبدين والنساك الداعين الى السلام والوئام . بل ان ذلك العراك ما لبث أن امتد الى الاديرة وأمكنة العبادة نفسها .
وذلك لان الامبراطور جستين ، الذى كان فى ذلك الوقت جالسا على عرش بيزنطة — ومصر ولاية بيزنطية — كان شـديد الرغبة فى ازالة الخلاف الذى أدى الى انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية ، أو بعبارة أخرى عن سلطة البابا فى روما . وقد بذل جستين جهده فى هذا السبيل ، وراح يضغط على رؤساء الكنيسة التابعين له فى انحاء امبراطوريته الشاسعة، لحملهم على مجاراته فى التساهل مع روما والانقيـاد الى توجيهها . ولكن رؤساء الكنيسة الشرقية عارضوه وقاوموه ، ورفضوا الاذعان لاوامره ، فجعل يضطهدهم ويشردهم ويسجن بعضهم ، واضطر كثيرون منهم ازاء ذلك الى الهرب والالتجاء الى مصر حيث حماهم بطريرك الاسكندرية « تيموثاوس » وأنزلهم بالاديرة المصرية حول الاسكندرية أو فى الصحراء الغربية !

ولم تتناول الاضطهادات رجال الدين وحدهم ، بل تعدتهم الى العلماء والاثرياء ورؤساء العائلات النبيلة ، وسيداتها : فكل من عارض الامبراطور أو تمرد على ارادته ، كان يناله شىء من نقمته ، وهكذا فر أيضا من سورية الى مصر عدد كبير من علية القوم ، بينهم كثيرات من النساء ، ولجأ هؤلاء جميعا الى الاديرة حيث ظلوا محتفظين بعقيدتهم ، رافضين الانقياد لرغبات الامبراطور !

▱

وفى ذلك الجو المضطرب وتلك الظروف الحرجة ، هبطت تيودورا أرض مصر شريدة طريدة . فلم يكن عجيبا أن تدفعها طبيعتها الجامحة الى أخذ نصيبها من الجدل الذى شغل الناس

كبيرهم وصغيرهم فى مدينة الاسكندرية عاصمة البلاد !

وقد اتصلت تيودورا بالبطريرك تيموثاوس ، فرحب بها ، ولاشك فى أنه حاول التأثير فى نفسها ليحملها على العدول عن سيرتها وتحسين سلوكها . ولا شك أيضا فى ان تيودورا قد تأثرت بوعظ ذلك الشيخ الجليل التقى الورع ، وانها حاولت اصلاح ما فى نفسها من مفاسد . وقد ظلت طول حياتها تقدس اسم ذلك الشيخ الذى كانت تتحدث عنه باجلال ، وتقول : « انه صاحب فضل على لن أنساه » . وكانت تلقبه كلما ذكرت اسمه بلقب : « أبى الروحى »

ولما شاءت الاقدار ، فيما بعد ، أن تتولى تيودورا شئون الدولة الرومية وتدبر أمورها وتنظم كنيستها ، أظهرت فى ذلك براعة ومهارة ، ومعرفة تدل على أن الدروس التى تلقنتها عن البطريرك الاسكندرى لم تذهب سدى !

وقد اشترك فى ارشادها ، مع البطريرك تيموثاوس ، عالم آخر من علماء الكنيسة الشرقية هو « سفيروس » . وقد اعترفت هى فيما بعد بأن هذا الرجل الصالح قد هذب نفسها وأبعدها عن الهاوية وعلمها الكثير مما كانت تجهله . ولما أصبحت فى بيزنطة صاحبة قوة واقتدار ، دعت سفيروس وأصحابه الى الاقامة بالقسطنطينية وفتحت لهم أبواب قصرها وحملت زوجها الامبراطور على تأييدهم وحمايتهم ومساعدتهم بماله ونفوذه وسلطانه . وظلت من ناحية أخرى تعطف على الاسكندرية عطفا خاصا وتقول عنها : « انها أحب المدن الى قلبى ! »

ولكن تيودورا لم تذهب الى مصر للاقامة بها ، ولذلك سرعان ما قررت مغادرتها لتستأنف رحلتها الى حيث تجد الاستقرار الذى تنشده لنفسها !

وكان أن رحلت الى سورية حيث نزلت بمدينة انطاكية ، أكبر المدن السورية فى ذلك العهد . وكانت انطاكية ، مثل

الاسكندرية ، مسرحا لمشاحنات دينية منوعة ، ولكنها اقل عنفا من مشاحنات العاصمة المصرية . كما أنها كانت اقرب الى بيزنطة منها الى الاسكندرية ، من حيث الحياة الاجتماعية وميول الشعب وأنواع لهوه وتسليته . ففى انطاكية كان هناك ملعب مثل ملعب القسطنطينية . وكانت هناك دور للتمثيل والتهريج . ومواخير للفسق والفجور بجانب أماكن العبادة . كما كان فيها ممثلات وراقصات ، ومنجمون ودجالون !

وفى أنطاكية ، عادت تيودورا شيئا فشيئا الى سيرتها الاولى ، وجعلت تتردد على قارئات الكف وضاربات الرمل ، وابتعدت عن الرهبان والوعاظ والمبشرين !

وهناك توثقت عرى الصداقة بينها وبين « ماسيدونيا » الغانية التى اشتهرت بأنها تجيد استطلاع الغيب بقدر ما تجيد الرقص والغناء . وقد تنبأت ماسيدونيا لصديقتها الجديدة بأن مستقبلاباهرا ينتظرها ، وبأنها سترتقىمدارج المجد والشهرة، وترتفع الى أعلى ما يمكن أن ترتفع اليه امرأة !

وصدقت تيودورا نبوءة صديقتها الجديدة . وصارت تأوى كل ليلة الى فراشها ، وتغمض أجفانها وهى تتخيل نفسها زوجة لسيد الابالسة ، الحائز على كنوز الارض .. الكنوز التى سوف تصبح لها دون سواها من الناس !

كانت الاحلام الحلوة تداعبها فى منامها . فتصحو قبل الفجر وتصلى ... ثم تطلب من الله أن يحقق آمالها ، واعدة بأن تعدل عن حياة اللهو التى تحياها ، وتصبح امرأة تقية صالحة !

وكانت ماسيدونيا تعرف الامير جستنيان ابن اخى الامبراطور جستين وولى عهده . وقد خدمته من قبل فى القسطنطينية فى ظروف عصيبة ، فحفظ لها الامير الشاب جميل صنعها . ويغلب على الظن أن ماسيدونيا هى التى مهدت لصديقتها تيودورا سبيل الاتصال بولى العهد ، ودخول

القصر ، وانهــا استعانت لذلك ببعض أصدقائها فى حاشية الامبراطور وابن أخيه

وقد ثبت الآن ان تيودورا رحلت عن أنطاكية عائدة الى القسطنطينية وكلها آمال وأحلام ، وانها ابتعدت عن الوسط الذى عاشت فيه من قبل ، فهجرت المسرح والملعب والمرقص ، ولم تعد تختلط بالنساء اللواتى عرفتهن فى عاصمة الامبراطورية قبل رحيلها مع عشيقها السورى الى ليبيا . بل استأجرت بيتا صغيرا فى حى هادىء منعزل ، وجعلت تعمل بيديها ، فى الغزل والحياكة ، وتعيش قانعة بما يدره عليها هذا العمل الشريف !

وفى الروايات المأثورة عن القرن الحادى عشر ، أن كنيسة « بانثيلمون » التى يرجع تاريخ تشييدها الى عهد جستنيان ، وتيودورا ، كانت قائمة فى مكان ذلك البيت الذى اعتكفت فيه الغانية التائبة بعد عودتها من سورية ، وعاشت مدة من الزمن عيشة أقرب الى الزهد والتنسك . والمأثور أيضا أن تيودورا شيدت تلك الكنيسة لتعبر عن شكرها لله ، بعد توبتهـــا واتصالها بولى العهد ثم الاقتران به ، وارتقاء العرش معه جنبا الى جنب !

الممثلة المتوجة !

حينما التقى جستنيان وتيودورا ، نحو سنة ٥٢٢ م ، وهو مازال وليا للعهد ، كانت سنه تتراوح بين الثامنة والثلاثين ، والاربعين . وكان جميلا جذابا ، ذا بشرة زاهية ، وشعر مجعد ، ووجه صبوح ، وقامة معتدلة ، تضمها ثياب فاخرة ، تسبغ عليها اناقة تسترعى الانظار

وكان جستنيان خفيف الروح ، حلو الحديث ، لطيفا مع الناس ، على جانب عظيم من الثقافة ، فضلا عن الثروة الضخمة التى يملكها ، ومنصب الامبراطور الذى ينتظره

ولما نجحت المؤامرة التى دبرها رجال القصر ، وجلس عمه جستين على العرش بقى هو وليا للعهد ، مقدما على جميع رجال الدولة . فقد أغدق عليه عمه الالقاب والنعم ، وجعله قائدا لحامية العاصمة ، واخذ يعده ليكون خليفته على العرش ولم يكن بالعجيب اذن ان تتطلع اليه انظار تيودورا ، الحسناء وأن تعمل جاهدة لاكتساب قلبه !

وكان جستنيان بعيد المطامع بعيد الاهداف واسع الحيلة حريصا على أن يسير كل يوم خطوة الى الامام فى سبيل غرضه الاسمى وهو الجلوس على العرش . وقد حصر جهده ، منذ اللحظة الاولى فى ابعاد منافسيه من طريقه ، والتخلص شيئا فشيئا من جميع الاشخاص الذين قد يعترضون ارتقاءه العرش او يقيمون فى سبيله العراقيل . وقد نجح فى هذا نجاحا عظيما ، بفضل استمالته جميع الاوساط والبيئات فى

المجتمع البيزنطى الى أبعد حد ، ولان حبه للنـاس جعلهم بدورهم يحبونه بصدق واخلاص !

وكان طبيعيا ان يعطف رجال الدين فى العاصـــمة على جستنيان وان يحرصوا على تأييده فى جميع خطواته ، ذلك لانه كان متدينا عن ايمان وعقيدة ، متمسكا بمبادىء الكنيسة الشرقية برغم المساعى التى بذلها عمه الامبراطور للتقـرب من روما والكنيسة الغربية !

وعشقته الجماهير لانه كان كثير التجوال فى المدينة ، يختلط بالناس ويلاعبهم ويغدق عليهم العطايا والهبات ويقيم لهـم المآدب الشعبية الشهية من حين الى حين

ولم يجد أعضاء مجلس الشيوخ ، والنبلاء فيه ما يحملهم على الشك فى نواياه أو التأفف منه ، فأخلصوا له كما أخلص لهم

أما عمه الامبراطور فكانت ثقته به لا تقف عند حد ، لعلمه بأنه حكيم حازم كثير التجارب واسع المعرفة بشئون الدولة كبيرها وصغيرها ، وبأنه يعمل بجلد لا يعرف الكلل ، ولا يفوته شيء من دخائل الامور مهما تكن تفاهتها !

وعلى هذا ، فان الشعب كان ينظر الى جستنيان نظره الى الحـاكم الاصــيل ، والامبراطور الحقيقى ، ويكن فى الوقت نفسه لعمه الامبراطور الشيخ عواطف الولاء والاحترام

وهكذا كان كل شيء يدل على أن جستنيان جدير بثقـة الامبراطور وبمحبة الشعب على السواء . كما كان كل شيء يدل على أن هذا الامير الناضج القوى المحبوب ، قد أحب من كل قلبه تيودورا الحسناء ، وبات لا يعدل حبها عنده أى شيء فى الوجود !

وقد حار الناس فى تعليل تلك العلاقة الغرامية التى توطدت بين ولى العهد الراجح العقل ذى الاهداف السامية وبين تلك الممثلة ، ولم يستطع كثيرون منهم أن يكتموا دهشتهم من

قيام تلك العلاقة الغريبة وجعلوا يبحثون عن الاسباب والعوامل التى حملت جستنيان على الارتباط بتيودورا برابطة الحب ، فلم يعثروا على ما يشفى غليلهم . ولهـذا راحوا يقولون : « ان الغانية الحسناء عمدت الى السحر والشعوذة للتسلط على قلب عشيقها !»

ولم يكن هناك ما يدعو الى ذلك . فان الامير الشاب كان يحمل بين ضلوعه قلبا سريع التاثر ، يلتهب من الشرارة الاولى وكان يميل الى مغازلة النساء ، ويصغى باهتمام الى مايروى حوله من مغامرات غرامية ، وفضلا عن ذلك كله كان ضعيف الارادة أمام المرأة ، بل امام كل شخصية قوية ، برغم مظاهر الشدة والعناد التى كانت تبدو عليه !

وفى نفس الوقت كانت تيودورا بارعة الجمال ، حـادة الذكاء ، لطيفة المعشر ، عذبة الصوت والحديث ، تعـرف كيف تأسر قلوب الرجال الذين يتقربون اليها وكيف تبقيهم فى أسر جمالها وظرفها . كما أنها تعودت ان تدرس أهدافها بدقة وترسم الخطة المثلى لبلوغها ، ثم تمضى فى سبيل ذلك فى صبر ومثابرة ، لا يثنيها عن عزمها أى شىء . وهكذا ماكادت ترى جستنيان للمرة الاولى ، وكانت قد علمت عنه كل هـذه الصفات ، حتى قررت اقتناصه ، ورسمت لذلك خطة نفذتها بحذافيرها فكللت بالنجاح !

اما هو فقد وقع فى حبائلها منذ اللقاء الاول . فقد انقض عليه الحب انقضاض الصاعقة . وشعر بأن هناك قوة خفية تدفعه الى أحضان تلك المرأة التى قال عنها فيما بعد : « ان جميع الصفات التى كنت أرغب فى أن أجدها عند المرأة وجدتها مفرغة فى تيودورا ! »

وظل جستنيان وفيا لتيودورا طول حياتها ، وبقى حبه لها قويا عنيفا حتى موتها ، كما كان منذ اليوم الاول الذى لقيها فيه !

وقد كتب احد المؤرخين المعاصرين لهما ان جستنيان كان يعد تيودورا الزم له من الهواء ، وقال آخر انها كانت « السعادة الكاملة المجسمة فى امرأة كاملة ! » وكثيرا ما وصفها جستنيان نفسه بأنها اسم على مسمى .. وكلمة «تيودورا » معناها : « هدية الله » أو « هبة الله » . وطبيعى أنه وقد احبها كل ذلك الحب العنيف لم يكن يرفض لها طلبا أو يبخل عليها بأى شىء تطلبه منه !

كانت تحب المال فاغدقه عليها بلا حساب !

وكانت تهوى المظاهر والالقاب فأقنع عمه الامبراطور بأن يمنحها لقب نبيلة فارتفعت الى أعلى درجات المجتمع البيزنطى !

وكانت عنيدة فى آرائها متشبثة بها ، فعمل جستنيان بجميع تلك الآراء بعد ان وافق عليها ، وأصبح منفذا لارادتها مؤيدا لأهوائها ، صديقا لاصدقائها ، خصما لخصومها !

ولما كانت تحقد على جماعة « الخضر » منذ العهد الذى كانت فيه ممثلة فى ملعب العاصمة ، فقد سايرها جستنيان وناصب الخضر العداء ، وأعلن نفسه مدافعا عن الزرق وحاميا لهم ، الى حد أثار عليه فى النهاية ثائرة النقمة والانتقاد !

وكذلك كانت تميل الى فريق دون آخر من أصحاب المذاهب الدينية ، منذ اقامتها بالاسكندرية ، فاعتنق جستنيان أفكارها وآراءها فى هذا المضمار أيضا ، وسار بعد وفاة عمه على سياسة تتعارض مع السياسة التى كان الامبراطور الشيخ راغبا فى تطبيقها بين الكنيستين المتخاصمتين !

▱

ولقد فطن الشعب سريعا الى العلاقة بين جستنيان وتيودورا فما مرت اسابيع على قيامها بينهما حتى أصبحت حديث الخاصة والعامة فى بيزنطة . بل لقد تخطى خبرها أسوار

العاصمة ، فلم يكن اهتمام الناس بهـــا فى حمص وبيروت وانطاكية والاسكندرية بأقل منه فى بيزنطة ولم يكتم أهل تلك البلاد عجبهم من أن الممثلة الشريرة ، والخاطئـة التائبة ، تلميذة تيموثاوس وسفيروس ، أصبحت من نبيلات بيزنطة، وعشيقة لولى العهد !

ورأى البسطاء من الناس أن هذا الحادث العجيب ليس الا مظهرا من مظاهر العطف الربانى ، وان الله اراد أن يضـع بجانب الامير ولى العهد ، امرأة من بيئة وضيعة ، لكى تصبح حامية الشعب وحاملة رغباته وأمانيه الى أصحاب السلطان !

وبدءوا يتوجهون الى تيودورا بطلباتهم وتوسلاتهم . وكان أول ما طلبوه منها ، ان تتدخل لدى جستنيان لكى يقنـــع الامبراطور بتخفيف وطأة الاضطهاد عن رجال الدين الذين يخالفونه فى الراى والميول

وقد أجابتهم تيودورا الى رغبتهم وحققت املهم . وكان بين المغضوب عليهم جماعة من الرؤساء الروحيين وأنصارهم، يقيمون فى منفاهم ببلاد العرب ، فأقنعت تيودورا عشيقها بأن يجعل الامبراطور يصفح عنهم ، وسرعان ما راح يسعى فى هذا السبيل لارضـاء رغبتها ، فكلل مسـعاه بالنجاح ، وعفا الامبراطور عن أولئك المنفيين ، وسمح لهم بأن يذهبوا الى الاسكندرية ليعيشـوا فيها بين زملائهم الذين تجمعهم واياهم وحدة العقيـدة ووحـدة الرأى . وكان ذلك نصرا عظيما للمرأة الساحرة ، ودليلا على نفوذها وقدرتها وحسن تدبيرها !

وحدث فيما بعد ما هو أعجب من ذلك وأبعد أثرا ، فقد تمكن الحب من قلب جستنيان الى حـد أنه أعلن ذات يوم انه راغب فى اتخـاذ عشـيقته زوجة حليـلة . ويظهر أن

الامبراطور جستين الطيب القلب لم يمانع كثيرا فى اقدام ابن اخيه وولى عهده على ذلك الزواج المخالف للعرف والتقاليد والكرامة . وكان هذا هو المنتظر لان هذا الامبراطور نفسه نشأ جنديا ولم يكن ينحدر من سلالة ملوك أو أمراء أو نبلاء ، ولذلك لم ير ضيرا فى أن يتزوج ابن أخيه من راقصة الملعب التى اتخذها خليلة له . ومما يذكر أن الامبراطور العظيم كان هو الآخر قد تزوج جارية مجهولة الاصل ، بعد أن اتخذها عشيقة له فى خلال توليه قيادة الجيش الرومانى لفتح بعض البلدان . وقد رافقته فى غزواته وحروبه ، ثم تزوجها وأجلسها على العرش يوم بايعه الروم بالملك على أثر انتصاراته الباهرة !

فلماذا اذن يمانع الامبراطور جستين فى زواج جستنيان من تيودورا ؟.. على أن العراقيل جاءت من حيث لم يكن أحد يحتسب فقامت المعارضة فى زواجه بتيودورا ، لا من الامبراطور عمه ، ولا من أحد من رجال الحكومة أو الجيش أو رجال الدين ، بل جاءت هذه المعارضة من جانب الامبراطورة « أوفاميا » زوجة الامبراطور الشيخ وعشيقته السابقة المجهولة الاصل !!

نعم ، أن الجارية التى توجها جستين امبراطورة فى بيزنطة ، عارضت بكل قوتها فى أن يتزوج ولى عهد زوجها من امرأة من بنات الشعب ، لانها فيما يبدو لم تكن تريد أن تصل امرأة غيرها الى عرش بيزنطة ، بالطريقة التى وصلت بها هى اليه !

وايا ما كانت الاسباب التى حدت بالامبراطورة الى هذه المعارضة فقد كانت مفاجأة صعق لها جستنيان وثارت ثائرة تيودورا . بينما ضحك الشعب البيزنطى لذلك كثيرا !

وقد حاول الامبراطور جستين أن يقنع زوجته بالعدول عن موقفها ، لكنها لم تقتنع . ومما يزيد فى غرابة ذلك الموقف

ان أوفاميا لم تكن تكره جستنيان أو تحتقر الشعب الذى خرجت منه . ولكنها كانت تقول ان تكرار الخروج على العرف والتقاليد والقانون فيه ضرر كبير من شأنه أن يؤثر فى مركز الاسرة المالكة وسمعتها . واذا كان زوجها جستين قد رفعها الى العرش ، فان هذا لا يعنى أن سلم العرش أصبح فى متناول جميع الاقدام ، ترتقيه بنات الشعب الوضيعات كما ترتقيه بنات الاسر النبيلة سواء بسواء !

غير أن الاقدار حلت المشكلة .. فقد ماتت أوفاميا فى سنة ٥٢٣ ، وجاء موتها فى الوقت المناسب . وهدأت ثورة جستنيان ، وعشيقته . ولم يبق عليهما الا التمهيدالقانونى للزواج المنشود !

وكان القانون البيزنطى يحرم على أعضاء مجلس الشيوخ ، وذوى المناصب الرفيعة فى الدولة ، الزواج من الاماء والخادمات والممثلات وغيرهن من النساء اللواتى يحترفن حرفة معيبة أو وضيعة . ولكن لم يكن من الصعب على جستنيان أن يقنع عمه بالغاء هذا القانون أو بتعديله . وهكذا رضى الامبراطور بادخال التعديل المطلوب على ذلك القانون ، ونص فيه على أن المرأة التى تنطبق عليها أحكام هذا القانون ، اذا حسنت سلوكها ، وتطهرت من خطاياها ، وخرجت من البيئة التى تعيش فيها ، يحق لها أن تتزوج أى رجل من رجال الدولة ، بشرط أن تحصل على اذن من الامبراطور !

وذهب التعديل الى أبعد من هذا ، فنص على أن كل ممثلة ممن ينطبق عليهن القانون المعدل ، اذا أنعم عليها برتبة ، أو تولت منصبا من المناصب ، فان ذلك يكون كافيا لاعفائها من الحصول على الاذن الامبراطورى . وقد وضع هذا التعديل الاضافى خاصة لاعفاء تيودورا من طلب التصريح لها بالاقتران بالامير ولى العهد . ولكى يصبح كل شىء على

خير ما يرام ، أضيف الى التعديل أيضا أن بنات الممثلة التى تتزوج بمقتضى هذا التعديل لا يطبق عليهن القانون المذكور، ولا يفرض عليهن طلب الاذن من الامبراطور لعقد زواجهن ، سواء أكان مولدهن قبل توبة الام أم بعدها . وهكذا أصبحت ابنة تيودورا أيضا فى حل من كل قيد ، اذا أرادت أن تتزوج !

وقبل أن يتزوج جستنيان عشيقته تيودورا ، نفحها بائنة باهظة جعلتها فى مصاف الاغنياء . ولم يقابل البيزنطيون هذا الزواج بشيء من الامتعاض . ولم يتأفف منه غير بعض المحافظين المتمسكين بالتقاليد ، ممن رأوا فى هذا الحادث دليلا على أن جستنيان قليل الاهتمام بمكارم الاخلاق ، فى حين كان بوسعه أن يختار زوجته من بنات الاسر النبيلة الغنية أو من بنات الملوك فى الشرق أو الغرب !

ولم تصدر كلمة اعتراض واحدة عن مجلس الشيوخ أو الجيش أو رجال الكنيسة . أما الشعب ، فقد تذكر أنه طالما صفق لتيودورا الممثلة فى ملعب العاصمة ، فراح من جديد يصفق لها وهى على مدارج العرش !

وما كادت تعقد زواجها ، حتى بدأت تتدخل فى شئون الدولة ، بوصفها شريكة ولى العهد فى نشاطه ومسئولياته ، وقد رضى هو بذلك كما رضى به الامبراطور الشيخ الذى غمرها بعطفه وحنانه ، منذ عرفها ووافق على زواجها

والواقع أن تيودورا كانت بجانب عيوبها الكثيرة تمتاز بفضيلة نادرة ، هى الوفاء للاصدقاء الذين عرفتهم وأحبتهم . وكان رجال الدين المضطهدون أول من تجلت لمصلحتهم وفائدتهم هذه الفضيلة التى لازمتها طول حياتها . فقد أدركت تيودورا ، بثاقب نظرها ، مبلغ الضرر الذى يعود على الامبراطورية من جراء تفاقم الخلافات المذهبية ، والاضطهاد القائم على التعصب . وبدأت من فورها تبذل جهدها لوضع حد حاسم لذلك الاضطهاد فرسمت لذلك

خطة جريئة راحت تمهد لها وتنفذها بسرعة مقرونة بالدقة والمهارة ، بحيث لا تغضب أحدا ولا تثير شكوك أحد !

ومن اجل ذلك دعت جميع المغضوب عليهم من الامبراطور ومن رجال الدين الموالين له ، الى بيزنطة حيث أنزلتهم ضيوفا عليها . وقد لبوا هذه الدعوة الكريمة جميعا شاكرين مغتبطين ، فوضعت تحت تصرفهم دارا فسيحة فخمة اقاموا بها . وأجرت عليهم الارزاق واغدقت عليهم الهبات ، ثم وقفت نشاطها وجهودها وبراعتها على التوفيق بين المتخاصمين وتقريب وجهات النظر فيما بينهم وازالة أسباب الجفاء واقتلاع جذور الاحقاد من الصدور . وبرغم ما كان فى ذلك العمل من خطر عليها ، ومن تحد لخصوم أولئك المغضوب عليهم ، فقد كلل التوفيق مساعيها ، وعرفت كيف تفرض ارادتها وتصل الى أغراضها !

ان تيودورا كانت تتمتع بسلطة لم تكن هى نفسها قد أدركت بعد مداها ، وبنفوذ لم تكن بعد قد لمست قوته !. فزواجها من جستنيان ، الامير المحبوب ، ضاعف حب الناس لها ، لانها من بنات الشعب . فصعد نجمها جنبا الى جنب مع نجم الزوج الذى اختارها شريكة لحياته . وبعد أن كان الامبراطور قد منحها لقبا نبيلا قبل الزواج ، عاد فمنحها لقبا أرفع منه بعده . وفى شهر ابريل سنة ٥٢٧ ، أصدر جستين مرسوما امبراطوريا يقضى بأن تكون تيودورا ، مثل جستنيان ، شريكته فى العرش . وبعد ايام من ذلك الاعلان الرسمى الصريح ، عقد أعضاء مجلس الشيوخ جلسة فى بهو القصر الامبراطورى ، حضرها مندوبون عن الجيش والحرس ، وصعد الامبراطور جستين الى منصة العرش ، وأعلن مرة أخرى أن ابن أخيه جستنيان أصبح امبراطورا ، وأن زوجته تيودورا أصبحت امبراطورة تشاركه السلطة والحقوق والواجبات !

ووقف بطريرك القسطنطينية « ابيفانوس » عن يمين الامبراطور الشيخ وتلا الصلوات المعتادة فى مثل هذا الظرف، ورد عليها الحاضرون بكلمة واحدة ودعاء واحد : « آمين ! » . ثم نزع جستين التاج عن رأسه ، ووضعه بيده على رأس ابن أخيه وشريكه فى الملك جستنيان وهتف الحاضرون ثلاثا للامبراطور الجديد ، ورفع جستنيان يده شاكرا ، ووعد الجنود بمكافأة مالية عملا بالتقاليد المرعية !

وبعد ثلاثة أيام ، أقيمت حفلة رسمية فى كنيسة القديسة صوفيا ، بمناسبة عيد الفصح ، فبدت الازهار والاكاليل والانوار المتلألئة تسبغ على المكان رونقا جديرا بتلك المناسبة الجليلة وذلك العيد المزدوج . وقام البطريرك باجراء المراسيم الدينية لتكريس الامبراطور الجديد ودهنه بالزيت المقدس

ووقف جستنيان بردائه الارجوانى ، وقميصه المموه بالذهب والمرصع بالاحجار الكريمة ، وفى قدميه حذاء بلون الرداء ، وحول وسطه حزام مرصع بصفوف من الجواهر وعلى رأسه تاج الملك، وفى عنقه ومعصميه الحلى الامبراطورية المتوارثة ، وتسلم السلطة العليا فى الدولة الرومية الشرقية!

ووقفت تيودورا بجانبه ، تشاركه العظمة والمجد والتكريم ، وقد وضعت على كتفيها رداء بنفسجيا ، ينتهى بذيل طويل من خيوط الذهب ، وعلى رأسها التاج وفى شعرها المسترسل عقود من الماس وغيره من اللآلىء الثمينة تتساقط على كتفيها كمطر من نور !

وبعد ان توجت الممثلة السابقة امبراطورة على الشرق مع زوجها العاشق المتيم ، فى الكنيسة التاريخية ، خرجت معه الى الممرات المزدانة بالازهار والرياحين والاعلام ، ورافقته الى الملعب حيث تلقت هتاف الجماهير وتصفيقهم ، فى المكان الذى كانت من قبل ترقص فيه وتمثل وتغنى ! وهكذا تحقق لها حلمها الجميل !

وفى السـنة ذاتها ، فى اول أغسطس سـنة ٥٢٧ ، مات جستين تاركا الملك لابن أخيه الذى لم يجد اية صعوبة فى الاحتفاظ بالعرش . وظلت تيودورا بجانبه تشـاركه المجد والمتاعب !

وحكمت الممثلة السابقة احدى وعشرين سنة ، من سنة ٥٢٧ الى سـنة ٥٤٨ ، كانت فيـها مطلقة التصرف حاكمة بامرها ، على عرش اعظم دولة عرفها العالم فى ذلك العهد !



امرأة وأسطورة !

ان قصة تيودورا قبل ارتقائها العرش أكثرها مأخوذ عن المؤرخ « بروكوبس » . فهو وحده من بين المؤرخين الذى عنى بتدوين تلك الحقبة من حياة الامبراطورة العظيمة ، فى كتابه الذى سماه « التاريخ السرى » وقد بقى هذا الكتاب مطويا كما خطه مؤلفه حتى كشف عنه فى أوائل القرن الثامن عشر فكان المصدر الوحيد الشامل الذى يمكن الرجوع اليه فى هذا الشأن !

ولكن هل يجب أن نصدق كل ما جاء فى هذا الكتاب عن تيودورا وعن سلوكها الشائن ، وسمعتها الملطخة ، وما الصقه بها بروكوبس من أعمال يندى لها الجبين ؟

يحق لنا أن نتساءل : اذا كانت تيودورا تلك المراة التى وصفها بروكوبس ، فكيف لم يجرؤ أحد غيره على التحدث عنها بمثل ما تحدث به من قسوة وحرية ؟

ان الناس كانوا ينتقدون الملوك والملكات والعظماء فى ذلك العهد ، ويوجهون اليهم افظع التهم جهارا ، فكيف لم يعمد واحد منهم الى تدوين مثل ما دونه بروكوبس عن تيودورا ، فى حين أن خصوم جستنيان حملوا عليه حملة شعواء ، وقذفوه بعبارات جارحة وصل صداها الينا من خلال صفحات التاريخ من غير أن يذكروا فى حملاتهم كلمة عن المرأة التى يصفهـا بروكوبس بأنها من أنذل النساء الساقطات ؟ .

وكيف يمكن أن يضرب جستنيان عرض الحائط بجميع الاعتبارات ، ويتزوج امرأة ملطخة بالعار الى هذا الحد ،

وهو الامير الموعود بالعرش ، الحكيم المثقف ، البالغ نهاية العقد الرابع من العمر ؟

يبدو لنا ان الحقيقة لاتطابق تماما ماذكره بروكوبس ، وانه قد بالغ فى تلطيخ سمعة تيودورا لغرض فى نفسه . ولا شك ان تيودورا ارتكبت كثيرا من الهفوات والاخطاء التى تؤخذ عليها ، ولكن مثل تلك الهفوات والاخطاء كان الناس فى ذلك العهد ينظرون اليها بعين غير التى ننظر بها نحن اليوم الى مثلها . وفى هذا ما يفسر لنا سكوت معاصرى تيودورا عن سلوكها الشخصى وسيرتها قبل أن تصبح امبراطورة على رأسها التاج !

ولقد ذكر لنا التاريخ أسماء طائفة كثيرة العدد من الامراء والنبلاء والاغنياء ورجال الحكم ورجال الدين والقواد فى مختلف عهود الامبراطورية البيزنطية ، ومن بين هؤلاء كثيرون ، عمدوا الى انتشال النساء الساقطات من بؤرهن ، واتخذوا منهن زوجات حليلات . وكان الرأى العام ينظر الى ما أقدم عليه أولئك الاشخاص المحترمون على أنه عمل انسانى أراد به صانعوه اكتساب الاجر والثواب !. فلكل عصر من العصور ولكل شعب من الشعوب ، آراؤه ونظرياته وعقليته . وتلك كانت عقلية البيزنطيين المستمدة من عقلية الرومانيين ، وتلك كانت نظرياتهم وآراءهم !

من أجل ذلك ، نميل الى الاعتقاد بأن تيودورا لم تكن كما وصفها بروكوبس ، ولكنها على كل حال كانت تلك الراقصة والمغنية والممثلة التى سقطت ومشت فى الطريق الذى تسلكه مثيلاتها ، ثم حاولت الخروج من البؤرة التى تردت فيها ، ونجحت فى محاولتها ، فندمت على مافرط منها . ولما وجدت الرجل الذى تطمئن اليه ، أخلصت له ، واستقرت فى حياتها الزوجية ، ووجدت عزاء فيما أصابته من مجد وسؤدد ، وفيما انصرفت اليه من تدين وتعبد !

ان تيودورا امرأة مغامرة ، هذا مالا شك فيه . وهى ملطخة بالعار ، هذا ما لا سبيل الى انكاره . ولكنها امرأة ذكية نبيهة بارعة فى كل شىء ، عرفت كيف تتخلص من عارها ، وتمحو سيرتها القديمة الشائنة بسلوكها طريق الخير وخدمة المصلحة العامة والاحسان الى شعب خرجت منه وحكمته وأحبته !

ان ماحدث لتيودورا ، التى ارتفعت من الحضيض الى الاوج الاعلى ، كان له أثر بعيد فى مخيلة مواطنيها ومعاصريها . فقد دهشوا له وكانت دهشتهم فى محلها . وليس عجيبا اذن أن يتناول الناس تلك الحياة العجيبة بعد موت تيودورا وأن يزيدوا فى وقائعها وعلى حواشيها وهوامشها ما شاء لهم الخيال حتى غدت أقرب الى الاساطير منها الى حقائق التاريخ !

لقد كان الغربيون والشرقيون على السواء يتحدثون عنها وعن صعود نجمها المفاجىء وأعمالها العظيمة بكثير من الاعجاب والتقدير . وراحوا يضيفون الى ما سمعوه وعرفوه وقرءوه تفصيلات من عندهم . فنسج البيزنطيون والسوريون والمصريون والصقالبة والعرب وغيرهم ممن كان لتيودورا أو لزوجها صلة بهم ، خيوطا من الخيال حول حياتها ، وتحولت هذه الخيوط مع الوقت الى نسيج جلل تلك الصورة العجيبة وأحاطها بهالة جعلتها تبدو كقصة مثيرة رائعة وان كانت فى الوقت نفسه لا يمكن أن تكون حقيقة مجردة من الخيالات والاوهام !

وهكذا وصلت الينا تلك الاوصاف التى علقت بتيودورا ، بعضها ممزوج بالعطف والتغاضى عن السيئات ، وبعضها مصحوب بنقد لاذع جارح ، وبعضها فيه لين وفيه قسوة معا فى آن واحد !

▱

والغريب فى تاريخ هذه المرأة ، ان الذين صاغوا لها عقود

المديح قد بالغوا فى مديحهم ، وان الذين كالوا لها الذم قد بالغوا فى ذمهم . فلابد لمعرفة الحقيقة من استيعاب أقوال هؤلاء وأولئك ثم تحكيم العقل والمنطق ، واخذ مايمكن تصديقه من اقوال الفريقين ، وصياغته فى قالب جديد بعيد عن قالب الاساطير !

ولقد ثبت ان البيزنطيين الذين اغدقت عليهم تيودورا عطفها واحسانها قد ارادوا أن يجعلوا منها قديسة طاهرة ! ومنذ القرن التاسع ظهرت فى بيزنطة سيرة جديدة للامبراطورة تيودورا ، طهرتها من كل رجس ونفت عنها كل عيب . وبلغ من حماسة أحد هؤلاء المؤرخين أن قال عنها : « ان جميع الفضائل التى منحها الله للناس قد أفرغت فى تيودورا . . ! »

وأكد غير واحد من المؤرخين الصقالبة انها كانت أجمل نساء عصرها ، وأشدهن ذكاء ، واقواهن شكيمة

وخرج المؤرخون السوريون عن حدود الاعتدال ، فقالوا : أن تيودورا لم تكن ممثلة ولا راقصة ولا لاعبة فى ملعب بيزنطة ، بل كانت ابنة رجل من اعضاء مجلس الشيوخ . واضافوا الى هذا قولهم : ان أباها المحترم تردد كثيرا قبل أن يرضى بأن تصبح زوجة لولى العهد ، واشترط فى النهاية ان يقسم جستنيان بان يكون حاميا للكنيسة الشرقية فى جميع الظروف والاحوال

ولا شك فى أن السوريين أرادوا أن يجعلوا من تيودورا امرأة من أصل رفيع ليس بالوضيع ، لانهم أحبوها أكثر من غيرهم من رعايا الامبراطورية ، بسبب مواقفها الجريئة فى الدفاع عن رؤسائهم الروحيين ، ورجال كنيستهم !

على ان أغرب اسطورة عن تيودورا هى بلا شك تلك التى دونها المؤرخ الفرنسى « ايموان دى فلورى » فى القرن الحادى عشر . وقد وجدت مخطوطة فى أحد الاديرة

ومما جاء فى أقوال هذا المؤرخ الخصب المخيلة أن : «جستنيان

وصديقه بليزير كانا من قواد الجيش البيزنطى . وحدث مرة ان التقى الصديقان بأختين جميلتين هما : أنطونيا وانطونينا ، وهما من سلالة النساء الفارسات اللائى ينتمين الى أحدى الممالك الواسعة على ساحل البحر الاسود ، وكان اللقاء فى بيت من البيوت المشبوهة فى القسطنطينية ، بعد أن وقعت الفتاتان أسيرتين فى أيدى البيزنطيين ، وانتهى بهما المصير الى ذلك البيت الموبوء ، حيث سقطتا فى هوة العار وسرعان ما أحب بليزير واحدة منهما ، وأحب جستنيان الاخرى . وذكرت هذه لجستنيان أن عرافة فى بلادها تنبأت لها وهى صغيرة بأنها ستعرف شابا وترتبط معه برابطة الحب ، وأن ذلك الشاب سيصبح ملكا . وطلبت منه أن يقسم لها لئن تحققت هذه النبوءة ليتزوجن منها ويتوجها ملكة معه ! فأقسم جستنيان وترك بين يدى الفتاة خاتما ثمينا ، كعربون لوفائه ! »

ثم تمضى الاسطورة قائلة : « ان الصلة ما لبثت قليلا حتى انقطعت بين الشابين والفتاتين ، ثم دارت الايام دورتها واذا بجستنيان يتبوأ عرش بيزنطة خلفا لعمه جستين واذا بامرأة تصل الى القصر ، وتطلب مقابلة الامبراطور ، فلما أذن لها بمقابلته لم يعرف أنها هى حبيبته أنطونيا الا بعد أن وضعت أمام عينيه ذلك الخاتم الذى تركه لها يوم أن تقابلا فى البيت المشبوه ، ثم طلبت اليه أن يبر بقسمه ويفى بوعده لها. ولما كان حبها قد عاد الى قلبه فانه لم يسعه الا أن يجيب طلبها على الفور فاتخذها زوجة له ونادى بها امبراطورة بجانبه لتشاركه التاج والمجد والحياة كلها . وقد ارتفعت أصوات بعض الشيوخ بالاحتجاج ، ولكن جستنيان عرف كيف يبطش بالمعارضين ، وهكذا شاركت انطونيا زوجها فى ملكه وعرشه !»

وانطونيا التى روى المؤرخ الفرنسى قصتها هى تيودورا نفسها بدمها ولحمها . ويتضح من هذه الرواية الى أى مدى بلغت شهرة هذه الامبراطورة التى كانت راقصة وممثلة ، وكيف

داعبت مغامراتها مخيلة الكتاب فخلطوا فى احاديثهم عنها بين التاريخ والقصص ، وبين الحقائق والاساطير !

وممن تحدثوا عن تيودورا الامبراطورة ، رجل من كبارالآباء الروحيين وأعلام الكنيسة هو الاسقف يوحنا ، وقد وصفها بأنها امرأة ساقطة. وهو وصف يتفق مع ماذكره عنها بروكوبس فى كتابه « التاريخ السرى » الذى أشرنا اليه

▱

ويمكننا اليوم أن نلخص فى سطور ، بل فى كلمات ، حياة تيودورا العجيبة ، بفضل ما أسفرت عنه الابحاث والدروس

انها فتاة من أصل وضيع ، عملت فى ملعب بيزنطة ، ومارست طائفة من الحرف ، وكان سلوكها مدعاة للنقد ومجلبة للعار . ولكن الناس لم يعرفوا عنها الشىء الكثير فى ذلك الوقت ولم يلتفتوا اليها أكثر من التفاتهم الى أية امرأة أخرى من نوعها . ولكن ، بعد أن أصبحت الراقصة امبراطورة ، وبعد أن انتقلت من الملعب الى العرش ، راح الناس يروون عنها ما يشاءون ، بعضهم يمدحها ، وبعضهم يقدحها ، وآخرون يجمعون بين المدح والقدح . ولكن أعمال تيودورا الامبراطورة قد غطت على كل ماعداها ، وكانت جديرة بأن تغطى على كل ما كانت عليه تيودورا الراقصة !

والحقيقة قد تكون أحيانا أغرب من الاساطير !

الفصل الثانى

الامبراطورة

القصر المقدس

فى القرن السادس كان القصر الامبراطورى فى بيزنطة يشغل الربوة القائمة بين الملعب والبحر ، الى غرب كنيسة آيا صوفيا ، ويمتد على سفوحها من القمة الى ساحل بحر مرمرة

ولم يكن ذلك القصر شبيها بالقصور الملكية فى أيامنا هذه، اى لم يكن مكونا من دار فخمة أمامها ميدان فسيح . بل كان مثل قصور السلاطين العثمانيين ، ومثل الكرملين مقر القياصرة فى روسيا ، يضم خلف أسواره طائفة من المبانى المنوعة المتعددة ، بينها قاعات الاستقبال والكنائس ، والحمامات والملاعب والمسارح ، والثكنات والاديرة ، والدور الفخمة ، والبيوت المتواضعة ، والمساكن البسيطة ، والشرفات الفسيحة المطلة من بعيد على البحر والساحل الاسيوى

اى أن القصر كان مجموعة ضخمة من المبانى المختلفة تربط بعضها ببعض شبكة من الطرق المرصوفة بالبلاط ، ومن الممرات والدهاليز والسلالم ، وتكتنفها كلها حدائق الازهار وبساتين الفاكهة الممتدة الى حيث تتكسر الامواج على الشاطىء !

وبعبارة أخرى ، كان ذلك المقر الامبراطورى مدينة داخل مدينة بيزنطة ، تحوطها الاسوار ، وتخفيها جدرانها العالية عن الانظار ، ويتجلى فيها البذخ والترف ، وتقام بها المآدب والحفلات الصاخبة ، وتتم فى نطاقها الدسائس والمؤامرات،

وتجرى بين جوانبها حياة خاصة ، حياة امبراطور بيزنطة حياته التى لاتجاريها ولا تشبهها حياة اى أحد سواه من أصحاب التيجان !!

وكان ذلك المقر يعرف باسم « القصر المقدس » ولم يكن فى العالم ، فى ذلك العهد ، قصر آخر يضاهيه فى ضخامته وفخامته وروعته وبدائع هندسته وزخرفته وتنسيقه ، ومقدار مايحويه من تحف وكنوز !

كان مدخله الرسمى من ميدان الامبراطور ، ومن باب هائل من البرونز المزخرف . وخلف الباب مباشرة قاعة الانتظار التى أنشأها جستنيان نفسه ، وافرغ فيها أروع ما وصل اليه فن الزخرفة . وعلى جدران تلك القاعة الفسيحة ، رسمت بالفسيفساء جميع المعارك التى انتصر فيها الاباطرة على أعدائهم

وتجىء بعد هذه القاعة البديعة ثكنات الحرس ، ومنها ينتقل الزائر الى نطاق القصور المتتابعة . وكانت قاعةالعرش تحفة من تحف الدهر . وفيها كان الامبراطور يستقبل السفراء والمبعوثين ووفود الملوك . وأبواب هذه القاعة من العاج الناصع البياض ، من ناحية ، ومن الناحية الاخرى أبواب من البرونز . والارض والجدران مغطاة بالفسيفساء والرسوم والحجارة الكريمة وخيوط الذهب والفضة !

وفى الاجنحة المخصصة لسكنى الامبراطور والامبراطورة ، تكدست التحف بين قطع الاثاث الفاخر ، وتوفرت جميع أسباب الراحة والمتعة . ومن هذه الاجنحة تبدأ الدهاليز الواسعة والممرات المزدانة بالرسوم ، والموصلة الى الملعب من ناحية ، والى كنيسة ايا صوفيا من ناحية اخرى

فحياة الشعب البيزنطى اذن تدور حول هذين المحورين ، الملعب ، والكنيسة ، الصلاة واللهو ، الخشوع والضوضاء ،

الهـدوء والصخب . وحيـاة الامبراطور أيضـا موزعة بين الاثنين !

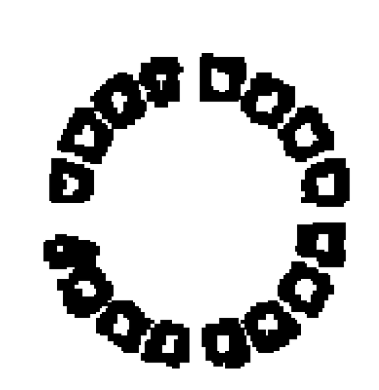
ويعجز القلم عن وصف ما كانت تحويه تلك القصـور ، وما ضمته بين جوانبها واجنحتها المعدة لسـكنى الامبراطور والامبراطورة ، فضلا عن محتويات الكنائس والمتاحف وبيت المال والمسارح الخاصة والحمامات وغيرها !

اما سـكان المقر الامبراطورى فانهم يؤلفون شـعبا قائما بذاته داخل الاسوار . فهناك أصـحاب المناصب الرفيعة ، وكبـار الموظفين ، والقواد والجنـود ، ورجال التشريفـات وحاشـية الامبـراطور والامبـراطورة ، والمشرفـون عـلى الاسطبلات وما فيها من خيـول مطهمة ، وعلى المركبـات المرصعة بالجواهر ، وهنـاك الاسـاقفة ومن اليهم من رجال الدين بين قساوسة ورهبان وشمامسة وغيرهم . وهنـاك جيش من النساء فى خدمة الامبراطورة

وكانت المراسـيم تجرى داخل تلك القصور على الطريقة التى كانت متبعة فى روما وورثهـا اباطرة الشرق عن اباطرة الغرب . وهى تفوق بأبهتها ما كان معروفا عن الاكاسرة أرباب التيجان وسـادة البـذخ والعظمة . فالامبراطور البيزنطى اشبه بالالة .. فى نظر رعيته ، لانه صـاحب السلطان الذى لا تعلو كلمة على كلمته غير كلمة الله . ولهذا ، فان رجال الدين وحدهم كانوا يجدون فى أنفسهم الجرأة الكافية للوقوف أمام الامبراطور وتحـديه . فالشـعب لا يرضى بأن ينـاقش الامبراطور فى غير الشئون المتعلقة بالدين والعقيدة . وقد حدث غير مرة أن اقتحم أساقفة من مصر أو سـورية أو فينيقيـا أبواب القصر ، ووجهوا الى الامبراطور عبـارات جارحة فيها لوم وفيها عتاب وفيها قذف !. وكانت قاعات القصور تتحول الى حلبة صراع عنيف بين القابض على زمام القوة المادية ، وبين القابض على زمام السلطة الروحية . وفى

عهد جستنيان توالت احتجاجات رجال الدين وبلغت جراتهم حدا أوشك معه الامبراطور أن يفقد صبره ويقدم على أعمال طائشة ، لولا أن تدخلت تيودورا وبذلت براعتها ولباقتها لتجنب الكوارث !

وهناك فى داخل ذلك المقر الامبراطورى ، كانت تيودورا ترسم الخطط وتعد العدة لتنفيذها. وهناك كانت تستضيف المغضوب عليهم ، وتحميهم سرا ، وتمهد السبيل لاعادة الصفاء بينهم وبين الامبراطور . ومن داخل ذلك « القصر المقدس » حكمت المرأة العجيبة أوسع امبراطورية فى ذلك العهد ، وهناك أيضا تمتعت بملذات الحياة الى أبعد ما يمكن أن يتمتع بها انسان ، فى جو من العظمة والبذخ . ولكنها ظلت وفية لاصدقائها ، وفية للشعب الذى أحبها وأحبته !



فى قصر البوسفور

لم يذكر التاريخ ان ملكة ما أحبت البذخ والترف بقــدر ما أحبتهما تيودورا . ولم يحدث أن حفظ التاريخ اسم أمراة مارست السلطة العليا بمثل المهارة التى مارستها بهــا تلك الممثلة المتوجة ابنة حارس الدببة !

كانت تيودورا منذ نشأتهــا تميل الى التبرج والبهرجة والزينة . فلما استقرت فى القصر المقدس ، بذلت فى هــذا المضمار كل ما فى وسعها من أساليب التغنى ، فبلغت أقصى ما يمكن أن تبلغه امرأة من الاناقة والذوق السليم والاختيار الحسن !

وكانت تحلم بأن يكون لها قصر فخم خاص ، فيه قاعات فسيحة جميلة ، وازياء بديعة ، وحلى ومجوهرات نادرة . فسعت حتى تحقق لها ذلك الحلم وكان لها ما أرادت وزيادة !

ولما كانت شديدة العناية بنفسها ، والمحافظة على جمالها فقد صار فى وسعها ، وهى امبراطورة ، أن تسرف ما شاء لها الاسراف فى الانفاق فى هذه النواحى ، فلم تضن على جمالها بشىء من مستلزمات المحافظة والعناية ! وكان لهــا فى ذلك أسلوب خاص ظلت مثابرة عليه طول حياتها . فكانت تنــام كثيرا ، ولا تنهض مبكرة فى الصباح ، ولا تحرم نفســها من الراحة بعد الظهر . كما كانت تكثر من الاستحمام وتعود الى الراحة بعد كل حمام . ولم تكن تنظر الى جمالها بوصــفه وسيلة من وسائل الاغراء أو ســلاحا لابقاء سيطرتهــا على زوجها وغيره من الرجال ، بل كانت تعتقد أيضا أن المــلكة

الجميلة تروق فى أعين رعيتها ، وأن الشعب يؤثر ألا تكون له ملكة ، على أن تكون ملكته قبيحة الصورة أو تافهة الجمال . ولهذا السبب خاصة أرادت تيودورا أن تبقى جميلة ساحرة ، لكى يفتتن بها الشعب الذى جعلتها الاقدار ملكة عليه

ولم تكن عنايتها بمائدتها تقل عن عنايتها بشخصها . وقلما ذكر التاريخ مآدب بلغ فيها التفنن والسخاء ما بلغاه فى مآدب تيودورا . وفى الوقت الذى كان فيه الامبراطور جستنيان يتوخى البساطة ، كل البساطة ، فى مأكله ومشربه ، فلا تمتد يده الى خمر ، ولا يأكل حتى الشبع ، ويكتفى بقليل من الخضروات ، وكثيرا ماكان يعمد الى الصوم بضعة أيام بلياليها ، اشباعا لرغبته فى التقشف والتعبد ، كانت تيودورا تحرص كل الحرص على ان تصنع عكس هذا تماما . فتفرض أن يقدم على مائدتها أطيب ألوان الطعام وأشهاها وأغلاها ، والذ انواع الشراب وأعتقها . كما كانت على النقيض من زوجها الذى يؤثر تناول طعامه وحيدا أو برفقتها وحدها ، فتدعو الى مائدتها نخبة كثيرة العدد من عظماء الدولة أو الضيوف الاجانب الممتازين !

وفى الوقت نفسه كانت تيودورا مولعة بمظاهر الملك : تريد حاشية كبيرة ، وحرسا لا عداد له ، ووصيفات كثيرات ، ومواكب لها أول وليس لها آخر . ولم يكن اسرافها فى هذه الناحية يقف عند حد . بل لم يكن يكفيها أن تكون مراسم التشريفات معقدة ، فكانت تعمد الى زيادة تعقيدها فى كثير من الاحيان !

كان الامبراطور يقابل كل شخص يريد المثول بين يديه ، ويغض الطرف عن الهفوات التى تبدو من جانب الذين يقابلهم ، ولا يؤاخذ احدا على مخالفته التقاليد والانظمة المتبعة فى مثل هذه الاحوال . أما تيودورا ، فكانت على عكس ذلك ، تفرض على الجميع شروط المجاملات والمصطلحات التى

تنص عليها القوانين واللوائح . وقد ظلت ـ بعد أن اعتلت العرش ـ متمسكة بما الفته على المسرح من الخضوع لمقتضيات الاخراج والتمثيل : ظلت تمثل على منصة العرش كما كانت تمثل على خشبة المسرح !

وكانت متكبرة شديدة الاعتداد بنفسها ، خصوصا بعد أن واتاها الحظ فاعتلت العرش . وقد دفعها ما ركب فى طبيعتها من كبرياء واعتداد بنفسها الى التمسك باقامة فاصل بينها وبين الناس ، ووضع حد لرفع الكلفة بينها وبين أقرب المقربين اليها . ولعلها كانت تجد لذة خاصة فى رؤية العظماء يحنون الرءوس امامها ، بعد أن كانوا بالامس ينظرون اليها نظرات لا تخلو من الاحتقار والازدراء ، يوم كانت تبدو امامهم فى ثياب الرقص وازياء التمثيل !

وكانت التقاليد المرعية فى قصر بيزنطة الامبراطورى كثيرة الشعاب ، متنوعة الوجوه . فقد اختفت شيئا فشيئا تلك البساطة التى امتاز بها القياصرة الاولون ، وحل محلها قانون يحدد لكل طبقة من طبقات الناس حركاتهم وسكناتهم . واتسع نطاق النشاط داخل القصر فى عهد تيودورا وجستنيان ، واتخذت الحياة خلف أسوار المقر الامبراطورى شكلا جديدا ، فالامبراطورة تريد ـ والامبراطور يجاريها فى ذلك اكراما لها ـ أن يحضر الى القصر كل يوم جميع من يشغلون مناصب كبيرة فى دوائر الدولة ، وجميع من تقع على عواتقهم مسئوليات الحكم والادارة ، وتيودورا ترى فى ذلك وسيلة من وسائل الاشراف على سير الامور ، ومراقبة كل واحد من أصحاب المناصب المسئولين ، من غير أن يبدو ان هناك تعمدا فى الاشراف والمراقبة !

ولما كانت جميع شئون الدولة تقضى داخل القصر ، فان جميع الذين لهم علاقة ، من بعيد أو من قريب ، بشأن واحد منها ، كانوا يسرعون الى المقر الامبراطورى ، كى لا يلفت

تخلفهم الأنظار ، أو يثير غيابهم الشكوك !

كان القياصرة الاولون يفتحون أبواب قصورهم ويستقبلون رعيتهم بقليل من الكلفة . ولكن هذه العادة تلاشت مع الوقت بعد أن اعتلى جستنيان العرش ، فكانت مقابلة الامبراطور والامبراطورة من الامور الشاقة ، تعترضها العراقيل والصعاب وكان على صاحب المنصب الرفيع ، اذا مثل أمام الامبراطور ، أن يكتفي بانحناء خفيف ووضع يده على صدره للتحيـة . أما تيودورا فقد فرضت فى أنظمتها الجديدة على من يمثل بين يديها أن يجثو على ركبتيه ، ثم ينحني حتى يلمس الارض بجبهته ، ويضع يديه خلف ظهره ، ويقبـل طرف حـذاء الامبراطورة ـ أو الامبراطور ، لان المراسم واحدة بالنسبة اليه واليها !

وكان على من يخاطب الامبراطور ان يخاطبـه بقـوله : « يا صاحب الجلالة » وأن يسمى نفسـه « الخادم المطيع » أو « العبد المخلص » وكانت تيودورا تؤنب بعنف كل من يخل بهذه التعليمات أيا كان مركزه ومنصبه !

وأصبح على طالب المقابلة ، أن يحضر قبل موعدها وينتظر فى قاعة مجاورة ، وقد يطول انتظاره الى مابعد الموعد المحدد. وكانت تيودورا تتعمد ذلك كأنها تجد تسلية أو لذة فى جعل كبار المملـكة يتميزون غيظا أو تداخلهم الشـكوك فى نوايا الامبراطورة أو الامبراطور !

والواقع أن جستنيان لم يكن فى قرارة نفسه يقر هـذا التصرف ، ولكن تيودورا كانت تفرض عليه ارادتها . واذا قال لها ان دستور الامبراطورية يحرم معاملة المسئولين بمثل هذه القسوة وهذا الاستهتار ، أجابته قائلة :

ـ أنا أعرف منك بعقلية هؤلاء الناس . ان كبراء مملكتك ليسوا الا جماعة من المتزلفين ، وهم يقبلون حذاءك راضين مسرورين . ولا خوف عليـك منهم . أما أبنـاء الشعب ،

الذين خرجت انا من بينهم ، فهؤلاء يحملون فى نفوسهم من الاعتزاز بالكرامة ما لا أثر له فى صدور العظماء . فالعظماء خدم الامبراطور ، أما عامة الشعب فجنوده !

والغريب فى هذه المرأة ، انها كانت تلاطف عامة الشعب حقا ، ولا تتعمد تحقير الزائر ان كان واحدا من بيئة وضيعة ؛ وكانت تقول لزوجها :

ـ اذا أنت أكرمت عظيما من هؤلاء ، فانه سرعان ما يرفع رأسه أكثر مما يجب ، ويظن أنك تتزلف اليه كما يتزلف هو اليك ، وقد تحدثه نفسه بالانتقاض عليك ، وعلى العرش . أما اذا أكرمت واحدا من العامة ، فانه يحبك ويخلص لك ويظل على ولائه . وعلى هذا يجب أن تضرب دائما على أيدي الكبار ، وأن تحرص على مجاملة الصغار !

وكانت المرأة على حق فيما ذهبت اليه . فان خضوع عظماء المملكة كان تاما كاملا ، وكان كل واحد منهم يعرف ما طبعت عليه الامبراطورة من كبرياء وحب للسيطرة ، فلا يسعه الا أن يمعن فى اظهار الخضوع أمامها ، والتزلف اليها !

ولم يكن أولئك العظماء يجهلون أن مخالفة الاوامر والتعليمات ، ومحاولة الظهور أمام الامبراطور ـ وأمام الامبراطورة على الخصوص ـ فى مظهر القوى المستهتر ، معناه أثارة الحفيظة فى نفس تيودورا ، وحملها على رفض كل طلب للمخالف ، ان لم يحملها هذا على أن تنتقم منه شر انتقام !

وعلى هذا ، كانت قاعات القصر تغص كل يوم بطلاب الحاجات من أولئك العظماء ، وقد جلسوا أو وقفوا جامدين خاشعين كالعبيد الاذلاء . وكثيرا ما كان يرى بينهم أشخاص يشغلون أرفع المراتب ، جاءوا من أقصى أنحاء الامبراطورية ، وطلبوا مقابلة الامبراطورة ، فوعدتهم باجابة طلبهم وحددت لهم يوم المقابلة وساعتها ، ولكنها تركتهم ينتظرون بضعة

أيام أو بضعة أسابيع !

وفى الوقت نفسه ، كثيرا ما كانت تيودورا تضرب موعدا لواحد أو أكثر من عامة الشعب ، وتقابله ببشاشة ولطف فى اللحظة التى يصل فيها الى القصر !

وكان الخصيان المكلفون بادخال الزائرين على الامبراطورة او على الامبراطور ، يستغلون الظروف ، ويفرضون أتاوة على الراغبين فى المثول بسرعة بين يدى تيودورا أو جستنيان !

ولابد من الاشارة هنا الى أن اباطرة بيزنطة هم أول من استخدم هذا النوع من الخدم ، اذ كانوا يعمدون الى حرمان طائفة من الاسرى والعبيد من رجولتهم ، لاستخدامهم فى جناح الحريم . وقد انتشرت هذه العادة فيما بعد ، وانتقلت الى بلدان اخرى ، وعن البيزنطيين أخذها ملوك الفرس والعرب وغيرهم فى الشرق والغرب

وكان على العظيم الذى يدخل على الامبراطورة ان يقف ويتكلم ويتحرك حسب القواعد المرسومة ، المفروض انه اطلع عليها والم بها من قبل . فهو لا يوجه الحديث الى الامبراطورة وعليه أن يجيب عن الاسئلة التى توجهها اليه فقط . والمقابلة لا تستغرق أكثر من بضع دقائق ، تلقى خلالها الامبراطورة سؤالين او ثلاثة ويرد عليها الزائر بكلمات مقتضبة ، ثم ينصرف باشارة من تيودورا !

وليس فى هذا ما يدعو الى الدهشة والاستنكار . فان تيودورا كانت بعيدة النظر ، ثاقبة الفكر ، سريعة الادراك ، وقد ارتفعت من حضيض الفاقة الى قمة الغنى ، وصعدت من بين الشعب الى منصة العرش ، ودرست أخلاق الناس من جميع الطبقات والبيئات . واذا كانت قد فرضت تلك المراسم القاسية ، فان ذلك يدل على أنها عرفت كيف تملأ المنصب الذى وصلت اليه ، وتكيف سلوكها حسب مقتضيات الجو اللائق بهذا المنصب ، وظروف العصر الذى كانت تعيش فيه !

أرادت تيودورا أن تكون ملكة يخشاها الاقوياء ويحبها الضعفاء ، لا ملكة يستخف بها الاقوياء ويكرهها الضعفاء ! .. أو بعبارة أخرى ، أرادت تلك الممثلة المتوجة أن يكون الشعب راضيا عنها ، ولم تعبأ بعد ذلك بما يكنه لها أصحاب المناصب والالقاب !

⏥

وقد اشركها زوجها فى الملك ، فأرادت أن تكون ملكة لا لعبة فى يد ملك . ولهذا طالبت بأن تمارس مع زوجها ، جميع السلطات بلا استثناء . فكانت تقوم بأعمال كالتى يقوم بها زوجها ، أو على الاصح كانت تتقاسم معه أعباء الملك فى جميع الميادين ، فتوزع الاعلام على فرق الجيش ، وتسلم شارات القيادة الى رؤساء هذه الفرق ، وتمنح الجوائز للفائزين فى المباريات ، وتناقش حكام الولايات ومديرى المصالح فى شئون وظائفهم !

ورأى العالم فى عهدها شيئا لم يره ولم يعهده من قبل : رأى ملكة تقابل ملوكا جاءوا من أطراف الامبراطورية لتحيتها ، أو لتجديد ولائهم لها ، وتتحدث مع الوفود القادمة من مختلف الاقطار والامصار ، وتغدق عليهم الهدايا والهبات !

ولقد كان يهمها استرضاء هؤلاء جميعا : الملوك وأعضاء الوفود ، لانها أدركت ان السلام لن يخيم على أجزاء الامبراطورية، الا اذا كانت الشعوب التى تضمها هذه الامبراطورية موالية لها، كما أدركت أن ولاء هذه الشعوب مرهون بحسن المعاملة التى تجدها من الحكام

ومما قالته مرة لزوجها جستنيان :

ــ ان اتفاقنا فى الرأى على سياسة واحدة قائمة على حسن التفاهم ، فى البلدان الخاضعة لنا ، من العوامل الاولى التى تجعلنى أخلص لك مدى الحياة اخلاصا لن تشوبه شائبة !

فهى اذن .. لا تريد ان تقوم علاقتها بزوجها على العاطفة فقط ، وعلى وحدة الشعور والحب المتبادل ، بل تريدها أن تقوم ايضا على وحدة النظر فى الشئون السياسية والادارية . وقد فهمها جستنيان ، وجاراها فى آرائها ، ولم يندم على ذلك

وانه لما يدعو الى الدهشة والاعجاب ، أن تكون تلك المرأة قد أدركت فى ذلك العصر ان الحكم لا يقوم دائما على القوة ،وان السياسة التى لا تحسب حسابا للعاطفة معرضة للفشل والخذلان . فالخطة التى سارت عليها تيودورا طول حياتها كانت تنطوى على مزيج من الشدة والمكر واللطف . أما المظاهر التى كانت تحيط نفسها بها ، والمواكب التى كانت تشرف على اعدادها بنفسها ، فكان الغرض منها التاثير فى مخيلة الشعب من ناحية ، واشعار رجال الدولة من ناحية أخرى بأن الامبراطور والامبراطورة لا يتساهلان فى شيء من مستلزمات الملك وما تقتضيه من أبهة وجلال !

كانت تيودورا ، اذا ارادت الخروج من بيزنطة الى «بيثينيا» حيث الحمامات المشهورة ، تحرص على أن تخرج فى موكب لايقل فى فخامته عن المواكب التى كانت ترافقها فى الاحتفالات الرسمية بالعاصمة نفسها .. فكان يحف بها اثنان من وزراء القصر ، وعدد كبير من النبلاء واعضاء مجلس الشيوخ ،وأربعة آلاف جندى وضباطهم ، وبضع مئات من رجال الحاشية والحرس الامبراطورى . وبذلك كان هذا الموكب اشبه بجيش قادم من نصر أو ذاهب الى نصر !

وأهدى اليها جستنيان مساحات شاسعة من الارض فى مختلف بقاع الدولة ، فوقفت جانبا من وقتها على العناية بهذه الارض والاشراف على زراعتها . وكانت تلك الاملاك والمزارع تدر عليها دخلا عظيما . وتسابق الفلاحون الى العمل

فى مزارعها ، لانهم لم يكونوا يجدون عند غيرها معاملة كريمة كالتى يجدونها عندها ، فضلا عما يضفيه عليهم انتماؤهم اليها من مكانة مرموقة ، واحترام لدى الآخرين !

على أن اعمال تيودورا لم تكن تخلو من التناقض ، ففى الوقت الذى كانت تقسو فيه على كبراء الدولة من امراء ووزراء وقواد ومن اليهم من أصحاب الجاه والنفوذ والثراء ، كانت تميل الى ملاطفة الخدم والعمال ومن اليهم من عامة الشعب !

وكانت تحب المال حبا جما ، فلاتنى فى السعى للاستزادة منه . ولا تتردد قط فى اتخاذ اية وسيلة للحصول عليه ، مهما يكن فيها من الاضرار بالغير . ولكنها لم تتعمد ايذاء أحد من الفقراء والمعوزين أو العمال والفلاحين ، كما كانت تتعمد ايذاء الاغنياء وأصحاب الاملاك والمزارع والجاه والسلطان !

وقد حملها حبها للبذخ على التفكير فى تشييد قصور جديدة خارج أسوار العاصمة ، تقضى فيها الاسرة المالكة ورجال الدولة شطرا من السنة . ولا شك فى أنها فى ذلك كانت منقادة الى ميولها كامرأة هوائية تحب التلون والتنقل ، ولعلها كانت قد ملت الاقامة فى « القصر المقدس » حيث عاش اباطرة الروم مئات السنين ، ورغبت فى أن يكون لها مقر آخر يحمل اسمها ويخلده !

وجاراها جستنيان مرة أخرى ، فحقق لها تلك الرغبة ، وامر بأن تشيد باسمها فى ضواحى العاصمة قصور عديدة لا قصر واحد ، واختار لذلك أبدع المواقع وابعدها عن الضوضاء !

ومن بين تلك القصور الجديدة ، أعجبت تيودورا كل الاعجاب بقصر « هريا » القائم على الضفة الاسيوية ، مطلا على

البوسفور ، وقد وصف احد الشعراء ذلك القصر فى قصيدة جاء فيها : « ان عرائس البحر وحوريات الانهار يرقصن تحت افنان حدائقه ويتسابقن الى اعتلاء عرش الجمال والدلال فيه» وقال شاعر آخر فى قصيدة مدح بها الامبراطورة : « ان مقرك فى هريا يحسدك عليه الارباب فى السماء ! »

والى ذلك القصر الغارق فى بحر من الخضرة والاغصان والازهار ، كانت الاسرة المالكة تذهب لقضاء الايام الاولى من موسم الحصاد ومن موسم قطف العناقيد فى الكروم . وكانت الامبراطورة تذهب اليه أحيانا وحدها ، فلا يرافقها الامبراطور . ولكنها كانت تصر على أن تصحبها حاشية كبيرة وجيش من الخدم والوصيفات . وكان هؤلاء جميعا يشكون من أنهم ، فى ذلك القصر البعيد عن وسط المدينة ، لا يجدون كثيرا من الاشياء التى يحتاجون اليها ، فضلا عن أن ركوب القوارب الى الشاطىء الآخر كان يقلقهم ويبعث الخوف فى نفوسهم . ذلك لان حيوانا بحريا هائل الحجم كان فى ذلك الحين يجوب بحر مرمرة ويتجول فى مياه المضايق ، من غير أن يتمكن الصيادون من اقتناصه أو طرده . ولم يكن ذلك الحيوان غير حوت جاء من حيث لا يدرى أحد ، ودخل الى تلك المياه الضيقة ، حيث جعل يهاجم القوارب والسفن ويقلبها بمن فيها ! . وكان طول ذلك الحوت نحو عشرين ذراعا أو أكثر ، ولم تقع العين على مثله من قبل فى تلك الجهات . وقد ظل نحو خمسين سنة ينشر الرعب فى مياه بيزنطة . ولما بلغ تيودورا أن حاشيتها تخاف ركوب البحر بسبب ذلك الحوت ، ضحكت ، وقالت :

ــ وأنا ؟ ! . أتخافون على أنفسكم ولا تخافون على أنا ؟ . . انى أعرض نفسى للخطر ذاته الذى تعرضون له أنفسكم ، فأنا أركب سفينة مثلكم ! ثم اى شعب هذا الذى يخاف من سمكة فى البحر ؟ !

ولما قيل لها : ان السمكة التى تتحدث عنها بمثل هذا

الاستخفاف والاستهانة طولها عشرون ذراعا ، وانهـــا تقلب القوارب والمراكب بضربة واحدة من ذيلها الهائل ، تمادت فى الضحك والسخرية ، وأمرت بأن يكون موكبها منذ ذلك الوقت مكونا من قوارب صغيرة بحيث تتعرض لخطر الانقلاب ، وتتعرض له هى قبل سواها !

ودبت الحماسة فى النفوس أمام هذا التأنيب الذى وجهته تيودورا الى قومها ، وأصدر الامبراطور أوامره الى صـيادى العاصمة بأن يطاردوا ذلك الحوت جمـــاعات جماعات الى أن يطهروا مياه البوسفور منه بأية طريقة من الطرق !

وانطلق الصيادون ينفذون أوامر سيدهم . وخـــرجت تيودورا معهم لمشاهدة المطاردة . ولكن الايام مرت من غير أن يعثروا على أى اثر لذلك الحوت العظيم !

وذات مساء ، ذاع فى العاصمة خبر ، طرب له النـاس كل الطرب ، وابتهجوا أعظم الابتهاج ، فقد راى الفلاحون عند مصب نهر « سنغاريوس » جسما ضخما جاثما على الشاطىء بـين الصخور والرمال . ولما اقتربوا منه ، أدركوا أنه جسم ذلـك الحوت ! وتبين انه كان يطارد سربا من الاسماك الصغيرة فاندفع الي الشاطىء وعاقته الرمال والصخور عن الرجـوع من حيث اتى ، فأصبح أشبه بالسجين عند مصب النهر الصغير . وهكذا استطاع الفلاحون أن يجهزوا عليه ضربا بالفئوس والخناجر ، ثم اقتسموا لحمه وعظمه !

ولما علمت تيودورا بما حدث ، ضحكت أيضا وقالت :

ــ لقد أنقذكم الحوت من نفسه بنفسه ، بعد أن عجزتم عن النيل منه وهو فى عرينه بالبحر ، ولم تجرءوا على الاقتراب منه والاعتداء عليه ألا وهو سجين لا يقوى على الحراك ! . وعلى كل حال مادام ذلك الحوت قد مات ، فان هذا يكفى لـــكيلا يبدى أحد منكم ، بعد الآن ، مخاوفه من ركوب القوارب والانتقال بها من شاطىء الى آخر !

ولم تكن تيودورا تحسب حسابا لما يبديه الناس حولها من آراء وما يعبرون عنه من شعور . وكانت تقول للمقربين منها :

ــ اننى حرة فى أن أحيا الحياة التى أريدها . ولن أسمح لاحد أن ينتقدنى الا اذا أقدمت على الاساءة الى فرد او الى جماعة من أبناء الشعب . ولكن مادمت لا ألحق ضررا بأحد ، فليس على أن أقدم حسابا على ما أصنع الا لزوجى الامبراطور!

وكانت اذا أقدمت على عمل من شأنه أن يبعث السرور الى نفسها ، لا يهمها فى كثير ولا قليل أن يرضى الناس عن عملها هذا أو يسخطوا ! . . . ولم تكن هناك قوة تستطيع ان تثنيها عن عزمها ، أو تحملها على العدول عن أمر قررت الاقدام عليه!

وقد خطر لها ذات يوم أن تدعو الى قصرها بعض النساء اللواتي عرفتهن من قبل ، عندما كانت تحترف التمثيل فى ملعب بيزنطة . وكان بين أولئك النسوة راقصة تدعى « كريزومالو » وممثلة تدعى « اندارو » . وقد بالغت فى اكرام صديقاتها وزميلاتها القديمات ، فأقامت لهن أفخم المآدب ، واغدقت عليهن من الهدايا والهبات ما أطلق كثيرا من الالسنة بالانتقاد!

وبلغ تيودورا أن حاشيتها غير مرتاحة الى ما فعلت، فعمدت الى التحدى ، وعينت الراقصة والممثلة المذكورتين فى وظيفتين رسميتين ، بمجلس الشورى الخاص بالامبراطورة

وقالت فى تعليل ذلك :

ــ ان آراء الممثلة والراقصة ، قد تكون أحيانا أكثر فائدة وأقرب إلى الصواب من آراء النبيلات وبنات الاسر الكبيرة . فنحن هنا ننظر فى شئون الشعب البيزنطى ونرعى مصالحه . واذا لم نصغ الا الى الآراء التى تمثل مطالب الطبقة المترفة ، فاننا نكون قد ظلمنا أنفسنا باهمال الطبقة الكادحة الفقيرة ، وجهل مطالبها فى حين أنها تمثل أكثرية الشعب . ولهذا اعتقد

أن وجـود ممثلة وراقصـة فى مجلس الشـورى الخاص بالامبراطورة ، أكثر فائدة من وجود نساء لايعرفن من الحياة غير صفحاتها الناصعة ونواحيها المذهبة !

لقد كان يسعد تيودورا أن تظهر عطفهـا على رفيقاتهـا السابقات ، ووفاءها للوسط الذى خرجت منـه ، في الوقت الذى كانت تحرص فيه على ان تبدو متكبرة متعجـرفة ازاء بنات الاسر النبيلة المتعجرفات ! وما كان تعيينهاالصديقتيها الراقصة والممثلة فى مجلسها الخاص الا وسـيلة الى بلوغ غرضها المنشود ، وايثارها بالعطف والتقدير عامة الشـعب على فريق الخاصة

والواقع انها برغم امتزاجها التـام بالبيئة التى رفعتها الاقدار اليها ، ما كانت لتنسى او تتناسى تلك البيئـة التى خرجت منها ، وقد ظلت تحن الى مهنتها الاولى ، مما دفعها بين حين وآخر الى الالتجاء فى تصريف شئون الدولة الى الاساليب التى كانت تجيدها من قبل وهى تعمل على مسرح التمثيل ، ومن تلك الاساليب التنكيت ، ورواية النوادر والحـركات المسرحية ، والتعبيرات الهزلية الممزوجة بكلمات لم تطرق عادة آذان سكان القصور !

كانت النكتة على طرف لسانها في كل ظرف وكل حال ! وقد أعانها على ذلك أنها كانت سريعة الخاطر الى مدي بعيد . فاذا جاءها أحد وشكا اليها تصرفات بعض آفراد اسرتهـا ، أو بعض المقربين اليهـا من رجال الحاشـية او نسائهـا فانها سرعان ما تتخلص من المآزق بنكتة تنبعث من بين شفتيها مصحوبة بتلك الإبتسامة الخلابة الكفيلة بأن تسـكت كل معترض وترضى كل ناقم !

واذا جاءها شخص مزعج لجـوج ، وألح عليها طالبـا منها امرا لا تقدر عليه أو لا تريد تنفيذه ، فانها كانت تعمد

أيضا الى التنكيت او الى تغيير مجرى الحديث بطريقة تمثيلية مصحوبة بحركات مضحكة تجعل طالب الحاجة يكتفى بالكلام الحلو ويقنع من الغنيمة بالاياب !

وحدث مرة أن كان احد النبلاء ممن شغلوا فى الماضى أرفع المناصب ، مدينا بمبلغ من المال لواحد من خدم تيودورا ، وعجز عن سداد دينه ، ففكر فى عرض الامر على الامبراطورة، على أمل أن يثير عطفها واهتمامها فتنقذه مما هو فيه !

ولما طلب الرجل مقابلتها ، سارعت الى اجابة طلبه وحددت له موعدا قريبا إستقبلته فيه وهى بادية الفرح والاغتباط . ولكنها فى الوقت نفسه عمدت الى اعداد مشهد مسرحى أشرفت على اخراجه وتمثيله خلال تلك المقابلة ، فجاءت بنخبة من خدمها ووزعت على كل منهم دوره فى المسرحية التى ابتكرتها . وما كاد ذلك النبيل المدين يدخل إلى قاعة الاستقبال فى جناح الحريم ، حتى وجد نفسه أمام الامبراطورة وقد اصطف حولها أولئك الخدم على هيئة هلال ، وانحنوا حتى مست جباههم الارض مسلمين !

وتقدم الرجل وركع أمام الامبراطورة ، فسألته ان يبسط لها طلبه ، فمضى يقول :

ـ يا صاحبة الجلالة ، انه لشيء فظيع ان يكون رجل مثلى ، من النبلاء وأعضاء مجلس الشيوخ ، مدينا بمبلغ من المال لاحد الخدم ! .. ان المدين من عامة الشعب تثير حالته الشفقة . أما المدين من النبلاء فان حالته تكون مدعاة لاحتقار الناس اياه . فالفقير حين يعجز عن الدفع ، يعلن عجزه بلا خوف ولا وجل . أما النبيل فلا يفعل ذلك لانه يعده عاراً وعيبا ولان الناس لا يصدقون أن النبيل عضو مجلس الشيوخ يمكن أن يكون معدما الى حد يعجز معه عن تسديد دينه . وأنا ياصاحبة الجلالة مدين ، ولى عند الناس ديون ، أى اننى فى آن واحد دائن ومدين ... ولكن لا يسعني أن أضايق المدينين لى وألح عليهم

فى أن يدفعوا لى ماعليهم لان هذا ليس من شيمة النبلاء • أما أصـــحاب الدين الذى على فهـــم يلاحقوننى ويلحون على ان أدفع ، وذلك لاننى أيضا من النبلاء فلا بد أن أكون قادرا على الدفع ! •• أليس هذا مما يحير العقل ؟ •• ولهذا جئت أليك يا صاحبة الجلالة أطلب تدخلك لكى تنقذينى مما أنا فيـه

وأصغت تيودورا الى الرجل حتى انتهى من كلمته ثم قالت بلهجة مفعمة باللطف :

ـ يا عزيزى النبيل ، يخيل إلى ان •••

ثم سكتت فجأة بينما إنطلق الخـــدم الواقفون قائلين فى صوت واحد اتماما لعبارتها حسب تعليماتها :

ـ •• آن فى بطنك ورما ! •

فدهش الرجل لهذه المباغتة • وأراد أن يتكلم فاستطردت تيودورا تقول :

ـ وسبب هذا •••

وسكتت فقال الخدم معا :

ـ وسبب هذا أنكابتلعت أموال الفقراء !

واضطرب الرجل وانتابته رعشة عقدت لسانه عن النطق، بينما قالت تيودورا :

ـ وأنت تريد •••

فأتم الخدم عبارتها قائلين :

ـ أن تأخذ منالفقير ماله !

ـ ولا تريد •••

ـ أن تدفع للفقير ما عليك !

ثم أخذ الخدم يرددون : « ان فى بطنك ورما ••• ان فى بطنك ورما ! » حتى تراجع النبيل المسكين وخرج من الباب وهو لا يلوى على شىء !

قد يكون فى هذا الاسلوب سماجة لا يســـتسيغها الذوق السليم فى عصرنا هذا • أما فى ذلك العهد ، فان هذا النوع

من التشنيع والسخرية كان يعد من أنواع الفنون الرافيه ، ولا شك فى ان تيودورا كانت تعلم علم اليقين، قبل ان يجيئها الرجل لبسط شكايته ، ماذا يريد ، واذا كان حقيقة قادرا على الدفع أم عاجزا عنه · ولا شك أيضا فى أنها كانت واثقة من أنه يتظاهر بالعجز عن الدفع رغبة منه فى أن « يبتلع أموال الفقراء » · كما علمت الخدم أن يقولوا له ، وأن يحتفظ بورم بطنه الناتج عن أكل تلك الاموال بالباطل !

واذا كانت تيودورا قد عمدت من وقت الى آخر ، فى داخل جناحها بالقصر المقدس ، الى اتخاذ تلك الاساليب التى أجادتها وهى ممثلة ، فانها لم تكن تسمح لاحد بأن يذكرها بماضيها وبالايام التى كانت فيها تسلى الناس بمسرحياتها وتنكيتها ورقصها !

كانت تعطف على زميلاتها السابقات ، ولكنها لا تغفر لمن يحدثها عن تلك النسوة بوصفهن زميلات لها فى عهد مضى ! · وهذه أيضا ناحية من نواحى التناقض فى تلك المرأة الغريبة الاطوار !

على أنها منذ اعتلائها العرش ، لم تقدم على أى عمل طائش من شأنه أن يجعل زوجها، أو يجعل الناس من حولها ، يعيبون عليها ذلك العمل بحجة انها خرجت من بيئة تفصل بينها وبين الاسرة المالكة هوة اجتماعية سحيقة · فقد تسربلت برداء الملك وعرفت كيف تصونه من العار بعد صعودها الى القمة ، برغم ما أقدمت عليه من أعمال معيبة فى ماضيها القديم !

كانت غانية تتاجر بجمالها وتعرض قلبها للبيع والشراء· ولكنها لم تندفع فى أية مغامرة غرامية وهى امبراطورة ·وبقدر ما كانت فى ماضيها مستهترة مبتذلة ، كانت وهى ربة التاج والصولجان حريصة كل الحرص على سمعتها ، حافظة لمكانتها، سالكة طريق العفاف والطهر والوفاء لزوجها الذى رفعها الى أعلى مكان !

سوق الاخبار

كانت تقام كل يوم ، فى بيزنطة ، تحت قناطر مدخل القصر الامبراطورى ، سوق فريدة فى نوعها ، هى « سوق الاخبار » . ففى ذلك الحى المكتظ بالسكان ، حول القصر المقدس ، تكثر الحوانيت المعدة لبيع المخطوطات وادوات الكتابة والرسوم والتماثيل وغيرها . وهناك يلتقي الكثيرون من المثقفين والادباء والمتأدبين ومدعى الفلسفة ، يقفون داخل هذه الحوانيت أو على أبوابها ، ليتبادلوا الثرثرة ، بينما تجتذب أحاديثهم المارة فسرعان ما يلتفون حولهم !

ولقد كانوا يتحدثون فى كل شيء ، ويخطبون فى كل شيء : فى العلوم اللاهوتية ، والطب ، وفى السياسة والدين ، والشئون الاقتصادية والاجتماعية . . كما كانوا يعلقون بآراء مختلفة متباينة على كل حادث يقع فى المدينة أو فىالقصر الامبراطورى !

ولا شك فى ان عامة الناس كانوا يتأثرون الى أبعد حد بأقوال اولئك الفلاسفة والخطباء ؛ لان هؤلاء يحسنون الاداء ويجيدون التمثيل ؛ فيتكلمون بصوت جهورى ولهجة مقنعة ، ويدعمون خطبهم بحركات مسرحية يقف الجمهور أمامها مشدوها فيصفى ويصفق ، سواء أكان مقتنعا أم غير مقتنع بما يسمعه منهم !

والواقع ان أكثر أولئك الثرثارين ، لم يكونوا من ذوى العلم الواسع والادب الصحيح ، بل هم من المرتزقة الذين اتخذوا الثرثرة حرفة ، مستغلين قدرتهم على رص الكلام بعضه فوق بعض بمهارة وسهولة . وهم اما انصاف متعلمين ، واما سكارى

لعبت الخمر برءوسهم واطلقت السنتهم بدل أن تعقدها عن الكلام !

هكذا كان موقف الشعب من خطباء تلك الحوانيت . أما الخاصة ، فكانوا ينظرون اليهم بعين الاحتقار أو عدم الاكتراث ، ويعدونهم من المتزلفين الراغبين فى استغلال سذاجة النـاس وحماقة أصحاب النفوذ . . بدليل انهم يعمدون الى كيل الثناء والمديح للعظماء الذين يجزلون لهم العطايا والهبات ، فاذا كف هؤلاء أيديهم عن البذل والعطاء فسرعان ما ينقلب المدح الى ذم ؤالثناء الى هجاء ! . .

أما هؤلاء الثرثارون أنفسهم ؛ فكانوا لايلقون بالا الى آراء الخاصة من المثقفين والعقلاء فيهم ، واذا كان هؤلاء يضحـكون من أقوالهم ولا يعيرونها اهتماما ، فحسبهم أن موقف الشعب منهم يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فهو يبالـغ فى تقديرهم ويضيع الساعات الطوال فى الاصغاء الى خطبهم . ويصدق كل ما يروونه له من انباء ونوادر وفضائح ، خصـوصـا اذا كان الخطيب منهم عائدا من سفر بعيد من احدى الولايات النائية !

وكان من بين أولئك الخطباء رجل يمـــارس الطب ويدعى الفلسفة ، اسمه « أورانيوس » نجح فى التقرب من كسرى واقام حينا من الزمن فى ايوانه ، ثم جاء الى بيزنطة وانخرط فى زمرة خطباء الحوانيت أمام مدخل القصر . وكان بارعا لبقا فى أحاديثه الى الناس ، يعرف كيف يؤثر فى نفوسهم بما يثيره من عجبهم واعجابهم ، وحينما يأخذ فى الخطابة ، يحرص على اختيار العبارات الطنانة الرنانة ، ويكثر من الحركات المسرحية، وبين حين وآخر ، يخرج من جيبه أوراقا لينشرها أمام الانظار قائلا :

ــ هذه رسائل كسرى الى أورانيوس !

ثم يتلو هذه الرسائل على سامعيه ، فلا يسع البسطـــاء منهـــــم الا أن يتلقوها بمزيد من التصفيق الحاد والاعجاب

بالفيلسوف الطبيب الذى ظفـــر من كسرى ــ ملك الملوك ــ بأحسن التقدير والتكريم !

وفى كثير من الاحيان ، كان يحـــلو لاورانيوس أن يروى لسامعيه بيانات غريبة عن دخائل السياسة العليا وما اليها من أسرار يزعم ان ليس هناك من يعرفها سواه ؛فيتلقفها السامعون فى غبطة وابتهاج ، ويحدث كل منهم نفسه قائلا : « ان رجلا هذه مكانته لا يمكن الا أن يكون مطلعا على أسرار السياســة ودخائل الامور ! »

وعلى هذا الاساس كان كثير من العظمـــاء يتسابقون الى خطب ود اورانيوس ويجزلون له العطاء ، لكى يمدحهم امام الشعب !

والواقع أن خطة أورانيوس هذه كانت هى الخطة المفضلة لدى جميع الخطباء فى ذلك العهد ، وما زالت وستبقى الى آخر الدهر خطة أمثالهم من طلاب المنفعة ومستغلى الجماهير الساذجة وأذناب الكبراء وذوى الثراء . ومن هنـــــا كانت القسطنطينية فى عهد جستنيان ــ كغيرها من عواصم العــالم الكبرى ــ ملجأ لجماعات من العاطلين واللصوص والنصــابين والشحاذين ، كما كانت فى الوقت نفسه ملتقى أفراد الفئــــة المختارة الممتازة من المثقفين وأصحاب العقول الراجحة والآراء السديدة . فكان كل خبر مثير ، وكل نبأ غريب ، وكل تعليق على خبر ، يجد فى الاوساط البيزنطية آذانا صاغية ، فيصدقه الناس ، وتتناقله الألسنة !

غير أن « سوق الاخبار » فى العاصمة الرومية لم تكن تجاريها أية سوق أخرى من نوعها فى العــــالم . فهى كما قلنا فريدة لا مثيل لها . وكثيرا ما كانت خطبة يلقيها واحد من أولئــك الثرثارين المأجورين أو الموتورين ، تحدث فى جموع السامعين قلقا أو اضطرابا او هياجا ، فيختل الامن فى العاصمة ساعة أو ساعات !

وكان البيزنطيون أنفسهم كثيرا ما يعمدون الى الاتيان بأعمال شاذة يغلب عليها طابع البرود والسماجة ، أو المزاح الثقيل الذى يتفق مع طريقة حياتهم وتربيتهم ونظرتهم الى الحياة والى العلاقات بين الناس !

وفى ذلك العهد نفسه ، كان يعيش فى بيزنطة رجل فيلسوف مشهور يدعى « زينون » وكان راجح العقل عميق التفكير ، تجله الخاصة وتحترمه . وقد اشتهر بأن له جارا من المهندسين يدعى « انطميوس » لا يفتأ يدبر له المكايد لمعاكسته ومشاكسته والسخرية منه ، اشباعا لحقده عليه وميله الى الانتقام منه . وحدث فى ذات يوم أن عمد ذلك المهندس الى حيلة غريبة لتخويف جاره الفيلسوف واظهاره بمظهر يدعو الى الاستهزاء به ، فأعد أوانى كبيرة كثيرة فى قبو مسكنه ، ثم ملأها بالماء ، وأوقد تحتها النار حتى وصل الماء الى درجة الغليان ، ثم غطى تلك الاوانى ، وأوصل بأغطيتها أنابيب من الجلد ، مد أطرافها الاخرى الى قبو مغلق بمسكن جاره الفيلسوف فانبعث اليه البخار الصاعد من الماء المغلى فى الاوانى ، ولم يمض الا قليل حتى امتلأ ذلك القبو المغلق بالبخار وأحدث فى البيت كله ما يشبه الزلزال . وما كاد الفيلسوف زينون يشعر بذلك حتى استولى عليه الرعب ، وهرع الى الطريق صائحا مستنجدا ، متسائلا عما عسى أن يكون الزلزال قد أحدثه من اضرار لدى الجيران !

وضحكت بيزنطة كلها لهذا « الفصل البارد » الذى دبره للفيلسوف الوقور جاره المهندس الخبيث !

ولم يكتف انطميوس بهذا الفصل ، فجاء ببعض المرايا ، وربطها بقطع من المعدن ، وأعد جهازا يحركها بحيث تنعكس منها أشعة الشمس وتحدث أصواتا ، توهم أن هناك برقا ورعدا ، ثم أخذ يسلط هذا الجهاز الجهنمى على جاره الفيلسوف فى مسكنه المجاور له ، فى الاوقات التى يخلو فيها

الى نفسه ؛ فكانت النتيجة أدهى وأمر ، اذ اعتقد زينون أن ما يراه ويسمعه من برق ورعد انما هو حركات لارواح سماوية تطارده لتفسد عليه خلوته وتحول دون مضيه فى تفكيره الخاص بالفلسفة واللاهوت . ولم يسعه بعد أن تكرر ذلك الا أن هرع الى الامبراطور وأفضى اليه بمخاوفه هذه ، وسرعان ما انتشر النبأ بين رجال الحاشية ثم بين الناس جميعا ؛ وتبينوا أن الامر كله من تدبير المهندس أنطميـــــوس ؛ فشاركوه فى الضحك والسخرية من زينون المسكين !

على أن اهتمام البيزنطيين بهذه المداعبات الثقيلة لم يكن شيئا يستحق الذكر بالقياس الى اهتمامهم الشديد بالمسائل الخاصة بالتنبؤ ومعرفة الغيب وما يخبئه المستقبل ، ذلك لان بيزنطة فى ذلك العهد كانت أشبه بمتحف تكدست فيه مخلفات الاديان الوثنية ، منذ العهدين اليونانى والرومانى ، وكانت لذلك تعج بتماثيل الآلهة من كل حجم ونوع ، ولكل تمثال من هذه التماثيل اسطورة أو اساطير عجيبة يستمع اليها العامة وكثيرون من الخاصة فى خشوع وايمان ، معتقدين أن هناك قوة كامنة تتجلى من وقت الى آخر فى أحد تلك التماثيل فتجعله قادرا على أن يأتى بالمعجزات !

ولم يكن الدين المسيحى الذى أصبح دين الدولة والشعب قد قضى بعد على ما علق بالاذهان من خرافات الوثنية جيلا بعد جيل ، وعلى هذا كان البيزنطيون يعتقدون أن تمثال الثـــور النحاسى القائم بجوار الملعب يجأر من وقت الى آخر . فاذا جأر وسمعه الناس ، فان ذلك يعد نذير شؤم ، ويعنى أن كارثة ماحقة سوف تحل بالعاصمة !

كذلك كانوا يعتقدون أن النقوش الظاهرة على أحد جـدران الملعب من الغرب ، تضم بين سطورها الغامضة تميمة رهيبة ، لم يستطع أحد فك رموزها لمعرفة معناها . ولهذا تعودوا أن يمروا أمامها مسرعين ، بينما يرسمون على صدورهم شـارة

الصليب لكي يدفعوا شرها عن عاصمتهم !

وهناك جدار آخر من جدران الملعب كانت للنقوش التى عليه شهرة عجيبة بين طبقات الشعب البيزنطى على اختلافها، فهى عند أكثرهم طلاسم سحرية سجلت عليها حوادث المستقبل بالتفصيل ، وقد تناقل الرواة أن المنجم « ابولونيوس » تمكن من فك بعض رموزها فعرف جميع أسماء الاباطرة الذين سيرتقون عرش بيزنطة ، وآخرهم امبراطور اسمه «قسطنطين» تنهار بعده الدولة وتقع عاصمتها فى قبضة غزاة من الشرق !

وأغرب ما فى الامر أن هذه النبوءة قد تحققت بعد ذلك بحوالى تسعة قرون ، فسقطت بيزنطة او القسطنطينية فى أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ وكان هذا على عهد الامبراطور قسطنطين

وقد كان جستنيان يكره المنجمين ، ويحارب ميل الشعب الى تصديقهم النبوءات والايمان بالاساطير الخاصة بالتماثيل والرسوم والنقوش . وكان رجال الشرطة يجدون فى مطاردة المنجمين ومروجى الاشاعات ، ولكن هذا كله لم يضع حدا لانتشار تلك النبوءات المقلقة المزعجة ، لان الايمان بها كان قد وصل الى حد المعتقدات الدينية

وعلى ذكر هذه المعتقدات ، نقول أنها كانت بدورها تثير اهتمام الشعب وتسيطر عليه الى أبعد حد ، وكان أكثر الناس فى ذلك العهد يؤمنون بكل ما يروى ويروج عن المعجزات الخارقة التى تمت أو تتم على أيدى رجال الدين ! .. ولا شك فى ان شعبا تتنازعه كل هذه المعتقدات والخرافات والاهواء خليق بأنه يقف حائرا أمام كل حادث خارج عن المألوف ، ولا يسعه الا أن يعده تدخلا من السماء ، وأن يلمس خلفه أصابع القديسين والعالمين بفنون السحر والتنجيم !

وقد جرت عادة رجال الدين حينذاك على أن يوزعوا على تلاميذ المدارس ما يتبقى من « الخبز المقدس » الذى يعده القساوسة لكنائسهم ، وذلك على سبيل التبرك والاحسان معا . فحدث مرة كما تروى احدى الشائعات أن كان بين تلاميذ احدى المدارس صبى يهودى يعمل أبوه فى صناعة الزجاج ،وكان من عادة ابنه أنه يمر عليه فى مصنعه بعد انصرافه من المدرسة. فما كاد الصبى يخبر أباه بأنه أخذ نصيبه من ذلك الخبز وأكله حتى جن جنون الرجل ، واشتد حنقه عليه لأكله ذلك الخبز الذى يباركه رجال الدين المسيحى ويقدمونه لاتباع دينهم احياء لذكرى « العشاء السرى » الذى قاسم فيه السيد المسيح رسله وانصاره الاولين . وبلغ من شدة غيظ اليهودى صانع الزجاج أنه لم يتمالك نفسه فرفع ولده الصغير بيديه وقذف به الى داخل الفرن الموقد الذى كان واقفا أمامه ، ثم اغلق عليه باب الفرن وتركه هكذا حتى تأتى عليه النار !

وبعد ثلاثة أيام خرجت أم الصبى للبحث عنه فى أنحاء المدينة ، ثم توجهت الى مصنع زوجها لعلها تجد عنده خبرا عنه ، وفيما هى تتحدث مع زوجها بالقرب من الفرن ، سمعت صوت ابنها يناديها من خلف بابه الحديدى المغلق ، فسارعت الى فتحه ، ولشد ما كانت دهشتها ، ودهشة زوجها نفسه ، حين خرج الصبى من الفرن حيا سليما لم تمسسه النيران باى سوء !

وروى الطفل لامه أن سيدة جميلة ترتدى ثوبا ارجوانيا ظهرت له فى داخل الفرن ، فأبعدت عنه النيران وقدمت له الطعام والماء

وشاع الامر بين النـاس ، فآمن أكثرهم بأن تلك السيدة هى مريم العذراء ، واعتبروا هذه المعجزة دليلا على أن الصبى وامه كانا قد تنصرا فى الخفاء . ولم يمض الا قليل حتى قبض على والد الصبى وشنق عقابا له على محاولة قتل ابنه !

وقد رويت حوادث مماثلة اخرى لا تقع تحت حصر : فلم يكن يمر يوم دون ان يشاع فى المدينة ان قديسا من القديسين أو وليا من الاولياء قد اتى بمعجزة مع واحد أو عـدد من السكان الورعين الاتقياء . وكان الشعب يركع فى الشوارع ويصلى فى خشوع وايمان كلما سمع بمعجزة من تلك المعجزات ثم يشكر الله على حسن عنايته بالبيزنطيين !

وكان الشعب اكثر تصديقا لكل ما يروى من هذا القبيل عن الامبراطور ، والامبراطورة ، والحاشية . ولما كانت حياة جستنيان وتيودورا خلف أسوار القصر المقدس يحيط بهما كثير من الغموض ، فقد امتازت الاقاويل المروية عنهما بأنها أعجب واغرب ، لان أكثرها كان من نسج الخيال !

كان الامبراطور يقضي معظم أوقاته فى تلك العزلة ، بعيدا عن أعين رعاياه ، فانتشرت لذلك اشاعات تؤكد أن عزلتـه هـذه انما تعنى انشغاله بالاتصـال خفية اما بالملائكة واما بالشياطين !

وقد تعود الامبراطور ان يأوى الى فراشه فى ساعة متأخرة من الليل ، وأن ينهض فى ساعة مبكرة من الصباح ، كما تعود ان يغادر مخدعه احيانا فى جنح الظـلام ليجلس الى مكتبـه ويواصل الاعمال التى صرف فيها نهاره ، وكان يفعل هـذا لانه جم النشاط لا يعرف التعب ولا يحب أن يؤجل الى الغد ما ينبغى ان يصنعه فى يومه . ولكن أفراد الشعب أبوا الا أن يفسروا ذلك تفسيرا عجيبا ، فراجت بينهم عن ذلك أغرب اشاعة سمعت عن ملك فى أى عصر من العصور ، وهى أن الامبراطور جستنيان حين يخرج ليلا من مخدعه ويطوف فى ممرات القصر وأحيانا فى طرقات الحديقة ، يبدو لمن يراه جسما بلا رأس فى أول الامر ، ثم يعود رأسـه الى جسمه

فى نهاية المطاف هابطا من السماء حيث كان هناك لسبب خفى لا يدركه انسان !

وكذلك راجت اشاعات أخرى تؤكد كل التأكيد أن المقربين من رجال الحاشية الامبراطورية ، يشعرون أحيانا ، وهم وقوف حول الامبراطور بأن شيئا غير طبيعى قد انتابه فجأة ، ثم يرون وجهه يعلوه الشحوب ، ويتقلص حاجباه تدريجيا حتى لا يبقى لهما أى أثر ، ثم سرعان ماتلحق بهما عيناه فتغوران وتختفيان . وهكذا يبدو لناظريه ، وكأنه خرج من صورته البشرية وأصبح روحا متشحة بالضباب !

وعلل الكثيرون ظاهرة تحول جستنيان من جسم الى روح ، بعد أن تناقلتها الالسنة وأقرتها العقول ، بأن الامبراطور فى حالته الاولى يكون على اتصال بالارواح الشريرة والشياطين ، أما فى حالته الاخرى فيكون على اتصال بالارواح الخيرة والملائكة !

وزاد الناس على ما تقدم أن الراهب « زوراس » كان فى القصر ذات يوم فرأى الامبراطور وهو يتحول أمامه على ذلك النحو ، ولم يسعه الا الركوع فورا حيث جعل يصلى ويبتهل الى الله ، حتى شفى الامبراطور من نوبته وعاد الى صورته الطبيعية !

وتناقل الناس خبرا أعجب مما تقدم ، فقالوا :

ان الناسك « سابا » الذى كان يعيش فى صومعته بأرض فلسطين على مقربة من القدس ، توجه يوما الى القصر المقدس ليقابل الامبراطور . ودخل عليه فى قاعة العرش حيث كان جالسا وحده ، ولكن الناسك سرعان ما غادر القاعة مهرولا مذعورا ، كمن به مس من الجنون ، وقال لمن كانوا بالباب حينذاك :

ــ ان الامبراطور ليس فى القاعة .. أما الشخص الجالس فيها متربعا على العرش فلاشك فى أنه شيطان !

وكان بين رجال الحاشية ورفاق الامبراطور وخدمه من ينكرون رؤيتهم هذه الخوارق . ولكن أكثر هؤلاء جميعا كانوا يؤكدون وقوعها على مرأى ومسمع منهم ، ويتبعون ذلك بأغلظ الايمان !

واخيرا ، شاع الخبر الاكبر ، والعجب العجاب ، فروى الناس بعضهم لبعض أن الامبراطورة الوالدة ، أم جستنيان اعترفت لراهب من النساك بأنها فى صباها خانت زوجها ووقعت فى غرام مخلوق من غير سكان الارض ، وأن ذلك العاشق الذى جاءها من عالم الارواح وتجسم لها فى صورة انسان ، قد تبخر أمامها واختفى كأنه نفخة من دخان ، ولكن بعد أن جاء ابنها جستنيان ثمرة ذلك الغرام الشيطانى العجيب !؟

وهكذا ، صار الناس يعتقدون أن امبراطورهم النابغة الحكيم الادارى المحنك ، انما هو ابن عفريت من الجن ، وأصبح من السهل على سكان بيزنطة ، الذين راجت بينهم هذه الخرافات والاساطير ، أن يفسروا كل عمل من أعمال جستنيان بأنه من وحى الملائكة أو الشياطين !

وقد كان الامبراطور جستنيان مسرفا ينفق الاموال بلا حساب . ولم يكن أحد يعرف من أ ن يأتى بكل ما ينفقه من فضة وذهب ، يفوقان دخله الخاص وما يدره خراج الدولة على بيت المال ، الى أن روى أحدهم القصة التالية فصدقها الناس ، وهى : أن جستنيان كان مرة يتفقد سير الاعمال فى أثناء تشييد كنيسة آيا صوفيا العظيمة ، وكان الحزن مرتسما على وجهه ، لانه فى حاجة الى المال اللازم لمواصلة البناء . فوقف فوق صقالة من الخشب وانهمر الدمع من عينيه . ثم اذا به يلمح أحد خصيان القصر مسرعا اليه . ولما اقترب

منه قال الخصي : « لاتكتئب يامولاى من أجل المال ولاتشغل بالك بالبحث عنه .. انني أطلب منك أن تضع غـدا تحت تصرفي لفيفا من رجال الحاشية وذوى المناصب الرفيعة ، وأتعهد بأن آتيك بما تريد من مال ! »

ولم يلتفت جستنيان الى ما قاله الخصي وظنـه يمزح . ولكن هذا عاد فى اليـوم التالى يلح على الامبراطور قائلا : « أعطني من طلبتهم منك امس لكى اعطيك ما تطلب ! هيـا يامولاى ولا تتردد ! »

وعجب الامبراطور من الحاح العبـد عليـه ، وأمر بعض أخصائه بأن يذهبوا معـه الى حيث يريد ، فذهب معـه ستراتيجيوس مدير الخزينة ، وباسيليدس رئيس الحسابات وكولوكنتاس محافظ العاصمة ، ومعهم آخرون ، وعشرون من البغال القوية . حتى اذا بلغوا احدى الضواحي وقف العبد فجأة هناك ، حيث وجدوا أنفسـهم أمام قصر بديع لم يشاهدوه من قبل ، ثم دعاهم الى الترجل عن خيولهم ففعلوا ، ودخل بهم الى القصر حيث قادهم الى قاعة ملئت بالقطع الذهبية . وتناول مجرفـة وراح يغترف بها المـال ويملأ به الاكياس التى حملوها معهم ، ويأمرهم بوضعها على البغال ، فلما انتهى من ذلك امرهم أن يعودوا أدراجهم الى حيث ينتظرهم الامبراطور ، ويسلموه تلك الاحمال الذهبية ، ريثما يلحق بهم بعد أن يوصد أبواب القصر السحرى كى لا يدخله أحد سواه بعد ذلك !

وذهل جستنيان لرؤية تلك الاكوام من الذهب ، واصغى الى ما قصه عليـه رجاله ، وبات ينتظر عودة العبـد الذى تخلف فى القصر السحرى ، ولكن هذا لم يعد حتى صـباح اليوم التالى ، ولما ارسل جستنيان بعض من صحبوه للبحث عنه حيث تركوه عادوا بعد قليل مؤكدين للامبراطور أنهم لم يجدوا لذلك القصر أى أثر فى الموضع الذى شاهدوه فيه ،

بل وجدوا ذلك الموضـع قفرا كعهدهم به من قبـل ذلك الحادث العجيب !

ولم يسع الامبراطور الا ان ركع واخـذ يصلى بحرارة وايمان ، ثم قرر أن يصوم بضعة ايام شـكراً للسماء التى ارسلت اليه المال لينجز بناء الكنيسة ، وقال لمن حوله :

ـ ان ذلك العبد لم يكن من سكان الارض بل كان رسولا من السماء ، تمت المعجزة على يده !

واعتقد الروم ، وظلوا بضعة أجيال يعتقدون ، أن المـال الذى أنفقه الامبراطور جستنيان ، مشيد الكنيسة البديعة ، جاءه مباشرة من السماء

وكنيسة آيا صوفيا هى التى حولها العثمانيون ، بعـد دخول محمد الفاتح بيزنطة ، الى مسجد ، وظلوا محافظين على اسمها ، فعرف المسجد باسم « جامع آيا صوفيا »

اما خصوم الامبراطور ، فانهم كانوا يفسرون توفر المـال بين يديه ، ووجود تلك الثروة التى لا تنضب تحت تصرفه ، بادعاءات من نوع آخر ، يروجونها سرا فتنتقل من فم الى فم بين جدران البيوت ، ولا ينادى بها الخطباء الثرثارون فى حلبة « سوق الاخبار » امام القصر المقدس !

كانوا يقولون ، ان جستنيان كان يتظاهر بالتقوى والورع وصيانة أملاك الناس واحترام حقوق رعاياه ، ولكنه فى الواقع كان لصا لا يتورع عن النهب والسلب والسرقة ، وكثيرا ما عمد الى التزوير فى الوصايا التى يوصى بها كبار الاثرياء من رعاياه بحيث يثبت فيها أنهم أوصوا له بكل ما تركوه من اموال ، ثم يستولى على تركاتهم لنفسه ويحرم منها الورثة الشرعيين !

وروى آخرون : أنه كان يضارب ويتاجر فى سوق الحنطة

والحرير والمواد الغذائية ، فيحدد اسعارا منخفضة ، ويبتاع لحسابه كميات كبيرة منها ، ثم يرفع الاسعار ويبيع ما اشتراه بأغلى الاثمان !

وهناك من نسبوا اليه أنه كان يساوم كل طالب حاجة ولا ينجزها له الا بعد أن يحصل منه فى مقابل ذلك على ما يمكن الحصول عليه من المال ، ومن هنا جمع مالا كثيرا من التجار وأصحاب الملاهى والحرف وغيرهم !

وأكد كثيرون أن الامبراطور لم يكن يتورع عن الاقدام على أية جريمة فى سبيل الحصول على المال ، وقد اغتيل فى عهده كثيرون من الامراء والكبراء فى ظروف غامضة ثم آلت ثرواتهم وممتلكاتهم الى الخزانة الامبراطورية بعد اتهام ورثتهم بذلك الاغتيال للتخلص منهم والاستئثار بها من دونهم . وكذلك حكم على كثيرين من الاثرياء فى عهده بالنفى ومصادرة اموالهم ، لا لذنب اقترفوه ولكن لان الامبراطور فى حاجة الى تلك الاموال !

وتطاولت ألسنة أولئك الخصوم فنالت من الامبراطورة نفسها ! .. فقالوا عنها : أنها تحب المال وتتواطأ مع أهلها واصدقائها لسلب اموال الناس . كما انها كانت تطلق أعوانها ليوافوها بأخبار العظماء الذين يكنزون الذهب والفضة ، ثم تدبر المكايد بالاتفاق مع الامبراطور زوجها للايقاع بكل من هؤلاء طمعا فى الاستيلاء على ماجمعوه وكنزوه !

واتهم الامبراطورة خصومها أيضا بأنها طالما اجتذبت اليها أصحاب الاموال ورجال الاعمال بمساعدتهم على تنفيذ مشروعاتهم الى أن تنجح هذه المشروعات وتدر أرباحا كبيرة ، ثم تعمل على اتهامهم بالغش والجشع للاستيلاء على ثرواتهم بعد أن يلقى بهم فى غياهب السجون !

والواقع ان بيت المال كان كثيرا ما يصادر لحسابه كميات من البضائع أو التحف أو المواد الغذائية وغيرها . ولكن الشعب

كان يعزو تلك المصادرات كلها الى تدبير تيودورا ، مهما تكن الاسباب القانونية لها

والعجيب أن عامة الشعب كانوا اكثر تصديقا لما يروى عن الامبراطورة تيودورا من هذا القبيل ، برغم أنها كانت معروفه بالعطف على العامة والبر بالفقراء فى الوقت الذى تبدو فيه متكبرة متعجرفة نهمة ، شديدة الاعتداد بنفسها والتمسك بسلطتها ازاء الكبراء وذوى النفوذ واصحاب المناصب العالية

وهكذا استطاع أولئك الخصوم أن يلصقوا جميع انواع التهم الشائنة بالامبراطورة عدوة الاقوياء وصديقة الضعفاء ، وصدق الجميع ما نسب اليها من مختلف ألوان الظلم والاستبداد والفساد ، وفى مقدمة ذلك انها لا تكاد تغضب على شخص ما لسبب من الاسباب مهما يكن تافها ، حتى تأمر باحضاره الى القصر ، حيث تسلط عليه من يكبلونه بالحديد ، ثم يوجعونه ضربا ، وبعد ذلك تأمر بارساله الى المنفى فى أطراف الامبراطورية ، أو بحبسه فى أقبية القصر المظلمة حتى يلقى حتفه بعد أن يذاق ألوانا من التعذيب ، وهنا تأمر الامبراطورة بوضع جثته فى كيس خاص ومعه أثقال من الحديد ثم يلقى بالكيس وما فيه ليلا فى مياه البوسفور ! .. كما كانت أحيانا تشتد فى قسوتها على ضحية غضبها فتأمر باغراقه هكذا وهو على قيد الحياة ! وكانت هذه الانباء تنتشر بسرعة بين الناس فى الاسواق والبيوت والحقول ، فاذا مر بعضهم أمام أسوار القصر المقدس ، تهامسوا فيما بينهم ، وجعل كل منهم يروى للاخرين ما سمعه عن السجون المظلمة فى أقبية القصر السحيقة ، حيث تحبس تيودورا صديقة الشعب ، خصومها وخصوم الشعب !

واشتط الخيال بخصوم الامبراطورة ، فاخترعوا من بنات أفكارهم مئات من آلات التعذيب زعموا أنها هى التى أعدت

تصميمها بنفسها للتنكيل بضحاياها من الكبراء والأثرياء .
فمنهم من يربط بالسلاسل بحيث يتعذر عليه أن يتحرك ،
ومنهم من تفقأ عيناه مبالغة في حرمانه من النور ، وهناك
آخرون يقضى عليهم بألا يأكلوا غير العظام المجردة من اللحم ،
فاذا قدر لاحدهم أن يبقى على قيد الحياة شهورا فى سجنه على
هذه الحال فانه غالبا لاينجو من الاصابة بالعمى أو الجنون .
وهنا تطلق تيودورا سراحه وتتركه يهيم على وجهه فى
الاسواق . وكان هذا هو التعليل المقبول لكثرة المجانين فى
بيزنطة ، ولاسيما أن هؤلاء جميعا لم يكونوا يعرفون عن
ماضيهم شيئا ، أو على الاصح لم يكونوا يذكرون عنه شيئا ؛
لان السجن والتعذيب قد أفقداهم الذاكرة والعقل !

وتناولت الالسن حكاية ابن تيودورا الذى اختفى قبل أن
تصبح عشيقة ولى العهد وزوجة الامبراطور ! .. فانتشرت
اشاعة تقول : إن ذلك الابن عاد إلى القسطنطينية عقب وفاة
أبيه بعد أن عرف منه أن أمه التي أنكرته ونبذته هى تيودورا
امبراطورة الروم وزوجة جستنيان ، وعلى أثر وصوله الى
العاصمة أرسل يطلب مقابلة الامبراطورة ، فتظاهرت بالسرور
لقدمه وبالغت في الترحيب به ، ولكنها كانت قد أوعزت الى
زبانيتها بأن يتربصوا لاقتناصه عقب انتهاء المقابلة ، فانقضوا
عليه وهو خارج من عندها وقادوه فورا الى حيث لم يره أو يسمع
عنه أحد أى خبر بعد ذلك !

تلك هى الاخبار المثيرة التى كان الناس يروجونها ويتناقلونها
عن جستنيان ، وزوجته العجيبة ولكن هذه الاخبار لا تخلو من
مبالغة ودس وكذب . ان فيها شيئا من الحقيقة ولكنها ليست
كلها صحيحة !

ان بروكوبس ، الذى نقل الينا الكثير من الفضائح عن

تيودورا ، يقول عنها حرفيا ، في كتابه «التاريخ السري» مايلي:
« كانت تيودورا امرأة غامضة • واذا أرادت أن يبقى عمل من أعمالها سرا مكتوما ، فان ذلك كان ميسورا لها ، ولم يكن في وسع أحد أن يكشف الستار عن ذلك السر مهما تكن مهارته وشجاعته »

وبروكوبس هذا هو نفسه الذي نقل معظم الحوادث والاساطير والفضائح التي أشرنا اليها • فكيف عرف هو تلك الاسرار التي يدعي أن تيودورا كان بوسعها أن تخفيها من غير أن يتمكن أحد من كشف الستار عنها ؟

ثم ان بروكوبس ، بعد أن روى بعض تلك الفظائع التي ألصقها بالامبراطورة عاد فاعترف بأن الهرب من السجون والاقبية ومعتقلات المنفى التي تحدث عنها ، كل ذلك لم يكن من الامور المتعذرة وان كان صعبا • ثم أضاف الى ذلك قوله: أن كثيرين من أولئك الذين قضوا في سجون تيودورا وأقبيتها مدة من الزمن ، بسبب غضب الامبراطورة المؤقت ، عادوا الى استنشاق نسيم الحرية وعادت اليهم أموالهم وأملاكهم !

وفي ذلك كله تناقض وتباين يحملنا على القول بأن الكثير مما روى عن تيودورا كان تحاملا عليها وافتراء من أعدائها وخصومها

نعم ، ان قصور الاباطرة في بيزنطة كانت تضم سجونا وأقبية • ولا بد أن يحدث فيها ما يحدث في غيرها من القصور ، في عصر كانت فيه الرحمة والشفقة من الفضائل المجهولة أو الممتهنة • وكان أولئك الحكام الذين يبدون من التعصب الديني أشده ، هم في الواقع أبعد الناس عن العمل بتعاليم المسيح ودينه ، وما نصت عليه تلك التعاليم من محبة ووئام !

ولا يستغرب أن تكون تيودورا قد انتقمت من أشخاص ناصبوها أو ناصبتهم العداء لسبب من الاسباب ولا أن تكون قد سجنتهم وعذبتهم أو قتلتهم • فالواقع أنها كانت على جانب

كبير من الحقد ، ولم تكن تنسى الاساءة قط .. وقد عاشت حتى آخر حياتها وهى تذكر موقف « الخضر » منها ومن أهلها ، وكيف احتقروها وامتهنوها وحاولوا حرمانها من أسباب الارتزاق !

كذلك كانت تيودورا جبارة في ممارسة سلطتها الامبراطورية، فلم تكن تتردد فى الالتجاء الى القسوة والبطش للتخلص من أعدائها الذين أرادوا أو حاولوا أن ينقصوا من سلطتها او يسلبوها شيئا منها

وكانت الغاية عندها تبرر الوسيلة ، وعلى هذا لم تتورع عن استخدام أى سلاح ضد أعدائها ، ولم تتردد فى اتخاذ اية وسيلة مشروعة أو غير مشروعة فى سبيل الاحتفاظ بسلطتها المطلقة ، فكذبت ونافقت وغدرت غير مرة ، ولكن هذه المرأة التى حكمت عشرين سنة ، كانت ــ باعتراف بروكوبس نفسه ــ كثيرا ما تفتح قلبها للرحمة والشفقة ، كما كانت تحافظ على وفائها للذين خدموها وأخلصوا لها ، وتغفر لاعدائها اذا ما تابوا وطلبوا منها الصفح عما بدر منهم !

وهناك حقيقة لا يمكن نكرانها ، وهى أن أشد خصوم تيودورا عداء لها وسخطا عليها ، لم يقتلوا ولم يسجنوا ، بل حكم عليهم بالنفى ، فاكتفت الامبراطورة بأن تبعدهم عن العاصمة لكى تأمن شرهم ، وفرضت عليهم رقابة شديدة فى أطراف المملكة حيث كان منفاهم

ولا شك أيضا فى أن تيودورا قد وضعت ثقتها ، فى وقت من الاوقات ، فى أشخاص كانوا من قبل أعداء لها وكانت هى تكرههم وتخشاهم . فالقول اذن بأنها كانت تلاحق خصومها وتطاردهم حتى تقضي عليهم ، قول لا تؤيده الحوادث نفسها . ولا يستغرب من انسان حقود أن يصفح عمن كان يحقد عليه ، وان ظل يذكر الاساءة التى لحقت به من أجله أو على يده

أما ابنها ، فليس هناك ما يثبت أنها تخلصت منه بالقتل .

وقد يكون هناك سر لم يرفع عنه النقاب احد الى اليوم . ولا يستبعد أن تكون تيودورا قد نفحت ذلك الابن مبلغا من المال على شرط أن يذهب الى مكان قصى ولا يظهر ثانية فى العاصمة . ولم يكن فى وسع الابن أن يقاوم أو يتمرد ، وأمه على ما هى عليه من جبروت وسلطان !

والذى يحمل على الشك فيما رواه الرواة عن قتل ذلك الابن ، أن تيودورا كان لها ابنة كما أسلفنا . وأن تلك الفتاة عاشت فى بيزنطة وفى كنف أمها ، وكانت تيودورا تغدق عليها النعم ، ثم فتحت لحفيدها أثاناسيوس ، ابن تلك البنت غير الشرعية ، طريق النجاح والثروة ، ورعته بعنايتها وسألت عنه ساعة موتها !

ولا نظن أن اهتمام عامة الشعب بأمثال تلك التفاصيل التى رواها بروكوبس كان بالغا ذلك المبلغ الذى ادعاه . والشعب عادة يبحث عن الاسباب فى غير موضعها . انه كان يرى نفوذ تيودورا على زوجها ، وسلطانها المطلق على الامبراطور الذى يفعل ما تريد ، فاعتقد الناس أن هناك تدخلا من الملائكة أو من الابالسة أو من العفاريت ، فى حين انه كان فى وسعهم أن يفسروا هذا السلطان وذلك النفوذ بأن زوجة الامبراطور تمتاز بارادة أقوى من ارادة زوجها ، وأن شخصيتها تطغى على شخصيته !

فأقرب الى التصديق اذن أن يقال ان طغيان تيودورا على جستنيان كان أمرا طبيعيا ولاحاجة الى أن نعلله بأسباب خارقة للطبيعة !

ولكن الشعب كالطفل الكبير ! والاساطير والخرافات تؤثر فيه وتغرى مخيلته اكثر مماتغريه الوقائع الملموسة . ومن هنا كان شعب بيزنطة ــ برغم حبه لتيودورا ــ يصدق بسهولة كل مايشاع عنها ، ثم انتهى به الامر الى أن اعتقد أنها على صلة بالشياطين ، وأن الشياطين كانت تعاشرها فى صباها وتطرد عشاقها وتحل محلهم ، بل اعتقد انها حين تسنمت العرش ، كانت واسطة

تعارف بين زوجها ، وسكان الجحيم !

ولا يمكن تصديق الافتراءات التي حاول بعضهم الصاقها بتيودورا ، من حيث سوء سيرتها بعد تسنم العرش . فلو أن هذا كان صحيحا ، لتناولته الألسنة بالنقد والتجريح ولما بقى كاتب أو مؤرخ أو راهب لم يذكره ويسجله وينقله الينا خلال الاجيال التالية !

ولا يغرب عن البال ان فضائح النساء فى بيزنطة ، كانت ركن الاحاديث ومحورها فى المجتمعات والاندية والاسواق على السواء . ولم تسلم امرأةواحدة، كبيرة كانت أم صغيرة ، من السنة الناس . فكيف سلمت منها تيودورا الامبراطورة ، وهى التى عرفها الشعب بأسره ورآها ممثلة ، وراقصة ومهرجة ، فى الملعب ؟

▭

ولنختم حديثنا عن ثرثرة العاصمة البيزنطية بذكرالاعتقاد الذى كان شائعا فى المدينة عن تمثال « الزهرة » ــ اى الربة فينوس ــ على ساحل القرن الذهبى :

كان ذلك التمثال بقية من آثار العهد الوثنى ، وكان الناس يعتقدون أن صاحبته فينوس الواقفة عارية على قمة عمود مرتفع ، تشرف على مياه القرن الذهبى ، ترعى بحمايتها بيوت الملذات المحرمة ، ولا تتردد فى اداء أجل خدمة يمكن أن تؤديها ربة من الربات لرجل محافظ يغار على سمعته !

فاذا ما شك زوج فى وفاء زوجته له ، واتهمها أو مال الى اتهامها بالخيانة ، فانه يأخذ بيدها ويقول لها : « هيا بنا الى تمثال فينوس ! »

والمرأة الشريفة وحدها دون سواها هى التى كانت ترضى بأن تقوم بالتجربة وتذهب مع زوجها الى التمثال الرهيب ، ذلك لان المدينة كلها كان يسودها الاعتقاد حينذاك بأن كل امرأة مذنبة تمر فى ظلال التمثال لا بد أن تسقط عنها ثيابها فتبدو

عارية مثلما يبدو تمثال فينوس !

اما اذا كانت الزوجة شريفة غير مذنبة ، فانها تمر بسلام ولا تقدم الربة على تجريدها من ثيابها ، وبذلك لا يسع الزوج إلا أن يؤمن بأنها باقية على وفائها له !

ويرون أن حادثا مزعجا وقع من هـذا القبيل لابنة أخت تيودورا، فقد ذهبت تلك المرأة الىالقرن الذهبي لزيارةاحدى صديقاتها ، ففاجأها المطر ، واضطرت الى سلوك طريق آخر، فقادتها قدماها الى التمثال المعهود ، واذا بهـا تجد نفسها مجردة من الثياب ، عارية في وسط الطريق ! فغضبت ، وقصت ما حدث لها على خالتهـا الامبراطورة ، فأمرت تيودورا بأن ينزل التمثال عن قاعدته ويحطم . وهكذا أنقذت الامبراطورة نساء الدولة الخائنات من ذلك الكابوس !

وقال النـــاس همسا : « اذا كانت تيودورا قد حطمت التمثال ، فذلك لانها خائفة من أن يعمد زوجها الامبراطور الى أخذها بيدها قائلا : « هيا بنا الى تمثال فينوس ! »

والحقيقة يمكن تفسيرها الآن بأن المرأة التى مرت أمام التمثال قد فوجئت برياح قوية هبت عليها كما فوجئت بالمطر ، وان تلك الرياح رفعت ثوبها أو أسقطته ، ولكنها جارت الاعتقاد السائد : ونسبت الى التمثال الاصم تهمة تجريدها من ثيابها ، فعمدت الى التخلص منه بمساعدة خالتها !

هذا الى أن تيودورا تعد فى مقدمة شهيرات النساء اللائى كتب عنهن المؤرخون والرواة مجلدات لا عداد لها . وقد ثبت أن واحدا ممن كتبوا عنها ، لم يذكر أنها بعد جلوسـها على العرش كانت امرأة منحلة الخلق سيئة السيرة كما كانت فى عهدها الاول . ونحن نميل الى الاعتقاد بأنهـا كانت زوجة صالحة وفية للأمبراطور الذى وضع فيها ثقته وأحبها حبا جعله ينسى نفسه من أجلها ، ويضحى بسلطته فى سبيل سلطتها !

تيودورا الزوجة

كان المؤلف المسرحي الفرنسي «فكتوريان ساردو» من الكتاب الذين اتخذوا حياة تيودورا موضوعا لكتاباتهم ، وقد وضع عنها مسرحية « تيودورا » واظهرها فيها بمظهر امرأة مستهترة سيئة السلوك . وقد ساعد ذلك على ترسيخ الاعتقاد لدى بعض الناس بصحة ما قيل وأذيع عن الممثلة الحسناء التى صارت امبراطورة ، وباتوا ينظرون اليها عن بعد خلال حقبات التاريخ ، نظرهم الى غانية ظلت بعد اعتلائها العرش ، منغمسة فى سيرتها الاولى غارقة الى ما فوق رأسها فى أحضان الرذيلة !

ونحن لا نرغب هنا فى الدفاع عن الامبراطورة واظهارها أمام القراء فى مسوح القديسين . فان التأكد من أنها تحولت الى امرأة صالحة ليس من الامور السهلة ، ولا يهمنا نحن أن تكون تيودورا قد تابت من ذنوبها أم لا . ففى شبابها ، كانت تيودورا منغمسة فى الملذات المحرمة بلا وجل ولا حياء . واذا كانت فيما بعد ، قد استمرت فى غيهـا وعاشت بين جدران القصر الامبراطورى كما كانت تعيش بين جدران المواخير ، فهذا لا يضيرنا نحن بل يضير زوجها الامبراطور جستنيان !

غير أن الوقائع هى الوقائع . والدلائل هى الدلائل . واذا فحصناها ووزناها ، فانهـا تنطق بما فى مصلحة تيودورا لا ضدها . فلنفحصها اذن ولنزنهـا بميزان الانصاف وعدم التحيز

ومن بين هذه الوقائع الملموسة والدلائل الجلية ، أنه ليس هناك كاتب مؤرخ واحد من معاصريها ، ولا ممن عاشوا فى

الجيلين التاليين ، سطر كلمة واحدة يستفاد منها أن الامبراطورة ظلت ، بعد اعتلاء العرش ، تلك المرأة الفاسقة الفاجرة ، التى عرفها البيزنطيون فى ملعب عاصمتهم . مع أن أولئك الكتاب المؤرخين كثيرون

وقد نقلوا الينا أشياء كثيرة عن تيودورا ، وعددوا لنا عيوبها ونقائصها ، فقالوا : انها كانت متكبرة قاسية جشعة ، متعصبة ماكرة . ولم يكن هناك ما يمنعهم من ان يقولوا أيضا : انها كانت زوجة سيئة السلوك !

وهؤلاء المؤرخون الذين نشير اليهم ، وفى مقدمتهم بروكوبس ، قد سردوا لنا بالتفصيل جميع ما عرفوه أو سمعوه أو ابتكروه من مخيلتهم عن تيودورا الراقصة الممثلة ، وعن الامبراطورة الطاغية . ولو كانت زوجة جستنيان قد خانته أو لطخت اسمه بالعار ، لما سكت هؤلاء المؤرخون عن هذا ، ولرووه لنا بالتفصيل كما فعلوا عن الشطر الاول من حياة تيودورا . وماداموا قد لزموا الصمت ولم يقولوا شيئا فى هذا الصدد ، فمعنى ذلك انه لم يكن هناك شيء يقال !

ان كل ما أشار اليه بعضهم ، فى كتب التاريخ التي يعتمد عليها ، هو أن الامبراطورة كانت صديقة حميمة لثلاثة من الرجال ، غمرتهم بعطفها ونعمها . فمن هم أولئك الثلاثة ؟ . وهل كانوا أصدقاء فقط أم كانوا عشاقا ؟ كان هؤلاء الثلاثة هم : تيودوسيوس ، وبرسيماس ، واريوبنداس . وأولهم كان عشيق انطونينا ، زوجة القائد العظيم بليزيروس ، ووصيفة الامبراطورة المحبية المقربة . وقد استمرت علاقة تيودوسيوس بالزوجة الخائنة بضعة أعوام . فقد لحق بها الى حيث كانت تذهب مع زوجها القائد ، وهو على رأس الجيش الرومى : ذهب معها الى افريقا ، والى جزيرة صقلية ، والى ايطاليا ، من غير أن يفتح بليزيروس عينيه ويدرك الحقيقة ، رغم محاولات أصدقائه العديدة لتنبيهه وتحذيره . فان الرجل كان عاشقا متيما ،

والزوج العاشق لا يرى فى زوجته عيبا مهما يكن العيب ظاهرا . وهو ايضا ضعيف الارادة برغم صرامته وشدته وقسوته كجندى وقائد

ومرت عشرة أعوام ، شعر الزوج فى نهايتها بأن هناك شيئا يمس كرامته ، وأدرك الحقيقة المرة المؤلمة . فعول على وضع حد لتلك الحالة . وحبس زوجته فى دارها ، ونادى «فوتيوس» ابنها من زوجها الاول ، وعهد اليه بأن يقتص من أمه ويعاقبها على ما فعلت !

ولم يتردد الشاب فى تنفيذ ما كلفه به زوج أمه . وكان تيودوسيوس قد فر من وجهه ولجأ الى حرم كنيسة على أمل الا يجرؤ أحد على اللحاق به اليها . ولكن فوتيوس لم يحترم قدسية المكان ، بل اقتحم الكنيسة ، وقبض على عشيق أمه ، وارسله مكبلا بالحديد الى قلعة منعزلة فى جبال قيليقية بسورية !

وتم كل شيء بسرعة عجيبة وحذر شديد ، حتى ان الناس ظلوا مدة من الزمن يجهلون مصير تيودوسيوس ، الى أن تدخلت تيودورا فى المسألة .. وقيل أنها كانت تعطف على تلك العلاقة القائمة بين وصيفتها وعشيقها تيودوسيوس ، وأنها كانت تحمى الحبيبين ارضاء لأنطونينا . فان رضاء وصيفتها كان من شأنه ان يجعل زوجها بليزيروس دائما تحت نفوذ الامبراطورة ، والامبراطورة فى حاجة الى تأييد قواد الجيش . وهكذا رأت تيودورا أن تكتسب الزوج ، بأن تساعد زوجته على خيانته لترضيها وتؤثر بواسطتها فيه !

وحدث ذات مرة أن لاكت الالسنة حكاية أنطونينا وتيودوسيوس ، فخشى العشيق على نفسه ، وابتعد عن العاصمة ، ولكن تيودورا نفسها أرسلت فى طلبه ، وطمأنته على حياته ، وحملته على البقاء فى بيزنطة بجانب صديقتها وصيفتها أنطونينا العاشقة !

ولما بلغها ما حدث لانطونينا ، وكيف حبسها زوجها بليزيروس فى بيتها ، وعهد الى ابنها فى معاقبتها ، كما بلغها أن فوتيوس أرسل العاشق الى قلعة فى قيليقية ، اسرعت الى التدخل ، ودعت بليزيروس للمودة الى بيزنطة مع زوجته ، وارغمته على ان يصطلح مع انطونينا وينسى ما فات . وهكذا فعل القائد الضعيف الارادة ما طلبته منه الامبراطورة !

وبعد ان تم الصلح بين الزوج والزوجة ، بفضل تيودورا ، ارسلت الامبراطورة فى طلب تيودوسيوس نفسه ، وجاءت به سرا الى القسطنطينية ، وأدخلته القصر ليلا ، وخبأته فى الجناح المعد ، ثم نادت وصيفتها انطونينا : الزوجة الخائنة ، وقالت لها :

ـ يا عزيزتى الحبيبة ، لقد وقع بين يدى كنز ثمين ، جوهرة لم تقع على مثلها يد انسان .. فاذا أردت ، فانى اجيئك بالجوهرة لكى تمتعى بها النظر !

ولما رأت حماسة أنطونينا لرؤية الجوهرة ، اخرجت تيودوسيوس من مخبئه ، والقته بين احضان عشيقته ، التى طارت من الفرح ، وجعلت تقبل يدها مرددة :

ـ أنت سيدتى ، انت ملاكى ، انت منقذتى !

واحتفلت تيودورا بالعشيق داخل القصر ، حيث أعدت له ولعشيقته جناحا خاصا ، وعينت لهما الخدم والخصيان ، وفكرت فى وقت من الاوقات أن ترفع تيودوسيوس الى مصاف القواد وتضعه على رأس فرقة من الجيش . ولكنه مات قبل أن تحقق تيودورا وعدها !

هذه قصة انطونينا وتيودوسيوس كما رواها بروكوبس . ولا شىء فى روايته هذه يدل على أن الامبراطورة انتزعت من الوصيفة عشيقها . ولو كانت قد فعلت ذلك ، لما سكت بروكوبس ولا اتخذ عملها هذا حجة للتشهير بها كعادته !

وقال آخرون أن تيودورا كانت عشيقة « برسيماس » وهو

شاب سورى بدأ يجمع ثروته الطائلة بالاتجار بالفضة والذهب. ولفت الى نفسه الانظار بالمضاربات الجريئة التى كان يقدم عليها ، فى غير مبالاة بالصدق او الامانة !

ثم اصبح برسيماس فى خدمة الحكومة بعد أن صار على جانب عظيم من الثراء ، فاسترعى نشاطه انتباه الامبراطورة ؛ وسرعان ما قربته منها وجعلت تستخدمه فى قضاء مآربها السياسية . ومهدت له سبل الارتقاء فأصبح رئيسا للمحكمة العليا ! .. ودهش الناس لهذا الصعود السريع المفاجىء ، فراحوا يفسرونه بما يوحى به الخيال فقال « الفلاسفة » فى « سوق الاخبار » : ان برسيماس يتعاطى السحر ، وانه يضع فى كاس الامبراطورة شرابا تعده له الشياطين ، وهذا هو سر نفوذه عليها وعطفها عليه !

والحقيقة أن برسيماس لم يكن فى حاجة الى شراب سحرى ولاالىمساعدة الشياطين لكى يتقدم وينجح . فهوذكى جرىء. وقد انتقل الى منصب وزير المالية فعرف كيف يحصل على المال كلما كان الامبراطور أو الامبراطورة فى حاجة اليه . وفى هذا ما يكفى لاكتساب ثقة جستنيان وتيودورا

وكان الرجل قاسيا فى معاملة النـاس . ولم يحجم عن الدخول فى مضاربات ومساومات أحدثت فى النهاية امتعاضا عاما ، فاضطر جستنيان الى اعفائه من منصبه ، برغم قدرته على احضار المال وقت اللزوم !

وحاولت تيودورا أن تثنى زوجها عن عزمه ولكنها فشلت . غير انها ظلت تشمل برسيماس بحمايتها ، فكان هذا عزاء له عما أصابه من نقمة الامبراطورة . وليس هناك ما يدل على أن علاقة غرامية قامت بين تيودورا وبرسيماس . وقد قال بروكوبس نفسه : « ان تيودورا أحبت برسيماس لبراعتهفى الحصول على المال ، ولخبرته فى الأعمال السحرية ، وهى الاعمال التى كانت الامبراطورة تميل اليها وتمارسها ! »

واذن .. لم تحبه الامبراطورة ، لأنها اتخذته عشيقا لها، بل أحبته كخادم أمين تثق به وتستغل مواهبه !

وبعد موت تيودورا ، عاد برسيماس الى القصر وشغل مرة أخرى منصب مدير بيت المال وظل حائزا بقية حياته على ثقة الامبراطور !

وكتب قصاص يدعى « ريلاس » فى القرن الثانى عشر قصة عن رجل يدعى « برسيماس » قال عنه أنه كان من أخصاء الامبراطورة تيودورا ، وروى فى قصته الرواية الآتية :

« عرف برسيماس وهو فى حمص بسورية ، ساحرةمصرية جاءت من الاسكندرية تحمل معها لوحات عليها رسوم فرعونية لا يعرف غيرها معناها . ولكنها وقعت فى غرام برسيماس ، فاصطحبها معه الى بيزنطة ، حيث فكت له رموز تلك اللوحات ، فأصبح يملك قوة خارقة تزيل من سبيله العراقيل وتمهد الصعاب وتجعل أقوى الناس شكيمة يقف أمامه مستسلما طائعا . وبقوة تلك الطلاسم الفرعونية ، توصل برسيماس الى أعلى المناصب وملك قياد الامبراطورة والامبراطور . ولكن الساحرة التى كانت تحبه داخلتها الغيرة من تيودورا الجميلة ، فلجأت الى استخدام سحرها للتفريق بين عشيقها والامبراطورة ، فنجحت ! »

ولا يعرف من أين أتى ذلك القصاص بهذه الرواية عن الساحرة المصرية . واغلب الظن انه نقلها عن مخطوط قديم ، أو ابتكرها من مخيلته ، شأنه فى ذلك شأن معظم القصاصين !

أما « أريو بندوس » الذى قيل أيضا انه كان عشيق الامبراطورة ، فهو من الشعوب التى كان الروم يسمونها « برابرة » وقد عطفت عليه تيودورا وقربته اليها وعينته فى حرسها ، لأنه كان قويا جميلا مفتول العضلات . وتهامس

الناس فيما بينهم : « أهو حارس أم عشيق ؟ »

وبلغت أخبار هذا التهامس مسامع تيودورا ، فسارعت الى ابعاد الشاب فارسلته الى احدى الحاميات البعيدة . ولو كانت تحبه كعشيق لما منعها شيء من اخفائه فى قصرها من غير ان تصل اخباره الى الخارج . واذا كانت قد أبعدته ، فان هذا دليل على أنها ارادت أن تكذب الاشاعات وتصون سمعتها !

والذى نعتقده ، أن تيودورا صانت سمعتها فعلا ، وكبحت جماح نفسها كامرأة ، منذ أصبحت امبراطورة . وذلك لبضعة أسباب :

فقد اعتلت العرش وهى فى نحو الثلاثين . والمرأة فى هذه السن ، خصوصا فى الشرق ، تكون قد فقدت كثيرا من روعة الشباب . فضلا عن أن تيودورا ، فى الوقت الذى قيل فيه انها اتخذت لنفسها عشاقا وهم الذين ذكرناهم ـ كانت قد جاوزت الخامسة والاربعين !

يضاف الى هذا أن تيودورا الذكية النابهة ، أدركت ان منصب الامبراطورة وعرش بيزنطة يستحقان أن تضحى فى سبيلهما بميولها العاطفية . واذا كانت قد أخطأت فقد يكون ذلك فى داخل القصر ، وبصورة خفية سرية ، لا يمكن ان يفطن اليها الناس من الخارج ، ويتحققوا منها ، ويستطيعوا اثباتها !

ولماذا لا نتصور تيودورا فى صورة امرأة كانت فاسقة فاجرة ، ثم ضحك لها الحظ فجلست على العرش ، ومنذ تلك اللحظة شعرت بالاشمئزاز من حياتها السابقة ، وصممت فعلا على اسدال ستار بين ماضيها وحاضرها ؟

لقد اثبتت اكثر من مرة ، وهى امبراطورة ، أنها تحمى الازواج وترغب فى صيانة حرمة الزواج . ولا عبرة بحادثى تيودوسيوس وأنطونينا ، حيث ضعفت تيودورا أمام وصيفتها وأرادت ان ترضيها باحضار العشيق والقائه بين احضانها . فهناك مئات من الحوادث الاخرى ، أبدت فيها الامبراطورة

غيرتها على سمعة الزواج ورغبتها فى أن يحافظ الناس على الرابطة التي جمعت بينهم فجعلت من الرجل رفيق المرأة ومن المرأة رفيقة الرجل فى الحياة !

ومن الفضائل التي لا يمكن انكارها ، ان تيودورا عملت وهى امبراطورة على انقاذ النساء الساقطات من هوة العار ، واعادتهن الى الحياة الشريفة ، ثم حملتهن على الزواج لكى يجدن فيه الراحة والاستقرار . فهى تساعد المرأة على النهوض لا على السقوط . اليس فى ذلك دليل على انها كانت تأسف لأنه لم يوجد انسان ينقذها من حياة الفسق والفجور وهى شـــابة يافعة !

ثم ان تيودورا كانت متدينة ، هذا مالا شك فيه . واعمالها التى تثبت تدينها ـ وهى امبراطورة ـ لا تعد ولا تحصى . ومهما قيل فى أعمال الناس ، فانه لا يعقل ولا يمكن أن يتصور المحقق المدقق ، أن انسانا تقيـا ورعا مؤمنا ، يحيـــا حياة مزدوجة ، شطر منها نظيف شريف ، وشطر منهـــا ملطخ مزيف ؟ !

ثورة ضد العرش

كانت القسطنطينية قد سادها القلق والاضطراب ، لتفاقم الخلاف بين فريقي « الخضر » ، و « الزرق » . وبلغ الخطر ذروته في شهر يناير سنة ٥٣٢ فباتت العاصمة مهددة بانفجار هائل رهيب !

وكانت الامبراطورة تيودورا تميل الى الزرق وتعطف عليهم، نتيجة لحقدها على الخضر ورغبتها فى الانتقام منهم لاساءتهم السابقة اليهـا قبل أن تعتلى العرش . وعلى هـذا تعودت التستر على الزرق وحمايتهم ، كلمـا أقدموا على عمل غير مشروع أو جريمة يعاقب عليها القانون !

وعبثا حاول جستنيان أن يثنيها عن تحزبها . وكان يقول لها كلما أقدمت على شيء من هذا القبيل :

ـ الا تخشين خروج الخضر عن جادة الصواب واحداث فتنة فى العاصمة ؟

فكانت تجيب ضاحكة : « فليحاول الخضر احداث الفتنة ان استطاعوا ! .. ان الزرق لهم بالمرصـاد ، وهم خليقون أن يخمدوا أنفاسهم فضلا عن فتنتهم التى تخشاها ! » وحينئذ يسـكت الامبراطور مقتنعا ، ثم يجاري زوجته فى تماديهـا ومبالغتها فى تأييد أصدقائها !

على أنه كان فى بعض الاحيـان يضيق بحمـاقات الزرق واستهتارهم فيأمر باتخاذ اجراءات عنيفة لردهم وكبح جماحهم حتى لا يتمادوا فى غيهم وغرورهم .. ولكن الامبراطورة تيودورا

سرعان ما كانت تتدخل فى الامر ، فتثور غاضبة وتصارح زوجها وهى ترغى وتزبد بأنها قد تتسامح فى أى شىء الا ان يكون فيه ما يمس الزرق من قريب أو بعيد !

وكان الزرق يعرفون هذا ، ويدركون لماذا تتشبث الامبراطورة بحمايتهم ومحاباتهم على حساب الخضر . فيزيدهم هذا تماديا وامعانا فى مفاسدهم واعتداءاتهم على خصومهم ! .. واذا حدث أن غضبوا يوما لتصرف فى غير مصلحتهم من احد موظفى الدولة أو ضباط الجيش أو احد الحكام والمحافظين فما أسرع ما كانوا يجمعون جموعهم ، ويزحفون على القصر المقدس ، حيث يتظاهرون فى ساحته صاخبين ، مطالبين الامبراطور بمعاقبة خصمهم بالطرد .. وهنا لا يسع الامبراطور الا أن يجيب طلبهم حتى لا تغضب زوجته الحبيبة الحسناء !. وما كان يحدث فى العاصمة ، كان يحدث أيضا فى الاقاليم والولايات والمدن النائية

وقع ذات يوم شجار فى انطاكية ، اشترك فيه الزرق ، فقبض حاكم المدينة على فريق منهم وضربهم بالسياط فى أحد الميادين العامة . وكان يتوقع ان يهنئه الامبراطور على حزمه وشدته فى معاقبة المذنبين ، ولكن الامر جاء على نقيض ذلك اذ أمر الامبراطور بالقبض عليه ، وبأن يجلد بالسياط فى الميدان نفسه الذى جلد فيه أولئك الزرق المشاغبين !

ومرة أخرى ، هاجم جماعة من الزرق حاكم قيليقية ، وسلبوه نقوده بعد أن شهروا أسلحتهم فى وجهه ، فارسل فى اليوم التالى قوة اعتقلت المعتدين ، واعدم اثنين منهم شنقا فى عاصمة الولاية . وما بلغ الخبر تيودورا ، حتى أمرت بالقبض على ذلك الحاكم ، وبأن يصلب فى المكان الذى أعدم فيه الشقيين .. وهكذا شنق المسكين لانه حرص على صيانة الامن وتنفيذ القانون !

وفى القسطنطينية ، كانت حوادث الاغتيال تقع فى وضح

النهار ، وكان الزرق يهاجمون خصومهم بالخناجر والسيوف على مرأى ومسمع من الامبراطور نفسه !

وكثيرا ما حدث أن ضرب الزرق عرض الحائط برأى الامبراطور ، فلم ينتظروا حتى يبت فى شكواهم ضد أحد خصومهم ، بل عمدوا الى التربص لهذا الخصم ، ثم الانتقام منه بأنفسهم لأنفسهم بأن انهالوا عليه بالضرب حتى مات ! .. وقد يكون من موظفى القصر المقربين من الامبراطور ! . وقد ينفذون فيه حكمهم الرهيب وهو خارج من القصر !

ولم يكن أحد من رجال الشرطة ليجرؤ على التدخل لتأديب أولئك الاشرار أو منعهم من قتل خصومهم ، ذلك لان الزرق كانوا لا يترددون فى اشهار السلاح فى وجوه رجال الشرطة أنفسهم ، ومقاومتهم بالقوة ، ثم رفع شكواهم بعد ذلك الى الامبراطور مدعين أن رجال الشرطة هم المعتدون !

وزاد فى خطورة الحالة أن الخضر حين أدركوا تحيز البلاط الى خصومهم الزرق ، وآلمهم أن تجاهر الامبراطورة بحمايتها لهؤلاء ، عمدوا الى اعطاء معارضتهم صبغة سياسية . وكان كثيرون منهم ما زالوا أوفياء لذكرى الامبراطور «أنستاسيوس» الذى كان يميل اليهم ويحميهم . وهو آخر امبراطور من الاسرة السابقة ، التى حلت أسرة جستنيان محلها بعد موته فأخذ زعماء الخضر يتصلون خفية بالاميرين : « هيباتيوس ، وبومبيوس » . ابنى أخى أنستاسيوس ووارثيه الوحيدين ، ويحرضونهما على العصيان والتمرد . وما زالوا بهما حتى أقنعاهما بالخروج من عزلتهما ، وتزعم حزب سياسى تألف من الخضر وغيرهم من الساخطين على الحكم الراهن فى العاصمة والاقاليم !

وقلقت الحكومة ، وأدركت أن العاصمة مهددة بثورة جارفة يضرم الخضر نيرانها انتقاما لانفسهم من الزرق ومن الاسرة المالكة ! . واضطر الامبراطور الى مضاعفة الحراسة ، ودعا

الى العاصمة قوات من الجيش كانت مرابطة فى الاقاليم ، وأصبح الناس يرقبون ، بين ساعة واخرى ، أن تنبعث الشرارة التى يندلع منها اللهيب !

ومما ساعد على تغذية روح التذمر وانتشار الفوضى ، ان الناس كانوا يشكون من الشدة التى يعاملهم بها بعض كبار الموظفين وذوى المناصب الرفيعة . وفى مقدمة هؤلاء المغضوب عليهم من الشعب رجلان من نوابغ ذلك العصر : « تريبونياتس » المشرف على الشئون المالية ، و « جان كابادوكى » المشرف على شئون العدل والمحاكم

كان جان من كبار رجال القانون ، وهو من هذه الناحية مفخرة من مفاخر الانسانية ، هذا مالا شك فيه ، ولكنه كان جشعا لا رادع له من ضميره . ففى سبيل المال ، كان جان كابادوكى يتاجر بكل شيء ، بما فى ذلك ضميره ، وكان يسخر القضاة والمحاكم والقوانين لخدمة مآربه وأطماعه . وقد ثبت أنه زور أوراقا رسمية ، ومسخ القوانين ، وأخفى وثائق هامة ، ارضاء لأشخاص دفعوا له فى مقابل ذلك رشوة باهظة ، وهكذا كان جان كابادوكى نموذجا للقاضى النابغة فى فهم القانون ، ولكنه يسخر نبوغه فى مخالفة ذلك القانون !

أما تريبونياتس . فكان اداريا حازما بارعا ، يعد هو الآخر من مفاخر عصره فى هذا الميدان ، ولكنه كان مثل زميله شديد الجشع ، يحب المال أولا وآخرا ، ولم يكن يتردد فى ارتكاب عمل ظالم أو مخالف للقانون ، ما دام فى ذلك حصوله على المال !

وكثيرا ما كان هذا الطاغية يرسل فى طلب المال من الاغنياء بلا مبرر لهذا الطلب ، فاذا امتنعوا بحجة أن المال غير متوفر لديهم ، فسرعان ما يقبض عليهم ويعذبهم حتى يدفعوا المال المطلوب ! . وبلغ به الامر انه عذب أناسا حتى الموت . وكان يقول لزبانيته جباة الضرائب والمكوس :

ـ اريد منكم مالا اكثر مما يحق لكم أن تأخذوا من الناس ، وانني أطلق أيديكم في عمل ما تريدون لهـذا الغرض ، ولن احاسبكم على شيء تقدمون عليه ، مهما تكن الشكايات التي ترفع ضدكم ، على شرط أن تعودوا الي ومعكم المال الذي اريد !

وكان الامبراطور راضيا عن هذين الرجلين القاسيين . لأن ما كان يهمه قبل كل شيء هو أن تسير الاعمال الادارية سيرا حسنا ، وأن تظل خزائن القصر عامرة بالمال . فضلا عن أنه كان يعلم ان كابادوكي وتريبونياتس لا يأخذان لنفسيهما غير القليل ويعطيانه الكثير !

غير أن رضاء الامبراطور عنهما لم يكن كافيا لحمل الشعب نفسه على الرضاء عنهما . ففي الوقت الذي كان فيه الامبراطور يؤنب زوجته تيودورا على حمايتها الزرق واطلاقها أيديهم في التنكيل بخصومهم الخضر ، كانت هي الاخرى بدورها تؤنبه على اطلاقه أيدي عماله للتنكيل بدافعي الضرائب وأصحاب الثروات والاملاك !

وهكذا انتشر الامتعاض وتحول الي تذمر فالي غضب ثم ثورة .. وقد عرفت تلك الحركة باسم لازمها في خلال التاريخ : « فتنة نيكاس » . وبدأت هذه الفتنة داخل الملعب ، ثم عمت المدينة الضخمة وأوشكت أن تودي بعرش جستنيان وتؤدي الى خراب المملكة بأسرها !

كان ذلك في يوم الاحد ١١ يناير سنة ٥٣٢ ، وكان الملعب يغص بالمتفرجين الذين هرعوا اليه لمشاهدة سباق الخيل والمراهنة بأموالهم جريا على عادتهم . وكان الامبراطور جستنيان جالسا في مقصورته ، وحوله رجال الحاشية . أما الامبراطورة تيودورا ، فكانت جالسة بين وصيفاتها خلف ستار شفاف ، في شرفة كنيسة القديس اسطفانوس المطلة على الملعب ، ولهذه الشرفة نوافذ يسدل عليها ستار أو ترفع أمامها

شبكة خشبية ، لأن البلاط البيزنطى كان يحرص على الاتظهر الامبراطورة ونساء القصر أمام الجمهور الا فى ظروف خاصة وأوقات معينة . وكان الجمهور فى ذلك اليوم مضطربا هائجا ؛ فقد حدثت فى الايام الاخيرة سلسلة من الجرائم فى المدينة قتل فيها بعض الاشخاص معظمهم من فئة الخضر . وكان الخضر قد رفعوا الى الامبراطور شكاية ضد ضابط من ضباط القصر يدعى «كالوبوديوس» اتهموه بأنه متحيز الى الزرق ضدهم : وصيغت الشكاية فى كلام جاف عنيف !

فى ذلك الجو المضطرب ، بدأ السباق ، ولكن الانظار كانت متجهة الى مقصورة الامبراطور ومقصورة الامبراطورة . ومن المدرج حيث احتشد الخضر صفوفا متراصة ، تصاعدت أصوات تحولت شيئا فشيئا الى صيحات منكرة ، وصفير وضجيج . وانزعج جستنيان ، وجعل يرقب ذلك الجمهور الهائج . ثم دعا المنادى الواقف خلفه ، وطلب منه أن يخاطب الناس سائلا : « ضد من يوجه هذا الصياح ؟ »

وخاطب المنادى الناس موجها اليهم الكلام باسم الامبراطور ، ودار بينه وبين مندوب الخضر حوار من أعجب ما سجل فى صفحات التاريخ . وقد نقل الينا ذلك الحوار بحذافيره . ويظهر بوضوح من خلاله الى أى مدى كان البيزنطيون يتمتعون بحرية القول والعمل ، فى عاصمة دولتهم ، وفى داخل الملعب حيث يقف الشعب ليناقش الامبراطور ويحاسبه على أعماله

بدأ مندوب الخضر يرد على أسئلة المنادين ، ومن حوله رفاقه يؤيدونه فى حالة عصبية ظاهرة . وكان الرجل فى بادىء الامر متحفظا فى كلامه ، مؤدبا فى تعبيراته ، يشير الى الاشخاص الذين يشكو منهم من غير أن يذكر اسماءهم . ولكنه تحمس شيئا فشيئا ، وكان أول اسم انطلق من بين شفتيه اسم كالوبوديوس ضابط القصر . ثم صاح الرجل قائلا :

ـ اننا نستنزل عدالة السماء ونقمتها على كل من يسيء الينا فى المستقبل !
وسأل الامبراطور بلسان المنادى :
ـ أنتم لم تحضروا الى هنا ، اذن ، لكى تشاهدوا السباق ! . بل جئتم لكى تشتموا الحكومة !
فارتفعت الاصوات بصيحات عالية من جميع انحاء المدرج وسمعت هذه الكلمات :
ـ الحكومة تظلمنا ! .. الحكومة تضطهدنا ! .. العدالة معدومة فى هذه المدينة !
ورفع المنادى عقيرته بالصياح مشيرا بيده قائلا :
ـ إسكتوا .. اسكتوا أيها اليهود ! .. أيها المتمردون ! .. ايها السامريون ! .. اسكتوا والا قطعت رءوسكم جميعا !
وارتفعت الصيحات من جوانب الملعب مدوية :
ـ يهوذا ! .. يهوذا ! .. أنت خائن ! .. أنت قاتل ! .. أنت مجرم ! ..
وحاول المنادى أن يتكلم ولكن الخضر أسكتوه بصيحاتهم المنكرة قائلين :
ـ اسكت ! .. ليت أباك لم ير النور ! .. لسنا متمردين أيها المجرم القاتل ، ولكننا نطلب الانصاف !
ثم مضى الحوار بينه وبينهم على مسمع من الجميع :
ـ انكم تتكلمون بلهجة خالية من الاحترام !
ـ اننا لا نحترم من لا يحترم ضميره !
ـ تعالوا نتفاهم ...
ـ نحن مستعدون للتفاهم ولكن مع اناس يعرفون ما هو الخير وما هو الشر !
ـ الامبراطور يريد الاصغاء اليكم وانصافكم !
ـ الامبراطور أغلق فى وجوهنا أبواب القصر !
ـ والحكومة مستعدة ...

ـ الحكومة متحيزة ضدنا لأنها مؤلفة من خصومنا !
ـ اذا تماديتم فى صراخكم ، سأمتنع عن الرد . . .
ـ هذا أوفق ! . . اسكت من الآن !
وتوالت الشكايات وسط الضجيج :
ـ نحن محرومون من الحريات . . . نحن مقيدون . . . نحن مضطهدون . . . ان موظفى الدولة يتآمرون علينا مع أعدائنا !
وهنـا التفت مئات من الخضر الى الامبراطور وصاحوا موجهين اليه الكلام :
ـ انك تقتلنا ! . . انك تقتلنا !
وقال مندوبهم مخاطبا الامبراطور أيضا :
ـ انك لا تكتفى بحماية الزرق ، بل تقتل الخضر اذا اعتدوا عليهم أو اذا ردوا عن أنفسهم الاعتداء !

ـ

وكان الزرق فى أثناء هذا الحوار العجيب قد لموا شملهم وتجمعوا فى جهة واحدة ثم راحوا يصيحون بدورهم مؤيدين المنادى المتحدث باسم الامبراطور ، فأصبح الملعب منقسما الى مضمارين ، مضمار تجمع فيه الخضر ، ومضمار تجمع فيه الزرق
وانطلق الزرق يردون على اتهامات الخضر . فعلا الضجيج الى حد لم يعد المنادى يستطيع معه أن يتكلم . وكان الجند المكلفون بالحراسة يحاولون حصر الخضر فى دائرة ضيقة وترك الزرق يسيطرون على الموقف . وكان هؤلاء يصيحون مخاطبين خصومهم :
ـ يا لصوص ! . . يا خونة ! . . يا يهود ! . . يا أعـداء الله ! . . . سوف نسكتكم !
وفجأة ، سكت الخضر . . وتقـدم مندوبهم الى وسط الحلبة ، وخاطب الامبراطور قائلا :

ـ يا جلالة المولى .. اذا كنت ترضى بهذا ، فليكن ما تريد .. اذا كنت تأمرنا بأن نسكت ، فسنسكت نزولا على أمرك أيها الامبراطور المقدس .. ولكننا نسكت مرغمين ، لا مقتنعين ! .. اننا نعرف كل شيء .. أسـامع أنت ؟ .. نعم نعرف كل شيء ! .. ولكننا سنسكت .. عم مساء ! .. طاب مساؤكم جميعا .. أيتهـا العدالة ، لقد أصبحت ميتة ودفنت تحت التراب ! .. طاب مسـاؤكم ، اننا منصرفون من هنا .. سنصبح يهودا .. فخير لنا أن نكون يهودا من أن نكون من الزرق !

وخرج المندوب من الملعب وتبعـه الخضر جميعا . وكان خروجهم على هذه الصورة أعظم اهانة يمكن أن توجه الى الامبراطور ، لان من يدخل الملعب لا يمكن أن يخرج منه بأى حال من الاحوال ، ولأى سبب من الاسباب ، ما دام الامبراطور باقيا فى مقصورته !

وبينما كان الشعب الصاخب يتدفق من أبواب الملعب على الشوارع ويسير فيها صائحا هاتفا ، غادر الامبراطور جستنيان مقصورته ، وعاد الى قصره ، على أمل ان تخمد تلك الفتنة التى أثارها الخضر بفضل الموقف الذى سيقفه الزرق ، وبقائهم على ولائهم المعروف للامبراطور وزوجته !

ولكن محافظ المدينة « اوديمونوس » ارتكب خطأ بدد هذا الامل وقلب الحالة رأسا على عقب ! .. فقد أراد هذا الرجل المعروف بولائه للامبراطور أن يثبت قدرته على اعادة النظام والمحافظة على الامن ، فخرج الى الشوارع على رأس قوة من رجال الشرطة ، وقبض على فريق من المشاغبين ، وحكم على أربعة منهم بالاعدام بالسيف ، وعلى ثلاثة بالاعدام شنقا ؛ من غير أن يتحقق من انتمـاء أولئك السبعة الى أحد الفريقين المتخاصمين !

ولما علم هؤلاء وأولئك ، راحوا يسألون عن المتقلين وعن الذين حكم عليهم المحافظ ، ليعرفوا أسماءهم ويتأكدوا من شخصياتهم ، وكان الجلاد قد قطع رءوس الاربعة ، وقاد الثلاثة الى ساحة المشنقة . ولما أراد أن ينفذ فيهم الحكم ، انقطعت الحبال وسقط المساكين على الارض . . . ثلاث مرات متوالية !

وصاح الحاضرون :

ـ العفو ! . . العفو ! . . يجب أن يعفى عنهم !

ذلك لان التقاليد جرت ـ منذ أقدم العصور ـ على ان يعفى المحكوم عليه بالشنق من تنفيذ الحكم ، اذا انقطع الحبل وقت التنفيذ وسقط الرجل على الارض !

ولكن محافظ المدينة رفض اجابة الجمهور الى طلبه ، وصمم على اعادة الشنق للمرة الرابعة ، غير عابىء بالعادات والتقاليد !

وكان هـذا كافيا لازدياد هياج الشعب ، فهجم على الجند والجلادين وانقذ المحكوم عليهم بالقوة وأطلق سراحهم !

ولجأ المتهمون الثلاثة الى دير مجاور فحماهم الرهبان وأدخلوهم الى الدير واغلقوا عليهم الباب . . ثم اتضح أن أحد الثلاثة محايد ، وأن زميليه أحدهما من الخضر ، والآخر من الزرق . . وهكذا قربت الظروف بين الفئتين ، وشعر الزرق والخضر على السواء بأنهم مهددون بالاعتقال والاعدام !

وفجأة ، تغيرت الحالة ، وعم الاستياء الجميع ، واصبح السكان كلهم يعطفون على الفتنة والقائمين بها ، وتوحدت هتافاتهم وصيحاتهم !

▱

وفى اليوم التالى ، هرعوا جميعا الى الملعب وتظاهروا طالبين من الامبراطور العفو عن الثلاثة الذين انقطع بهم حبل المشنقة ، واطلاق سراح المتقلين الآخرين من أية فئة كانوا !

ودهش الامبراطور لهذا المظهر الذى لم يكن ينتظره ، وراعه

أن يتفق الزرق ، والخضر فى التآمر عليه ، فرفض اجابة الشعب الى طلبه ! . وكان هذا خطأ فاحشا أضيف الى الخطأ الذى اقترفه محافظ العاصمة من قبل ، فطفح الكيل وانطلقت الشرارة التى اشعلت العاصمة !

وبدل أن تنتهى الالعاب كالمعتاد بالهتاف من صفوف المشاهدين : « النصر للامبراطور جستنيان ! » علت صيحات صاخبة من نوع آخر ، لم يطرق مثلها مسمع الامبراطور من قبل : « عاش الخضر وعاش الزرق ! . . عاش الاتحاد فى سبيل الرحمة والعفو ! »

ثم غادر الخضر الملعب وفيه الامبراطور كما فعلوا فى اليوم السابق ، وسرعان ما لحق بهم الزرق أيضا ، فتدفقت جموع هؤلاء وهؤلاء على الشوارع ، وتركوا جستنيان فى حالة من الذعر أوشكت أن تفقده الصواب !

وكان الناس يتنادون ويتصايحون ويتجمعون وقد اتخذوا كلمة واحدة للتفاهم : « نيكاس » ومعناها « النصر ! »

وأصبحت تلك الثورة تعرف فى التاريخ منذ ذلك الوقت باسم : « نيكاس »

وفى اليوم التالى ، طرقت الجموع الثائرة أبواب القصر ، مطالبة بطرد الضابط كالوبوديوس ، والمحافظ أوديمونوس ، وكابادوكى وتريبيونيانوس !

وخاف الامبراطور ، ورأى نفسه مضطرا الى التسليم بمطالب الشعب ، فطرد الاربعة وأعلن ذلك على الثائرين . . . وعين فى الوقت نفسه فى منصب المحافظ رجلا معروفا بشعبيته يدعى « فوكاس » . وفى منصب مدير الشئون المالية عين رجلا آخر رضى به الشعب أيضا يدعى « بازيليدس » . وخرج الرجلان الى الميدان فقابلتهما الجماهير بالتصفيق والهتاف ،

واعتقد الامبراطور أن الخطر قد زال وان الثورة توشك ان تخمد !

ولكن الثائرين كانت لهم مطالب اخرى ، وقد جاءت اجابة الامبراطور بعد فوات الوقت ، وبعد ان بلغ الهياج أشده وأدرك الشعب مدى قوته من اتحاده فى ساعة الخطر . وعلى هذا استمرت الثورة حتى شملت جميع المنتمين الى فريقى الخضر والزرق وكثير من المحايدين

على أن الثورة لم تمتد الى الفئة الوادعة السليمة البعيدة عن روح الحزبية . ولهذا اعتقد جستنيان أن هناك أملا فى اعادة الهدوء الى المدينة بغير حاجة الى دفع الجيش الى الشوارع لمطاردة الشعب والفتك بالثائرين !

غير أن تفاقم الحالة واتساع نطاق الاضطرابات ، وتمادى فريقى الخضر والزرق فى الجرأة والاعتداء على دور الحكومة ، جعل الامبراطور يطلق على الثائرين فرقة الحرس الامبراطورى المؤلفة من الجنود الاجانب بقيادة « بليزيروس » زوج الوصيفة أنطونينا !

وخرج أولئك الجنود الاشداء القساة الى ميادين العاصمة وشوارعها ، وراحوا يطاردون الناس بلا تمييز ولا تفريق ، وحدث أن التقوا ، فى ميدان آيا صوفيا ، بجماعة من الرهبان خرجوا من الكنيسة حاملين الصلبان والايقونات المقدسة ، على أمل أن يعيدوا الوئام الى المدينة ،فهاجموهم واعتدوا عليهم بالضرب !

وأمام هذا المنظر المثير ، جن جنون السكان ، واعتقدوا أن الجنود قد تلقوا أمرا من قائدهم ، ان لم يكن من الامبراطور ، بالاعتداء على الرهبان أنفسهم ، واهانة الدين فى أشخاصهم ، فاختلط الحابل بالنابل ، وانقلب الناس جميعا الى ذئاب مفترسة !

هجم البيزنطيون على الجنود فى الشوارع ، وجعلت النساء

يقذفن عليهم من الشرفات والنوافذ كل ما يمكن أن يقذف من البيوت : الحجارة والادوات المنزلية والاباريق وقطع الأثاث ، والعلب المملوءة بالرمل ، والخرق الملتهبة ، وقرميد السطوح ، وكل ما وصلت اليه الأيدى !

وأدى اشتراك النساء فى تلك المعركة العجيبة الى مضاعفة ثورة الرجال ، فاضطر الجنود الى التراجع بانتظام عائدين الى القصر حيث دخلوه واغلقوا على انفسهم الابواب ، بينما انطلق الشعب يضرم النار فى المبانى الحكومية وبيوت الموظفين وقصور الحكام ورجال الحاشية !

وكانت رؤية النيران المندلعة والسنتها المرتفعة نحو الفضاء ، تزيد الناس جنونا على جنون ، فجعلوا يطوفون فى المدينة حاملين المشاعل والمواد الملتهبة ، ويوسعون نطاق الحريق ما استطاعوا الى ذلك سبيلا !

واحترقت دار مجلس الشيوخ ، كما احترقت كنيسة آيا صوفيا نفسها ، درة الدرر فى بيزنطة فضلا من ثكنات الحرس ، ودور الشرطة وغيرها من المبانى الحكومية . وامتدت النيران الى أطراف القصر المقدس نفسه !

وظلت النار تلتهم المدينة ثلاثة أيام ، تساعدها الرياح على الانتشار ، حتى اتت على طائفة من المبانى المشهورة ، ككنيسة القديسة أرين ، وحمامات الاسكندر ، ومستشفى سامبسون الذى مات فيه المرضى حرقا ، ومخازن السوق الكبرى ، وأتت على حى كامل بما فيه من قصور وبيوت ومخازن وكنائس وغيرها ، بين ميدان الامبراطورية وملعب قسطنطين ! وهكذا تحول ما يقرب من ربع المدينة الى رماد !

ثم ان الجيش نزل الى الميدان من جديد ولكنه فشل فى اعادة النظام !

وساد الذعر جوانب القصر المقدس نفسه ، فان الجيش لم

يكن عدده كافيا للسيطرة على الحالة ، برغم النجدات التى وصلت الى العاصمة تباعا من حاميات المدن المجاورة !

وكان جنود الحرس جميعا معدين للزينة والاشتراك فى المواكب الرسمية ، لا للقتال فى الميادين أو لاخماد الثورات ، فضلا عن ان ولاءهم للامبراطور والامبراطورة كان مشكوكا فيه . فمعظمهم من الاجانب الذين دخلوا فى خدمة جستنيان طمعا فى الاجر المرتفع والمغانم الاخرى . فلما نشبت الثورة ، لم ينقذوا عن طيب خاطر الاوامر الصادرة لهم بالتدخل ، حتى اذا ما تفاقمت الحالة وأبدى الشعب الثائر ما أبداه من جراة واقدام ، بأن أولئك الجنود يرقبون تطور الاضطرابات لكى ينضموا الى الفريق المنتصر . وقد أدرك جستنيان ـ والقائد بليزيروس ـ خطورة هذا الموقف ، وتباحثا فيما يجب عمله أمام تردد الحرس ، وما ترتب عليه من فشل كل خطة للقضاء على الفتنة . ولم يكن فى وسعهما الاعتماد التام الا على فرقة الجنود الروم التى عادت أخيرا من بلاد الفرس مع بليزيروس ، وعلى حرس القائد الخاص ، ومجموع هؤلاء كلهم نحو ثلاثة آلاف من الجنود المدربين . يضاف اليهم ثلاثة آلاف غيرهم وصلوا صدفة الى بيزنطة من مختلف أنحاء الدولة ، وبعض السكان ممن كانوا يستنكرون الثورة ويربطون مصيرهم بمصير جستنيان وتيودورا

أمام هذه الحالة ، دب اليأس الى نفس الامبراطور . وخيل اليه أنه يرى متآمرين فى كل ناحية ، وأن فى القصر نفسه أعداء مجهولين يتربصون به الدوائر ، متأهبين للانقضاض عليه !

وكان هيباتيوس وبومبيوس ، ابنا أخى انستاسيوس ، والوارثان الشرعيان للعرش ، قبل أن ينتقل الى أسرة جستنيان، قد أسرعا فى الحضور الى القصر ، لاعلان ولائهما للامبراطور ، مؤكدين له أنهما لا يفكران فى الانتقاض عليه ، أو الانضمام الى الناقمين ، أو اغتنام الفرصة السانحة لتحقيق هدف أو مأرب

لانهما ليس لهما مآرب واهداف !
وعرض عليه الشابان أن يقيما معه بالقصر، ووضعا انفسهما تحت تصرفه ، والحا عليه أن يلحقهما بجيشه أو حرسه ، ليدافعا عنه وعن العرش
ولكن جستنيان شك فى ولائهما . وظن أن تصرفهما هذا ليس سوى حيلة ماكرة للايقاع به ، وأن رغبتهما فى البقاء بجانبه انما الغرض منها تدبير مؤامرة فى القصر المقدس للاستيلاء على العرش والصولجان ! .. وعلى هذا قابلهما بفتور . وطلب منهما أن يعودا الى دارهما ، ولم تؤثر فيه توسلاتهما !
ولم يدر الامبراطور انه بطردهما من القصر قد زود الثائرين باهم ما كان ينقصهم ، اذ قدم لهم زعيما بل زعيمين يلتف حولهما الناقمون ويتخذونهما رمزاً لثورتهم الجامحة التى لا تقف عند حد !

وفى ١٨ يناير ، أى فى اليوم السادس للفتنة ، قرر جستنيان الاقدام على عمل مشبع باليأس ، وجاء قراره هذا بعد ليلة قضاها ساهدا قلقا ، فخرج من جناحه بالقصر ، فى ساعة كان فيها الشعب يملأ مدارج الملعب ، واجتاز الممرات والدهاليز المؤدية الى مقصورته ، وظهر فيها فجاة وفى يده الانجيل قد رفعه فوق رأسه ، وخاطب الشعب قائلا :
ـ اننى أقسم لكم بالانجيل الطاهر ، اننى أعفو عن جميع الذين اشتركوا فى هذه الفتنة ، من قريب أو من بعيد ، وأيا كان نصيبهم فيها ، وذلك اذا ألقيتم جميعكم السلاح من أيديكم الآن ، وعدتم الى بيوتكم والى أعمالكم فى هدوء وسلام ونظام !
وساد الصمت ذلك الجمع الصاخب . وتطلع الناس مدهوشين الى الامبراطور وهو فى ذلك الموقف الذى لم يقفه ملك من قبل ، واذا به يستطرد قائلا بلهجة فيها رجاء وفيها ندامة ، بل فيها توسل :

ـ انني أعلن على مسمع منكم جميعا انني سبب ذلك الذي حدث ، وانني المذنب الوحيد ! .. لقد اخطأت عندما رفضت اجابتكم الى ما طلبتم مني في الملعب ، يوم جئتم تناقشونني وتحاسبونني وتتوسلون الى بأن انصفكم ! .. نعم انني مذنب ، وانا على استعداد للتكفير عن ذنوبي !

كان هذا الموقف العجيب فوق ما يمكن ان يتصوره عقل انسان ، ويحار المؤرخون في تعليله وتحديد الاسباب التي دعت جستنيان الى هذا التذلل أمام الجماهير الناقمة الثائرة !

والذي حـدث بعد أن ألقى الامبراطور هذه العبـارات المدهشة ، كان لابد من حدوثه في مثل هذا المقام !

فقد علا الصياح بعد الصمت المؤقت ، وارتفع الضحك من بعض الصفوف ، وانطلقت في الجو عبارات لم تطرق سمع ملك من قبل :

ـ كذاب ! .. كذاب ! .. خائن .. حمـار .. ملعون .. حمار ابن حمار !

وتطايرت من الايدى مئـات من الحجـارة نحو المقصورة الملكية ، مصحوبة بأبشع الشتائم والمسبات :

ـ الامبراطور حمار ... الامبراطورة خائنة ... لعنة الله على الاثنين ! .. الى الجحيم أيها الكلب المسعور !

ولم يبق أمام الامبراطور الا ان ينسحب . فانسحب مسرعا ، وعاد من خلال الدهاليز والممرات الى جناحه في القصر المقدس ، وحبس نفسه فيه وهو لا يدرى ما ينبغي له أن يصنع !

وكانت الامبراطورة غارقة في التفكير مترددة بين الآراء التي تسمعها والافكار التي تجول في خاطرها . وكانت تنهض وتروح وتجيء في جناحها ، متمتمة بين شفتيها :

ـ أممكن هذا ؟ .. أممكن هذا ؟ ..

ووقع ما مهد له جستنيان بنفسه ، عندما طرد من قصره هيباتيوس وبومبيوس !

كان الشعب فى خلال الحوادث التى توالت منذ نشوب الثورة ، يهتف من وقت الى آخـــر باسم هيباتيوس . وكان المفكرون من الخضر والزرق على السواء يشعرون بأنه لابد لهم من زعيم يتولى قيادة حركتهم ، لأن كل حركة شعبية تفتقر الى زعامة لكى تنضج وتنجح وتؤتى ثمارها . فذهبوا الى قصر الامير ، وطلبوا منه أن يخرج الى الشارع ليتولى قيادة الثورة !

وعبثا حاولت زوجتـــه « مارى » أن تثنيه عن الذهاب معهم . فأمسكت بثيابه ، وتعلقت بعنقه ، وجعلت تبـــكى وتتوسل طالبة منه أن يبقى فى قصره ولا يخرج منه . وطلبت من أصدقائه ومريديه أن يتركوه وشأنه ويبحثوا عن زعيم آخر يتولى القيادة فى ثورتهم ، مصرحة لهم قائلة أن نفسها تحدثها بأن زوجها ذاهب الى الموت !

ولم يكن هو نفسه مرتاحا الى تطور الحالة على هذه الصورة ، والى اقحامه فى مسألة كان يود البقاء بعيدا عنها . فحاول أن يمانع وأن يقنع الناس بأن يبحثوا عن غيره زعيما لثورتهم . ولكنهم تشبثوا برأيهم اذ لم يكن أمامهم سواه ، وأرغموه على الخروج معهم فى مظاهرة رائعة الى ملعب قسطنطين ، وهناك رفعوه على ترس من النحاس وحملوه على الاكتاف ، ومعنى هذا انهم نادوا به ملكا عليهم !

وبحثوا عن تاج يطوقون به جبينه فلم يجدوا . وانتزع جندى عقدا من العقود الذهبية التى يضعها جنود الجيش الرومى حول أعناقهم ، وطوق به جبين هيباتيوس ، قائلا : ان هذا العقد خير من ألف تاج !

وجاءه أتباعه بالطيلسان وشارات الملك ، وكانوا قد سرقوها كلها من القصر يوم حرقوا جانبا منه ونهبوه . وهكذا وجد هيباتيوس نفسه محاطا بجموع من الاعوان المتحمسين ، وقد ارتدى ثياب الملك ووضع على رأسه تاجا ، وأمسك بيده

صولجانا ، فأصبح « امبراطورا » باسم الثائرين !
وتألف موكب ذهب به الى ملعب العاصمة ، وهناك حمله الناس على الاكتاف مرة أخرى ، وصعدوا به الى المقصورة الملكية ، واجلسوه فى المكان المعد لجستنيان . وراحوا يتباحثون ويتناقشون لتقرير الخطة المثلى للهجوم على القصر المقدس ، وللاستيلاء عليه واجلاس هيباتيوس على عرش جستنيان !

وعبثا حاول بعض العقلاء اقناع الجماهير بأن هذا قد يؤدى الى عواقب وخيمة ويثير حربا أهلية فى البلاد ، فقد صمم الثائرون على المضى فى خطتهم الى النهاية ، وظل هيباتيوس صامتا مستسلما لارادة الجماهير !

وازداد عدد الثائرين بمن انضم اليهم من الناقمين وسكان الضواحى والمترددين . واعلن فريق من أعضاء مجلس الشيوخ والاشراف والنبلاء والقواد انضمامهم الى حركة العصيان ، وتأييدهم للمناداة بهيباتيوس امبراطوراً على بيزنطة بدلا من جستنيان !

وراجت فى المدينة اشاعة تؤكد أن جستنيان وتيودورا غادرا القصر خلسة وفرا من العاصمة !! وجعل الشبان المنتمون لحزب الخضر يطوفون فى الشوارع معلنين هذا الخبر . واعتقدوا ان النصر قد حالفهم وأن خطتهم قد نجحت بحذافيرها ، حتى أن هيباتيوس نفسه عاودته الثقة وظن انه أصبح حقا امبراطورا على بيزنطة !

كان ذلك فى مساء يوم ١٨ يناير . وكانت الساعة رهيبة . وخيل لمن كانوا يراقبون الحالة أن الامبراطورية توشك أن تنهار .. فالمدينة تحترق ، والنيران تمتد بدل أن تنحصر أو تخمد . وفى داخل الملعب ، يحتشد الشعب واثقا من أنه احرز النصر ، وهتافاته للامبراطور الجديد هيباتيوس تدوى

فى الارجاء . بينما اقذع التهم والشتائم توجه الى جستنيان وتيودورا ! .

وهكذا صار القصر المقدس مهددا بالسقوط فى قبضة الثوار بين لحظة وأخرى . بينما الامبراطور جستنيان يائس من نفسه وممن حوله ، ولا أمل له فى القضاء على الفتنة ، اذ ليس لديه الوسائل اللازمة لانقاذ نفسه من ذلك المأزق الحرج . بل انه ليرتعد خشية على حياته ويشعر بأن ساعته الاخيرة قد دنت !

وصدرت الاوامر بأن ترسل كنوز العرش وما تحويه الخزائن من أموال وتحف ، الى المراكب الراسية أمام القصر . فقد اعتزم جستنيان أن يغادر العاصمة ويهرب الى الخارج بأمواله ، ومعه زوجته ومن يرغب من رجال الحاشية فى اللحاق به !

وعقد جستنيان مجلسا خاصا دعا اليه الاشخاص الذين لا يشك فى ولائهم له وفى مقدمتهم : بليزيروس ، وموندوس، وبازيليدس وحضرت الامبراطورة تيودورا هذا الاجتماع بعد أن قضت أياما معتكفة فى جناحها الخاص مستغرقة فى التفكير . والواقع أنها هى وحدها التى ظلت محتفظةبهدوئها ورباطة جأشها وثقتها بنفسها ، بينما كان زوجها الامبراطور قد استسلم لليأس ، وفقد كل أمل فى الخلاص ، ولم يعد يفكر الا فى الهرب ، وكان وزراؤه وقواده يشاركونه هذا الشعور !

▱

لقد خارت عزائم كل من فى القصر الامبراطورى المقدس ، ما عدا عزيمة تيودورا ! !

لم تكن قد تكلمت بعد ، لا قبل انعقاد المجلس ، ولا فى خلاله ، ولا فى أثناء الحوادث الدامية التى ظلت العاصمة

بضعة أيام مسرحا لها .. وبقيت تصغى لكل ما يقوله المجتمعون وهم يتجادلون ويتباحثون . ثم رفعت يدها فسكتوا جميعا . ونهضت الامبراطورة من مكانها ووقفت فى وسط أولئك الرجال ، وصاحت بهم قائلة :

ـ مالى أراكم مستضعفين متخاذلين ، ترتجفون خوفا . وتستطمون استسلام اليائسين الخانعين ؟ ! . مالى أراكم تنسون واجباتكم أو تخونونها ، أو تتخلون عنها ؟.. مالى اراكم تعترفون بالهزيمة ، والهزيمة لم تحل بكم بعد ؟.. هل قاومتم ففشلتم ؟.. هل قاتلتم فانكسرتم ؟ .. هل لجأتم الى جميع مافى متناول أيديكم من وسائل فأفلت منكم الزمام انكم تفكرون من الآن فى الفرار بينما توجد أبواب أخرى مازالت مفتوحة أمامكم !.. والله لو لم يعد أمامى منفذ آخر الىالنجاة غير الهرب ، لرفضت ولوج هذا المنفذ ، حتى لا أدير ظهرى للاعداء !.. كلا ! ان تيودورا لن تهرب !. ان الذين يضعون التاج على رءوسهم ، يجب ان يظلوا احياء اذا فقدوا ذلك التاج ، أيا كانت الاسباب التى من أجلها فقدوه .. اذا سقط التاج عن راس ملك ، فعلى الملك أن يموت مع تاجه .. فاذا كان ملكا صالحا ، وجب عليه الدفاع عن تاجه أو الموت دونه !.. واذا كان ملكا طالحا ، وجب عليه أن يخلط عاره بعار تاجه ويفقد الحياة مع فقده .! وتيودورا لن ترى اليوم الذى يمتنع فيه الناس عن مناداتها بلقب صاحبة الجلالة !

ثم التفتت الى زوجها الذى وقف مشدوها ، وقالت له :

ـ أما أنت يا امبراطور بيزنطة ، فاذهب ، ان كنت عازما على الفرار ، ولديك ما يكفى من المال ، وامامك السفن تنتظرك لتقلع بك الى حيث تريد ، والبحر مفتوح فى وجهك وفى طريقك .. اذهب ان شئت ، أما أنا فباقية !.. نعم باقية ، للدفاع عن تاج شرفنى فشرفته ، وراق لى فرقت له ، ولم

ارتكب ذنبا أستحق من أجله ان أطرد عن العرش ، لانني حافظت على كرامته وسمعته ، ولم الطخه بعار !.. نعم انني باقية ، لانني أومن بقول من قالوا : ان طيلسان الملك أبدع الاكفان على الاطلاق !

هذا ما قالته تيودورا للامبراطور اليائس ولرجاله اليائسين . قد انقذت الامبراطورة عرش زوجها بهذه العبارات الجريئة وذلك الموقف الرائع !

ان تيودورا ، المرأة ذات الماضى الملطخ ، والممثلة المتوجة ، قد ارتفعت فى ذلك اليوم العصيب ، وفى غمرة ذلك الصراع العنيف فى سبيل التاج والحياة ، الى مصاف الابطال الخالدين !

كانت المرأة فى ثورة نيكاس أعظم من الرجال !

فما كادت الامبراطورة تتفوه بتلك الكلمات الجارحة ، حتى شعر زوجها ورجال حاشيته وقواده بالخجل يعلو جباههم ، وبالامل يدب من جديد فى نفوسهم . ونهضوا لساعتهم ، ورفعوا أيديهم ، واقسموا أن يناضلوا حتى النهاية ، فأما أن يحرزوا النصر واما ان يموتوا فى الميدان !

وقال جستنيان لزوجته

ـ سأبقى بجانبك .. ولن أهرب . وسوف نحتفظ بالتاج لاننا كما تقولين لم ندنسه بعار !

ووضع الامبراطور وزوجته واعوانهم خطة العمل . بل انهم وافقوا على الخطة التى كانت تيودورا نفسها قد وضعتها، وجاءت تعرضها عليهم فى ذلك الاجتماع الحاسم . وانصرف كل منهم للقيام بنصيبه من التنفيذ !

عهدت تيودورا الى صديقها الامين « نرسيس » ان يحمل فئة الزرق على الانفصال عن فئة الخضر . فيذكرهم بماضيهم وبالخدمات والنعم التى اغدقتها عليهم الامبراطورة . وزودته بمبالغ طائلة من المال لكى يشترى اقتناع المترددين

ويدفع لهم ثمن تأييدهم !
وانطلق نرسيس ومعه جماعة من الانصار الاوفياء ، ينفذ ما أمرته به المرأة الداهيــة . فنجح الى أبعد مما كان يرجو ويتصور . ومنذ اليوم الاول ، تمكن من القاء بذور الخلاف بين الزرق والخضر ، فتفككت صفوفهم وانحلت وحدتهم . وفى مساء اليوم الذى عقد فيه مجلس الامبراطور ، سمعت هتافات أمام القصر منبعثة من آلاف الحناجر :
ــ عاش جستنيان !. عاشت تيودورا صديقةالضعفاء !. الله يرعى جستنيان وتيودورا !. الحياة والسـعادة لحامية المظلومين !
وفى الوقت الذى اخذ فيه هذا التحول يتسـع نطاقه ، كان بليزيروس وموندوس يحشدان قوات كافيــة لضرب الحصار على الملعب واقتحامه . وكان الشعب لا يزال محتشدا فيه، يهتف لهيباتيوس الجالس فى مقصورة الامبراطورة ، وعلى رأسه العقد المذهب ، وعلى كتفيه الطيلسان الارجوانى !
وفى اليوم التالى ، أمر بليزيروس وموندوس جنــودهما بالهجوم . وتحطمت الابواب وزالت العراقيل ولكن الجنود الموالين للثائرين ، والذين كانوا معتصمين فى معاقــلهم داخل الملعب ، ردوا المهاجمين على أعقابهم ورفضــوا التخلى عن الامبراطور الجديد . فاضطر بليزيروس ورفيقه الى التقهقر عائدين الى القصر المقــــدس ، وقالا : أنهما لن يقــويا على احتلال الملعب وأن القضية التى يدافعون عنها قضية خاسرة!
وفى هذه المرة ، تقدم جســـتنيان نفسه لاعادة الثقة الى نفوس رجاله ، وتشجيعهم على استئناف الكرة . .وانضمت اليه تيودورا قائلة :
ــ ان أصــدقاءنا الزرق قد ارسلوا يؤكدون لنــا انهم على استعداد لتمهيد الطريق للجيش ، وفتح ثغرة ينفذ منها الى حلبة الملعب الوسطى !

وعاود بليزيروس الكرة بنخبة مختارة من جنوده الاشداء، ونجح الهجوم في هذه المرة ، وتم للقائد دخول الملعب واحتلال حلبته ، بعد أن فتك بعدد كبير من المتمردين الذين دافعوا عن المنافذ دفاع اليائس المستميت !

ولما بلغ موندوس ما حدث ، وثب برجاله البرابرة وانضم الى زميله ، بعد أن اقتحم الملعب من باب يعرف بباب الموت . وانقسم الجنود الى فريقين : فريق ظل يعمل السيف فى الثائرين فى حلبةالسباق ، وفريق صعد الى المدارج والمقاصير، وراح يمطر الخضر وابلا من السهام والنبال والحجارة ، بينما كان الزرق من ناحيتهم يسهلون للجنود مهمتهم ، او ينضمون اليهم علنا لمهاجمة الخضر الذين كانوا حلفاءهم بالامس !

وتحولت ساحة الملعب الى ميدان لمجزرة هائلة . واستولى الذعر على الشعب فراح الباقون على قيد الحياة يطلبون النجاة . ولكن الجنود كانوا ينفذون الاوامر الصادرة اليهم بألا يدعوا أحدا يخرج من الملعب حيا . واذا خرج ، فان الزرق كانوا يتلقفونه فى الشارع ويقضون عليه !

وفى مساء ذلك اليوم ، غطت أرض الملعب وشوارع المدينة ثلاثون ألف جثة ! وكان معظم القتلى من الخضر . أما الزرق فلم يقتل منهم غير القليل . وذلك لان الجنود كانوا يتجنبون الفتك بهم ، ولان فريقا كبيرا منهم كان قد انفض عن الحركة وانقلب على الخضر فبقى هؤلاء وحدهم فى الميدان!

وهكذا فشلت ثورة نيكاس ، لان الثوار لم يحافظوا على وحدتهم ، ولان تيودورا عرفت كيف تستغل عطف الشعب عليها ، وتعلق الزرق بها ، واعتقاد الضعفاء ، والفقراء أنها صديقتهم وحاميتهم !

وقبض أنصار جستنيان على هيباتيوس ، من غير أن يحاول الذين توجوه والبسوه الطيلسان أن يحموه أو

بنقذوه ، وجيء به الى جستنيان مع رفيقه بومبيوس ، وكان هذا رجلا ضعيف الارادة جبانا رعديدا . فجعل يبكي ويتوسل طالبا الصفح والمغفرة مؤكدا انه زج به كارها في تلك النكبة . اما هيباتيوس ، فكان رابط الجأش ولكنه جعل يقسم ، مثل رفيقه ، بأن الشعب دفعه دفعا الى مسايرة الحركة الثورية ، والبسه التاج والطيلسان بغير رضاه . وأكد أنه دعا أنصاره الى القاء سلاحهم ، في حلبة الملعب ، لكي يسيطر الجنود على الحالة ويعود الامن الى نصابه وتعود الحقوق الى أصحابها . واقسم انه عهد الى واحد من أصدقائه بالذهاب الى جستنيان ، ودعوته الى الملعب ليسمعه بنفسه وهو يعلن ولاءه لعرشه ودعوة المتمردين الى الاستسلام !

وكان هذا صحيحا . فقد فعل هيباتيوس ذلك في اثناء معركة الملعب . ولكن رسوله لم يتمكن من الوصول الى الامبراطور لابلاغه الرسالة . ولهذا ، فان جستنيان ، وقد استعاد رشده وأحس بأنه ملك زمام الامر من جديد . التفت الى هيباتيوس وقال بلهجة المستهجن المستنكر :

ـ هذا جميل !.. ولكن ما دامت لك هذه السلطة على الثائرين ، وما دمت قادرا على دعوتهم لالقاء السلاح ، فلماذا لم تستخدم هذا النفوذ قبل أن تستفحل الحالة ، وقبل أن يحرق المشاغبون عاصمة ملكي ؟

وفي اليوم التالي ، أمر جستنيان بأن يعدم هيباتيوس وبومبيوس . فنفذ أمره . والقيت جثتاهما في مياه البوسفور !

وقيل في هذا : أن جستنيان كان يميل الى العفو والصفح ، بعد ان أكد له ابنا أخيه أنهما لم يتعمدا العصيان ولم ينضما الى الثورة بملء ارادتهما . ولكن تيودورا تدخلت في الامر ، وهي التي الحت على زوجها بوجوب التخلص من الرجلين ،

واعدامهما علناً ، لكى يأمن الامبراطور شرهما فى المستقبل !

وهذا هو الاقرب الى التصديق . فان تيودورا كانت قد اقسمت ، يوم وضعت خطتها موضع التنفيذ إلا ترحم الزعماء الذين أثاروا هذه الحركة واضرموا النار فى المدينة . ولهذا أطاعها الامبراطور وامر باعدام ابنى أخيه !

ولم يكن اعدام الشابين كل ما أقدمت عليه تيودورا بعد ان أخمدت الثورة ، وتشتت القائمون بها ، وقتل منهم من قتل . فقد حوكم فريق من أعضاء مجلس الشيوخ ومن النبلاء وكبار القوم ، بتهمة الاشتراك فى الثورة او التحريض عليها أو تشجيعها ، وأعدم بعضهم ، وارسل البعض الاخر الى المنفى !

وصودرت أملاك هؤلاء جميعا وأموالهم ، واستولى عليها بيت المال أو وزعت على أسر الموظفين والجنود الذين أصيبوا فى خلال الاضطرابات . ولكنها لم تمس عامة الشعب بأذى بل عفت عنهم جميعا !

وطورد الاشخاص الذين ثبت أنهم خانوا الامانة وتخلوا عن الحكومة فى ساعة الشدة ، كالحكام والموظفين والضباط وجنود الحرس والزرق الذين تواطأوا مع الخضر فكان تحالفهم معهم سببا لاتساع نطاق الثورة !

وأشرف محافظ العاصمة على التحقيق واحالة المتهمين الى المحاكم ، وعاشت المدينة مدة من الزمن فى ظل الارهاب .

▱

وأسدل الستار على تلك الثورة ، وأعلن جستنيان فى أنحاء المملكة أنه قضى على محاولة قام بها اثنان من المطالبين بالعرش لاقصائه عنه !

غير أن الفضل اولا وآخرا ، فى ازالة الخطر وبقاء جستنيان

على عرشه ، يعود الى تيودورا .!

وثورة « نيكاس » تعد فى حيـاتها صفحة رائعة . ففي ذلك الظرف العصيب ، أثبتت الممثلة المتوجة انها سياسية بارعة ، وبطلة جريئة ، وقائدة تعرف كيف تفرض ارادتهـا وتحمل الناس على احترامها . كما أثبتت قبل ذلك أن لها مكانة سامية فى نفوس طبقات الشعب ، وأنهـا تعرف كيف تخاطبه وتعامله

وكانت تيودورا ، حتى ذلك الوقت ، تشـاطر الامبراطور سلطته باعتبـار أنه أضعف منها ارادة وشخصية ، ولكنها بعد انتصارها فى ثورة « نيكاس » استحقت أن تشـترك فى الحكم لانها أهـل له ، ولان آراءها كانت فى كل حين وآن ، أفضل من آراء الامبراطور ورجال حاشيته ووزرائه . ولو لم تكن تيودورا شريكة زوجها فى السلطة ، لما تمكن جستنيان بدوره من التغلب على ثورة نيكاس. فتيودورا أنقذت للامبراطور عرشه ، وصانت له سـلطته ، وعرفت كيف تحتفظ بحب الشعب برغم أن الثورة التى أخمدتها كانت شعبية ، اشتركت فيها الفئتان اللتان ينتمى اليهما سكان بيزنطة !

ولما جاءها الذين عفت عنهم من زعماء الحركة ، يشكرونها ويجددون الولاء لها ، قال لها المتحدث باسمهم :

ـ لقد خضعنا لك أنت ، وألقينا السـلاح لانك انت التى اردت منا أن نلقيه ! ونريد الآن أن يعود الصفاء بينك وبيننا !

وعاد النـاس الى أعمـالهم وهم يتهامسون بأن تيودورا انتقمت لنفسها من الكبار ولم تنتقم من الصغار !

حينما تحكم المرأة !

اجمع معاصرو تيودورا على القول بانها مارست السلطة التى استمدتها من زوجها الامبراطور ، بلا قيد ولا شرط ، بل أن سلطتها أحيانا كانت تعلو على سلطة جستنيان نفسه ، وقد اعترف هو بذلك فى وثيقة رسمية ، حين أصدرالمرسوم التاريخى الذى أعاد بمقتضاه تنظيم الادارة فى أنحاء المملكة، وعده المؤرخون أعظم الاعمـــال التى قام بها . ففى مقدمة ذلك المرسوم التاريخى ، صرح الامبراطور بأنه لم يصدره الا بعد ان استشار الامبراطورة المبجلة والزوجـــة الوفية التى من بها الله عليه ، فى كل ما تضمنه المرسوم من قرارات !

كان جستنيان يحب زوجته حبـــا لا حدود له . وظل هذا الحب يضطرم فى قلبه حتى بعد موتها ، وحتى ســاعته الاخيرة . فأنه لم ينس أبدا تلك الحســناء الســـاحرة التى عشقها وهى فى أوج جمالها وروعتها ، وطغت عليه بذكائهـــا الخارق وفطنتها وبعد نظرها وارادتها النـــافذة . لذلك لم يرفض لها طول حياتها اى طلب . ولم يحدث مرة واحدة ان علت كلمته على كلمتها ، او نفذ رأيا لم يكن متفقا مع رأيها ، وقد اغدق عليهـــا جميع انواع المجـــد والثروة والجـــاه وشاطرها عرشه وسلطـانه فجعلها تحكم معه ، بل جعلهـــا تحكم وحدها فى كثير من الاحيان !

وقد ظلت تيودورا على العرش احدى وعشرين ســـــنة ، وضعت يدها خلالها على كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة وفرضت كلمتها ، فكانت تفعل ما تريد ، بصرف النظر عمـــا

يريده الامبراطور او اعوان الامبراطور

نظمت شئون الادارة كما تريد ، ووضعت أعوانها ومحاسيبها وصنائعها فى الوظائف التى اختارتهم لها أو اختارتها لهم ، وتدخلت فى شئون السياسة فنظمت العلاقات بين بيزنطة والدول الاخرى كما أرادت ، وفرضت على مندوبى الدولة مارسمته بنفسها من خطط وتدابير • كما تدخلت فى شئون الكنيسة ، فكانت وراء كل عمل أقدم عليه الرؤساء الروحيون ، وكل قرار أصدرته المجامع الكهنوتية !

ولابد من الاعتراف بأن تيودورا لم تسلم من ارتكاب أخطاء كثيرة ، فهى امرأة على كل حال ، وقد كان لكبريائها وجشعها فى بعض الاحيان أثر مشئوم فى أعمال الامبراطور ، وعواقب يؤسف لها ، ألحقت بالدولة بعض الاضرار

على أنه لابد من الاعتراف أيضا بأن حسنات تيودورا كانت أكثر من سيئاتها ، وبأنها كانت ملكة عظيمة عرفت فى أكثر الظروف والاحوال كيف توجه سياسة الدولة طبقا لمقتضيات الصالح العام ولو أنها عاشت وظلت تمارس السلطة مع زوجها حتى وفاته ، لاستطاعت أن تنفذ المشروعات الرائعة التى كانت تخامر ذهنها • ، ولاصبحت الدولة البيزنطية أقوى وأصلح مما كانت ، ولتغير وجه التاريخ ومجراه !

ولكن تيودورا ماتت قبل الاوان !

ولا تزال آثار تيودورا باقية حتى الآن ، تتحدث عما كان لها من همة عالية ومكانة سامية فى تاريخ الدولة البيزنطية، أعظم الدول فى عصرها •• فهناك على جدران الكنائس التى بناها جستنيان وفوق أبواب المعاقل والحصون والقلاع التى شيدها فى أنحاء المملكة ، حفر اسم تيودورا بجانب اسمه !

وفى أماكن كثيرة يرجع عهدها الى عهد تيودورا ، حفرت آيات الشكر والثناء والتقدير ، موجهة كلها الى الامبراطورة

التى صنعت فى حياتها ما يعجز عن صنعه أعاظم الرجـــال ، واشتهرت بتقواها وورعها ، بعد أن اشـــتهرت بفســـقها وفجورها • وكان مواطنوها يلقبونها بالامبراطورة المبعوثـة من الله ولم يلقبوا أحدا غيرها بمثل هـذا اللقب المقـــدس الفريد !

واقيمت لها النصب والتماثيل فى حياتها ، ولم يحـــدث مثل ذلك لغيرها ممن جلسن على عرش بيزنطة !

وكثيرا مــا كان البيزنطيون ، بعــد موت امبــراطور او امبراطورة ، أو بعد سقوط اسرة وقيام آخــرى مكانهـــا ، يعمــدون الى محــو إســماء الراحلين وتحطيم آثارهــــم ليحلوا محلها أسماء وآثارا أخرى • وقد فعلوا هذا مع عشرات من ملوكهم وملكاتهم ، فأزالوا أسماءهم وآثارهم من الميادين والحصون والملاعب والقصور ، ولكنه لم يحدث فى أى عصر من العصور التالية لعهد تيودورا وزوجها جســـتنيان ، أن امتدت يد لمحو اسميهما او طمس معالم صورهما وتماثيلهمـــا من أى مكان !

ومما لم يحدث مثله أيضا لغير تيـــــودورا ، أن موظفى الدولة كانوا يقسمون يمين الولاء لها كما يقسمونها لزوجها • فكانوا يقولون : « نقسم بأن نكون أوفياء صادقين فى خدمة المليكين جستنيان وتيودورا ! »

وكثيرا ما أنقذت تيودورا زوجها من مواقف حرجة وأخطار داهمة • ويرجع ذلك الى أنها كانت برغم كبريائها وحبهـــا للسيطرة واذلال الكبراء تميل الى الشـــعب وتخطب وده • فهى قاسية مع الاقوياء والعظماء ، رفيقة مع الضعفاء والمساكين

وان من ينظر بعين مجردة عن الغرض الى ما حدث فى فتنة « نيكاس » ليدرك بلا عناء أن الشـــعب الذى ثار على العرش

لم يقصد تيودورا ، ولم يضمر لهـا الشر ، واذا كان بعض خصومها قد حاولوا حمل الجماهير الصاخبة على الهتـاف ضدها ، وتعييرها بماضيها ، وقذفها بالتهم ، فانهم لم ينجحوا فى ذلك الا فى نطاق ضيق جدا • وقد كان لها وحدها أكبر الفضل فى استرضاء الشعب ووضع حد لثورته !

وكثيرا ما كان نفوذ تيودورا يجاوز حدود بلادها ، فتفرض كلمتها على الدول المجاورة • فيتقبلها أهل هذه الدول راضين مغتبطين !

ولم تخن تيودورا فى حياتها صديقا ! بل كانت على عكس ذلك تعفو عن الاصدقاء الذين يتخلون عنها ثم يعودون اليهـا نادمين تائبين

وقد ضمنت الثروة والجاه لجميع الذين أخلصوا في خدمتها وكان لها فى ذلك أساليب على جانب عظيم من البراعة والدهاء وان كانت فى الوقت نفسه قد تفننت فى محاربة خصومها والقضاء عليهم :

كانت متطرفة فى حبها ، كما هى متطرفة فى حقـدها ، فاذا وثقت باخلاص انسان لها بذلت من أجله كل ما تستطيع بذله من عطف ومساعدة وحماية وتشجيع ، واذا أساء اليها انسان ، وادركت عزمـه على مناصبتها العـداء لم تتردد فى اتخاذ كل وسيلة للقضاء عليه ، مهما تكن منزلته ، او علاقتـه بالامبراطور نفسه ! وفى هذه الحالة كانت تسـعى أولا الى حمل الامبراطور على سحب ثقته من خصمها لكى يخلو لهـا الجو للانتقام منه وتفقده كل سند يمكنه الاعتماد عليه !

وليس فى هذا الجانب من خلقها وطبعها مـا يبعث على الدهشة ، فهى كما قلنا امرأة قبل كل شىء !

وكانت بدافع من كبريائها تحرص على أن تكون دائمـا صاحبة الفضل فى ارتقاء كبار الموظفين وارتفاع منزلتهم ، فاذا وصل أحد منهم الى شىء من ذلك بغير علمها أو مساعدتها

سلكته في عداد خصومها ، وراحت تعمل جاهدة لوضع العقبات في طريقه ، ولا يهدأ بالها حتى تقيله من منصبه أو تنقله الى مكان بعيد وتقصيه عن دوائر الحكم لكي يدرك ويلمس أن لا سبيل الى الاطمئنان على مركز او على منصب في بيزنطة ، خارج نطاق نفوذها ، وأن تيودورا هي كل شيء في الدولة !

وكان أصدقاؤها ـ وما أكثرهم ! ـ يسمونها «الامبراطورة الوفية » لان وفاءها لهم كان مثل عدائها لخصومها ، لا يعرف حدا يقف عنده . وما كانت تطلب منهم في مقابل ذلك الا أن يخدموها باخلاص ويقابلوا وفاءها بوفاء مثله ، وينفذوا رغباتها وأوامرها من غير أن يناقشوها أو يترددوا في التنفيذ !

. ولهذا ، كان جميع البيزنطيين يتوجهون اليها برغباتهم ومطالبهم ، لعلمهم بأن الامبراطور قد يعجز عن ارضائهم اذا أراد ذلك ، اما هي فلن تعجز عن صنع ما تريد !

وقد رأينا كيف رفعت برسيماس الى قمة المجد ، وكيف قربت اليها « نرسيس » الخصي الذي كان خادما صغيرا في القصر ، جيء به من حيث لا يدري أحد ، فاختارته اول الامر خادما خاصا لها ، ورفعته بذلك درجات فوق المئات من زملائه وأقرانه . وكان ذكيا متأنقا حلو الحديث ، كما كان نشطا قوي البنية ، فلم تمض مدة قصيرة حتى كان موضع ثقتها التامة ، واخذت تطلعه على أسرارها وتستخدمه في قضاء مآربها السياسية ، وتعهد اليه في تنفيذ الخطط التي ترسمها في سكون مخدعها للنيل من عدو أو لاكتشاف مؤامرة !

وكان نرسيس عند حسن الظن به . فقدأخلص للامبراطورة آخلاصا لاحد له . ونجح في جميع ما كلفته القيام به الى أبعد ما كانت ترجو ، فأصبح في نظرها نابغة من نوابغ عصره ،

ورفعته الى مصاف القادة ووضعته على رأس قوة من الجيش فصار منافسا ومزاحما لبليزيروس ، أشهر قواد ذلك العهد على الاطلاق !

وقد أصابت تيودورا فى اختيار بعض صنائعها وأخطأت فى اختيار البعض الآخر ، ومن بين الذين رفعتهم وحمتهم أشخاص ليسوا أهلا لرفعة وحماية ، كذلك الحاكم الذى وضعته على رأس الادارة فى مدينة الاسكندرية ، واسمه « سرجيوس » لا لسبب الا لانه تزوج امرأة كانت انطونينا تحبها وتعطف عليها !

وقد كتب أحد الاساقفة المصريين فى الاسكندرية عن سرجيوس ، يقول :

« ان حاكمنا يمتاز بصفات خفية لا تعرفها ولا تدركها عقولنا الضعيفة ، ويظهر أن هذا النوع من الصفات الحسنة لا يتوافر الا فى نوع من الرجال ، أى فى أولئك الذين يوفقون فى زواجهم • فالامبراطورة تيودورا اختارت لنا حاكما عرف كيف يختار زوجته ! »

وقد حكمت الاسكندرية فى عهد سرجيوس امرأة هى زوجته ، وكانت هذه الزوجة تتلقى الوحى من أنطونينا وصيفة تيودورا • !

والاخطاء التى ارتكبها سرجيوس فى ادارة شئون الاسكندرية لا تعد ولا تحصى • وقد أوشك فى مدة اقامته بالعاصمة المصرية أن يقضى على سمعة حكومة بيزنطة وسمعة الامبراطورة ، ولولا أن جستنيان سارع بنقله لحدثت فتنة فى مصر شبيهة بفتنة نيكاس فى بيزنطة !

غير أن مسألة سرجيوس هذه لم تكن من المسائل المألوفة فى عهد جستنيان وتيودورا • وأكثر الذين عينتهم الامبراطورة

فى مناصب عالية كانوا فى الواقع أهلا لثقتها !

ومن أغرب ما حدث أنها فكرت يوما فى تعيين النساء فى بعض المناصب الرفيعة والوظائف الادارية . وأوشكت أن توفد أنطونينا الى بيريت ـ وهى مدينة بيروت الحالية ـ للاشراف على اعادة تنظيم شئون المدينة ، وذلك على أثر فتنة وقعت فيها !

ولكن جستنيان لم يوافقها على ذلك ـ برغم انه عود زوجته ألا يعارضها فى شيء ـ لانه رأى فى تعيين النساء فى الوظائف والمناصب ابتكارا لم يحن الوقت بعد للاقدام عليه . ومما قاله لزوجته فى هذا الشأن :

ـ لنفرض يا عزيزتى أن الحاكمة التى تريدين تعيينها باسم بيزنطة اضطرت الى ملازمة الفراش لانها حامل او لانها وضعت مولودا جديدا ، فماذا يحدث فى مثل هذه الحالة ؟ . وبأية عين ينظر سكان بيريت الى منصب الحاكم البيزنطى الذى تشغله وهى على هذه الحال ؟!

وعدلت تيودورا عن فكرتها . ولكنها فى الوقت نفسه كانت ـ وهى امرأة أيضا ـ تحكم الامبراطورية كلها بالنيابة عن زوجها الامبراطور ، ولم يرتفع أى صوت باستنكار ذلك وقد حملت وولدت ولزمت الفراش ولم يجد هو ـ ولا غيره ـ فى ذلك ما يدعو الى الدهشة !

وما أردنا أن نسجله هنا هو أن تيودورا كانت أول امرأة حكمت امبراطورية ، وفكرت فى إعطاء بنات جنسها حق ممارسة الحكم بمقتضى قانون صريح

▱

وفى المضمار الدينى ، وكل ما يتعلق بالكنيسة ، كان نفوذ تيودورا يشمل جميع النواحى بلا استثناء

وهنا أيضا عمدت الامبراطورة الى رفع أصدقائها الى أعلى

المناصب ، وعينت صنائعها فى معظم الوظائف الهامة · وقد امتد نفوذها الى خارج حدود الامبراطورية الرومية ، بل شمل روما أيضا ، ومقر البابا فى الغرب ! اذ عينت الاسقف « انتيموس » بطريركا على القسطنطينية ، ونجحت فى تعيين « فيجيليوس » فى منصب بابا روما ورئيس الكنيسة ، وأجلست على كرسى بطريركية أنطاكية صديقها الاسقف « سفيروس » وعلى كرسى بطريركية الاسكندرية المصرية صديقا آخر هو « تيودوسيوس » ·· وهكذا تمت لها السيطرة المطلقة على شئون الكنيسة والدين ، أى أنها كانت تراقب سير الادارة ، وسن القوانين ، وتكييف الاتجاهات فى المشاحنات المذهبية التى كان العالم المسيحى ميدانا لها فى ذلك الحين !

ومن ناحية أخرى ، كانت تيودورا فى الوقت نفسه تضرب بلاشفقة ، ولا هوادة جميع الاشخاص الذين يتمردون عليها أو يحاولون الافلات من نير نفوذها · ومن هؤلاء القائد العظيم « بليزيروس » وزميله « بوتزين » · فقد حلت بهما نقمة تيودورا لانهما لم يخضعا لها خضوعا أعمى ·· ومثلهما الوزير « كابادوكى » لانه نازعها السلطة فى بعض الظروف الحرجة ، والبابا « سيلفيروس » لانه رفض أن يجعل الكنيسة آلة فى يدها !

وفى موقفها مع هؤلاء وغيرهم ممن نزعت منهم ثقتها ، لم تتردد تيودورا فى الالتجاء الى أبشع الوسائل للانتقام · فقد أرادت أن يكون انتقامها من خصومها درسا للجميع ، وأن يعرف كل كبير وصغير أن أوامر الامبراطورة يجب أن تنفذ وأن سلطانها يجب أن يظل فوق كل سلطان ، وأن من يعاكسها مصيره الهلاك !

وفهم الجميع هذا ، وأدركوا أنه من الحكمة والخير لهم أن يسايروا تيودورا على طول الخط ، حتى أن كان فى ذلك

مايتعارض مع أوامر الامبراطور ، فقد دلت التجارب العديدة على أن رغبتها لابد من أن تنفذ فى النهاية ، وعلى أنها لن ترحم من يخالف رأيها .. فى حـــين أن الامبراطور كان دائمـــا يتساهل ويتغاضى ويعفو عن كثير ! . بل أن تيودورا كانت أحيانا تعاكس علنا رغبات الامبراطور . حدث مرة أن أحـد أعوانهـا المقـربين وهو « جوليـانوس » أحد أسـاقفة الاسكندرية المصريين ، أبدى رغبتـه فى أن يذهب الى بلاد النوبة للتبشير بالدين المسيحى ، فشجعته تيودورا على القيام برحلته هذه ووعدته بالمساعدة والتأييد . ولكن جسـتنيان أراد أن يعهد بهذه المهمة الى أساقفة آخرين غير جوليانوس ، واختار من بين أصدقائه وفدا للذهاب الى ملك النوبة حاملا اليه المال والهدايا ، وبعث الى حاكم مصر العليا لكى يستعد لاستقبال الوفد وتوفير أسباب الراحة له ، وتسهيل سـفره ومهمتـه

فماذا صنعت تيودورا ؟

أرسلت الى الحاكم نفسه خطابا قصيرا جافا حازما ، جاء فيه ما يلى :

« أريد أن يصل رسولى الاسقف جوليانوس الى بلاد النوبة قبل رسل الامبراطور . واذا لم تتخذ التدابير اللازمة لـكى تبقى رسل الامبراطور فى مصر ، بحيث يسبقهم جوليانوس فان حياتك ستكون فى خطر ! »

ووقع الحاكم المسكين فى حيرة بين تعليمات الامبراطـور وتعليمات الامبراطورة ، ثم لم يسعه الا اتخاذ الموقف الذى لا خطر فيه على حياته ، فنفذ تعليمات تيودورا ، وسـافر رسولها فورا ومعه حاشية كبيرة مجتازا حدود مصر الى بلاد النوبة . ولما وصل رسل الامبراطور بعد ذلك الى مصر ، أطال اقامتهم بها الى أقصى حد ممكن ، بحجة ان البلاد ليس بهـا ركائب كافية لنقلهم الى النوبة ، بعد أن صادر وفد تيودورا

تلك الركائب كلها وأخذوها معهم الى هناك !

وهكذا تأخر سفر وفد الامبراطور بضعة أسابيع ، ولما تيسر له السفر ووصل الى النوبة ، كان جوليانوس ورفاقه قد أدوا رسالتهم ولم يتركوا لرسل الامبراطور مجالا لاى نشاط ، فعادوا إلى بيزنطة خائبين !

ولا شك في أن تيودورا كافأت الحاكم على تنفيذ أوامرها دون أوامر الامبراطور . وعلى كل حال ، فان جستنيان لم يعاقبه ولم يحاسبه على موقفه وتحيزه للامبراطورة ! ولكنه عاتب زوجته ، فطوقت عنقه بذراعيها وقالت له في دلال :

ـ اذا كنت قد عاكست أوامرك بأوامر مضادة لها ، فذلك لان مصلحة الدولة والعرش تقضى بأن تنفذ أوامرى لا أوامرك !

وقبل الامبراطور من زوجته هذا التعليل العجيب ، وخارت قواه ـ وما اكثر ما كانت تخور ! ـ أمام تلك المرأة التيملكت عليه قلبه وقياده ، والتي قال عنها : « ان نظرة من عينيها ، وقبلة من فمها ، تنسيانني السلطة والعرش وكل شيء في الوجود ! »

وكان لتيودورا آراء ونظريات خاصة في الشئون السياسية والدبلوماسية ، والادارية على السواء . ولا شك في أنهاكانت الموحية بكثير مما تضمنته مجموعة القوانين واللوائح والانظمة التي عرفت باسم « قوانين جستنيان » . وفي هذه القوانين مواد ونصوص تتعلق بالمرأة وتحسين حالها والنهوض بمستواها . وفيها أيضا لوائح خاصة بتنظيم الشئون الادارية وهي جديرة بأن تقارن بأحسن وأفضل اللوائح التي من هذا النوع في أرقى بلدان العالم الآن !

وكانت تيودورا ترى بنظرها الثاقب أن كيان الامبراطورية وهيكل الدولة مهددان بمشكلتين رئيسيتين هما : الازمة المالية ، والازمة الدينية . وبرغم حاجتها الملحة الى المال ،

فقد كانت تشعر هي وجستنيان ، بأنه ليس من الحكمة في شيء أن يرهقا الرعية بالضرائب وغيرها لملء الخزانة ، لان في ذلك ما يزيد الامتعاض ويبذر بذور التمرد والعصيان!

ومن أجل ذلك أوحت تيودورا الى زوجها الامبراطور باصدار المرسوم المعروف بمرسوم ٥٣٥ ، نسبة الى السنة التى صدر فيها ، وهو الذى حدد فيه جستنيان واجبات الموظفين فى دوائر الدولة ، وحتم عليهم أن يتوخوا العدالة والانصاف فى معاملة الناس ، وان يكونوا للرعايا اخوة وآباء • ولهذا أيضا استنكرت تيودورا أعمال الوزير كابادوكى وناصبته العداء ، لانه كان قاسيا جافا فاسد الضمير !

ولم يكن اهتمامها بالشئون الدينية يقل عن اهتمامها بالشئون الادارية • ولكنها لم تكن على وفاق مع زوجها فى هذا الشأن ، لان آراءها كانت تختلف عن آرائه ، وخطتها غير خطته !

كان جستنيان شديد الاعجاب بعظمة الامبراطورية الرومانية وما تركته روما فى التاريخ من آثار ، وكان يحلم باعادة تلك العظمة الى ما كانت عليه ، ويفكر فى توحيد الامبراطوريتين الغربيةوالشرقية ، وجعل بيزنطةعاصمةلذلك الملك الهائل ، وحمل الكنيسة الشرقية ـ ومركزها بيزنطة ـ والكنيسة الغربية ـ ومركزها روما ـ على نبذ الخلافات المذهبية ، بحيث لا يبقى فى العالم غير كنيسة واحدة فى امبراطورية واحدة فيكون هو الامبراطور ، ويكون رئيس الكنيسة ـ البابا ـ فى روما ، خاضعا له حائزا على حمايته !

أما تيودورا ، فكانت ترى رأيا آخر !

كان زوجها ينظر الى الغرب وكانت هى تنظر الى الشرق !

•• كان جستنيان يحلم بالتوسع وبسط السلطان من ناحية

أوربا ، وكانت هى تحلم بالتوسع وبسط السلطان من ناحية آسيا وافريقا !

كان جستنيان يمني النفس باعادة الامبراطورية « الرومانية الغربية » بينما كانت تيودورا تمنى النفس بتدعيم الامبراطورية « الرومية الشرقية »

وكانت مصر وسوريا والولايات الاسيوية التابعة لبيزنطة هي الدرر التى ترغب تيودورا فى الاحتفاظ بها ، لانها تشعر بأن فيها كوامن الحياة والقوة لامبراطورية فتية تضرب صفحا عن الماضى وتسير فى طريق جديد !

وفي عبارة موجزة ، كان جستنيان يريد إحياء الماضى ، وكانت تيودورا تريد تشييد مستقبل على أنقاض ذلك الماضى !

وحينما كانت تيودورا تخلو الى نفسها ، وتنصرف الى البحث والدرس ، كانت تدرك بفطنتها وذكائها أن الخلافات الدينية لا يمكن ازالتها بين الشرق والغرب ، وأن الاساقفة والرؤساء الروحيين فى البلدان الشرقية يختلفون فى تفكيرهم عن زملائهم في الغرب .. وكانت تدرك ايضا أن الروح الوطنية والنزعة القومية لهما أثر بعيد فى تكييف العلاقات بين الشعوب الشرقية المسيحية ومركز الرياسة الدينية فى روما !

وقد أدركت تيودورا أن أساقفة الشرق يبغون الانفصال عن روما ، ورأت هى فى ذلك الانفصال تدعيما للامبراطورية الرومية ، فقررت أن تضحى بروما من أجل الكنيسة الشرقية أما زوجها جستنيان فكان على نقيض ذلك يؤثر التضحية بالكنيسة الشرقية من أجل روما !

ويتضح لنا الآن أن تيودورا كانت أبعد نظرا وأعمق تفكيرا وأصدق فراسة من زوجها الامبراطور !

وقد ظلت طول حياتها منصرفة الى معالجة الخلافات الدينية

وعاملة فى سبيل حلها بطريقة ترضى اصدقاءها اساقفة الكنيسة الشرقية . وظلت فى الوقت نفسه تضع نصب عينيها المسائل السياسية لان السياسة والدين فى نظرها مرتبطان ، ولانها كانت ترى أن الصراع بين المذاهب الشرقية والغربية ليس الا صراعا سياسيا بين الشرق والغرب ، أكثر مما هو صراع دينى !

وكان زوجها خياليا فى تكهناته وآماله وأحلامه . أما هى فكانت واقعية عملية . وقد رأت لذلك أنه خير لها وللامبراطور أن يؤيدا الاساقفة الانفصاليين الذين كانت روما تنظر اليهم بوصفهم هراطقة خارجين على مبادىء الايمان المسيحى الصحيح وتلك المشاحنات الدينية هى التى انتهت فيما بعد بالانفصال التام بين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الغربية ، وبين الكنيسة الاورثوذكسية الشرقية . ولا تزال الكنيستان الى الآن منفصلتين . ولسنا هنا فى مجال الخوض فى بحث دينى لتبيان الفوارق بين المذهبين

وفى عهد تيودورا ، كان الاساقفة فى الشرق لا يزالون منقسمين الى حزبين ، ولم تكن الكنيسة الاورثوذكسية قد كونت نفسها بعد تكوينا تاما كاملا

وانتهى الامر بأن نجحت الامبراطورة فى اقناع زوجها بأن يقف معها جنبا الى جنب فى تأييد الاساقفة المنشقين ، ثم اندفعت فى تأييدها لهؤلاء الاساقفة ولم يتطرق اليها الوهن حتى آخر لحظة من حياتها . وتجلت فى هذا العراك مواهبها السياسية كما تجلت أيضا قدرتها كامرأة ذات عواطف عنيفة ملتهبة !

كانت جريئة الى أبعد حدود الجرأة ، فقد اعتقلت البابا وخلعته عن عرشه وعينت بدله فى مكانه . وشملت بحمايتها الاساقفة المنشقين على روما . ووفرت لهم الوسائل اللازمة لانشاء كنيسة مستقلة وتنظيمها والتبشير بها . وفرضت

سياستها فرضا على عظماء المملكة ، كما فرضتها على الامبراطور نفســـه !

وكانت على جانب عظيم من اللبـاقة فى رعـاية مصـالح الاسرة المالكة ، والقيام بدورها كشريكة للامبراطور فى تحمل أعباء الملك وصيانة العرش · فكانت تستقبل السفراء مثـل زوجها ، وكان السفراء يعرفون مقامها ونفوذها فيتقـربون اليها ويخطبون ودها !

وتوثقت العلاقات من بعيد بينها وبين الاباطرة والملوك ، فكانت تراسلهم . وكانوا من ناحيتهم يبالغون فى توجيـه آيات الثناء اليها ، لعلمهم بأنها دائمة التلهف الى سماعهـا، وهكذا وصلت تيودورا شيئا فشيئا الى ايجاد شـبكة من الاتصالات السرية مع كثيرين من ملوك الغـرب والشرق ، وجرت بينها وبينهم مخابرات ومساومات سياسية بغير علم الامبراطور !

وكان جميع الرسل الذين يوفدهم جستنيان الى الخارج ، لمقابلة الملوك أو لعقد معاهدات أو لحمل هدايا ، من صنائع تيودورا · فهى التى كانت تختارهم وتقدمهم لزوجها !

وجه جستنيان مرة انذارا الى « تيودات » ملك القوط فى ايطاليا ، فحمل الانذار اليه القائد « بطرس » الذى اختـارته تيودورا · وبعد أن سلم الرسول الانـذار ، طلب من الملك القوطى أن يبعث بالرد الى جستنيان بواسطة تيودورا

وظنت الامبراطـورة مرة أن ابنة الملك « تيـودوريك » الحسناء الفاتنة « أمالاسونتا » تميل الى زوجها جسـتنيان وتخطب وده من بعيد ، وخشيت أن يتحول ذلك الميـل الى علاقة غرامية بين الاميرة الجميلة والزوج الخاضـع لارادة زوجته ، فسعت للايقاع بها ! ··· ويقال انها ارسلت من يدس لها السم فى الطعام · ولا يستبعد أن يكون هذا صحيحا فان تيودورا كانت لا تتردد أمام وسيلة للتخلص ممن تكرههم

أو تخشياهم او توجس شرا من مزاحمتهم !

ولما ماتت امالاسونتا وبلغ تيودورا خبر موتهـا ، قـالت لوصيفاتها الجالسات حولها : « خير لها أن تموت اليوم من أن تقتل غدا ! »

وكتب مرة وزير كسرى الى وزير القصر فى بيزنطة يعرض عليه اتفاقا بين الدولتين حول مسألة مختلف عليها ، وعلمت تيودورا بخبر هذه المراسلة ، فـكتبت مباشرة الى الوزير الفارسى تقول : « أعلم أيها الوزير أن زوجى الامبراطـور لا يقرر شيئا بغير علمى ولا يقطع خيطا بدون استشارتى ! »

ولابد من الاشارة هنا الى أن سيطرة تيودورا على زوجهـا الى هذا الحد لم تكن دائما مدعاة للارتياح ومجلبة للخير • فقد وقعت فى أخطاء يغلب على الظن أن الامبراطـور ما كان ليقع فيها لو أن الامر كله كان فى يده • وكان ملوك الدول المجاورة يسخرون من وقت لآخر من تلك الامبراطورية المترامية الاطراف التى تحكمها امرأة !

وفى الحق أن تيودورا كانت بارعة ماهرة ، ولكنها قبـل ذلك وبعده كانت امرأة ، فيها ما فى معظم النساء من ضعف وعيب • ولهذا فان إندفاعها فى بعض الظروف والمناسبات ، وتطرفها ، وحقدها ، وتغليب العاطفة على العقـل ، كل ذلك أحدث للاسرة المالكة وللعرش فى بيزنطة هزات عنيفة !

ومن عيوب تيودورا أنها كانت شديدة الوفاء لاهلها وأفراد أسرتها • وكثيرا ما أضرت بالمصلحة العامة لارضاء مصلحتهم الخاصة • وهذا ما نسميه الآن « المحسوبية » وهو استغلال السلطة والنفوذ لخدمة الآل والاقرباء على حسـاب الدولة والامة • وتيودورا لم تسلم من هذا العيب !

ولكن ، من هى أسرة تيودورا وما هو مصير أفرادها ؟

ان اختها كوميتو ، التى كانت تحبها حبـا جمـا ، والتى

بقيت بالقرب منها دائما ، تزوجت القائد « سيتاس » • وهو من صنائع الامبراطور وأصدقائه الاوفياء • وتيودورا هى التى مهدت السبيل لهذا الزواج • وقد جمع سيتاس وزوجته ثروة طائلة ، مستغلين فى ذلك نفوذ تيودورا وسلطتها !

وأرادت الامبراطورة أن تضمن مستقبل حفيدها فبحثت له عن زوجة فى داخل القصر ، ووقع اختيارها على ابنة القائد بليزيروس ، وهى وحيدته ووريثته • وقد رأت الامبراطورة فى هذا الزواج وسيلة لاستيلاء حفيدها على ثروة بيزيروس الهائلة بعد موته • ولكن الزواج لم يتم لان القائد لم يوافق عليه • فحقدت تيودورا على الفتاة وعلى ابيها • أما حفيدها ، فقد ساعدته بنفوذها فأصبح فيما بعد من رجال الحاشية ومن أغنى أغنياء بيزنطة !

وعنيت بابنة أختها ، الفتاة « صوفيا » الجميلة • فاختارت لها زوجا من الاسرة المالكة • ولم يكن ذلك الزوج غير « جستين » ابن اخى الامبراطور جستنيان وولى عهده • أى أن تيودورا دبرت الامور بحيث تصبح ابنة اختها فى المستقبل امبراطورة على بيزنطة ، وتحتل مكانها على العرش !

وجاءت بخالها « تيودورس » شقيق أمها وحارس الدببة فى الملعب ، وعينته عضوا فى مجلس الشيوخ ، ثم أنعمت عليه بلقب نبيل ، واختارته رئيسا للمجلس !

وقد عهدت الى هذا الرجل قيادة فريق الجيش ، فى الحرب ضد الفرس ، وظل يعد من أقرب المستشارين الى الامبراطور الى أن زهد فى الدنيا ، ودخل دير « كورا » حيث ترهب وانصرف الى العبادة !

هؤلاء هم أقرب أهل تيودورا اليها • أما بقيتهم فقد جاءوا اليها من تلقاء أنفسهم أو بعثت هى فى طلبهم ، فعينت الشبان منهم فى وظائف مناسبة ، واختارت للفتيات أزواجا أغنياء •

وهكذا لم تهمل الامبراطورة أحدا من أهلها بل سعت لاسعادهم جميعـــا !

وهذا وفاء ـ أو هذه محاباة ·· حسب العين التى ينظر بها المرء الى خدمة الاهل وتوفير الراحة أو الجـــاه أو الثروة لهـــم !

ولكن قلب تيودورا كان يمزقه الحزن والاسى ، كلما فكرت فى المستقبل !

لم يكن لها ولد ، وعبثا حاولت أن تلد للامبراطور وليــا للعهد · وهذه الخيبة كانت تدمى فؤادها وتنغص عيشها

هل حكم عليها أن تموت من غير أن يكون هناك من يرث عنها العرش ، ومن غير أن تضمن أن الامبراطور القــادم هو ابنها ، من ليحميا ودمها ؟

هل قدر لها أن ترفع الامبراطورية الى أوج المجد ، لـــكى ينتقل ذلك المجد من بعدها ومن بعد زوجها الى وريث غريب عنها ، وان كان قريبا للامبراطور زوجها ؟

زار القسطنطينية فى سنة ٥٣٠ الناسك المشهور « سابا » الذى أصبح فيما بعد قديسا ، وقابله الشعب بمظاهر الحفاوة والاجلال · فهو راهب صالح معروف بمكرماته وتقواه · وأهل فلسطين ، حيث كان يعيش فى صومعة بين الجبال ، يحترمونه ويعتقدون أن دعاءه مستجاب

وذهب الامبراطور والامبراطورة لزيارته · وركعا أمامـه وقبلا طرف ردائه ، وطلبا منه أن يمنحهما بركته ويصلى من أجلهما · فباركهما القديس ووعدهما بالصلاة !

وقال له الامبراطور :

ـ هل لك يا أبتاه أن تدعو الله عز وجـل أن يمـــن على

الامبراطورة بمولود ، يكون لنا تعزية وسلوى ، ويرث العرش من بعدنا ؟

فصاح القديس في وجهه :

ـ كلا ! .. لن أطلب للامبراطورة شيئا من هذا . ولو ولدت ابنا ، لجاء ذلك الابن عدوا للكنيسة مثل أمه !

ان القديس سابا لم يكن راضيا عن الامبراطورة بسبب نشاطها في الحقل الديني !

وقد بكت تيودورا عند سماعها جواب الناسك ، وقيل انها ظلت تذكر ذلك حتى ساعة موتها . ولكنها لم تحقد على القديس ولم تجرؤ على مناصبته العداء ، لانها أدركت أنها لو فعلت ذلك لاثارت فتنة في الارض المقدسة بسبب مكانة القديس في نفوس السكان !

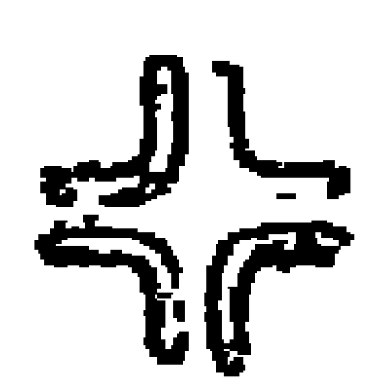
وهكذا حرمت تيودورا من البنين . ولم تتألم من شيء في حياتها مثلما تألمت لهذا العقم الذى جرح كبرياءها أمام الناس . وكلما قال لها زوجها انه راض به ولا يطلب لنفسه وريثا ، كانت تجيبه :

ـ في هذه المرة ، أنت تكذب علي ! .. فلا يوجد في العالم زوج واحد لا يريد أن يكون أبا ، ولا يوجد فيه ملك لا يريد أن يكون له ولي عهد !

غير أن هذا العقم الذى لازم تيودورا بعد زواجها لم يؤثر في علاقاتها بالامبراطور زوجها . فقد رضي به فعلا ، وهي التي لم تكن راضية !

ومهما تكن عيوب تيودورا وأخطاؤها ، فانها طبعت ذلك العهد بطابعها ، ولا يمكن أن يذكر جستنيان من غير أن تذكر زوجته معه . بل العكس هو الممكن ، فقد يذكر عهد « تيودورا من غير أن يذكر معه اسم الزوج الذى رفعها وجعلها شريكته في الملك !

وقد ماتت ثيودورا قبل زوجها • ومنذ اليوم الذى اختفت فيه صورتها من مسرح السياسة البيزنطية ، بدأت مرحلة الفوضى والانحلال • فقد بقى العرش وبقيت الدولة وبقيت الحاشية والحكومة • ولكن المحرك لهؤلاء جميعا توقف عن العمل • أما الامبراطور ، فقد أدركته الشيخوخة ، وأدركه التعب والعناء ، وانهكته المسئولية قبل الاوان !



امرأة لها تاريخ !

وصف المؤرخ بروكوبس الامبراطورة تيودورا بأنها كانت شديدة العطف ، واسعة التسامح مع النساء الخاطئات

وليس فى هذا ما يدعو الى العجب ، فهى امرأة قبل كل شيء ، ثم هي قد عرفت الخطيئة وسقطت فى هوة الفجور والفساد قبل أن تشب عن الطوق . وكانت ذكية ثاقبة الفكر بعيدة النظر ، تدرك أن المرأة ضعيفة الارادة ، وأن الظروف كثيرا ما تضطرها الى الجنوح عن الطريق المستقيم !

وفى ذلك العهد ، كان المستوى الخلقى فى القسطنطينية منحطا تمام الانحطاط . فالاسر التى يخيم عليها الوئام وتسمو فيها الفضائل ، قليلة نادرة . وحوادث الخيانات بين الازواج كثيرة لا حصر لها . والناس يقدمون على الرذيلة من غير أن يفكروا فيما تنطوى عليه من عيب وعار !

فأى عجب فى أن تجد الخطيئة فى ذلك العصر من يسترها ويحميها فى شخص الامبراطورة التى جرفتها الخطيئة قبل أن تجلس على العرش ؟

ان كثيرات من الزوجات الخاطئات ، كن يلجأن اليها كلما انكشف أمرهن ، وعلم أزواجهن بما اقترفن من خيانات . وكانت هى حريصة على أن تحميهن وتقدم لكل منهن من المساعدات ما يمكنها من الخروج من المأزق الذى زجت بنفسها فيه ! . . فالخيانات الزوجية لم تكن من الامور التى تدهش تيودورا أو تثير استنكارها ! . . ولم تكن تسمح لاى زوج بأن يقدم على تطليق زوجته الا اذا قدم الادلة القاطعة على أنه محق فى

هذا الطلب ، وان زوجته مذنبة خاطئة ! .. فاذا اتضح انه تجنى على زوجته ، أو اذا لم يستطع تقديم تلك الادلة القاطعة على خيانتها ، فاقل جزاء له على ذلك أن يحكم عليه بأن يدفع لزوجته تعويضا يعادل البائنة التي جاءته بها يوم الزواج ، وقد يضاف الى هذه العقوبة عقوبة الضرب او الجلد !

كانت الزوجات في عصر تيودورا لا خوف عليهن من اى تصرف خاطىء في حق ازواجهن ، فاذا حدث أن خانت احداهن زوجها ، فالامبراطورة سرعان ماتنقذها بأية وسيلة من الوسائل .. اما الزوج الذي يخون زوجته فلم يكن هناك أى سبيل الى انقاذه من العقاب !

وعلى هذا ، كان أكثر الازواج في عهد تيودورا لايجدون بدا من السكوت على خيانة زوجاتهم ، اذ يرون أن التغاضي والتسامح اسلم عاقبة من الشكوى والاستنكار !

وقد كان لعطف تيودورا على النساء الخائنات ، ومساعداتها لهن ولعشاقهن ضد الازواج الغيورين ، أكبر الاثر في تفشي الفساد وانتشاره في جميع أوساط الشعب ، الرفيعة والوضيعة على السواء !

وكان لابد أن يؤدي هذا الى تفكك روابط الاسرة . على اننا حين نلقي نظرة على ماكان يجرى داخل القصر المقدس ، من خلال الوثائق العديدة التي وصلت الينا عن ذلك العصر ، فاننا نقف مشدوهين أمام التناقض الظاهر بين موقف تيودورا من سلوك النساء في الخارج ، والتظاهر بالتقوى والغيرة على الفضيلة في داخل القصر !

لقد كان الامبراطور جستنيان هو الذى وضع تلك القوانين الخاصة بالزواج والطلاق والخيانة الزوجية ، وفي كل مادة من مواد تلك القوانين ، تتردد عبارات متشابهة : « حسن السيرة ـ حسن السلوك ـ الاخلاق الكريمة ـ الصدق والنبل ـ شرف الاسرة ـ » الى آخر ما هنالك من عبارات تدل على تمسك

الامبراطور بآداب الفضيلة ، ورغبته فى أن يتمسك بها رعاياه
وقد كتب جستنيان معلقا على تلك القوانين فقال : « اننا بهذه القوانين انما نريد ان تسلك النساء مسلكا مشبعا بالحكمة والرزانة ، وألا يقدمن على مايتنافى مع الشرف والتقوى . ونامل الا يكون ذلك صعبا عليهن ؛ وأن ينتصرن على الرذيلة بلا عناء ! »

ولكن ، ما هى الامور التى يراها الامبراطور منافية للآداب ؛ ويطلب من النساء تجنبها ؟

لقد كان من بين هذه الامور الا تخرج امراة للاستحمام مع رجل غير زوجها ، فاذا هى فعلت ذلك ، واستطاع زوجها أن يقدم الادلة التى تثبته ، كان من حقه أن يطلب الطلاق من زوجته !

كذلك كان من حق الزوج أن يطلب الطلاق اذا خرجت زوجته بغير علمه لتتناول العشاء مع رجل غريب . واذا ذهبت الى دور التمثيل ، وحفلات السباق ، ومصارعة الحيوانات ؛ من غير أن تستأذن من زوجها !

ولا غرابة فى أن ينص القانون أيضا على أن للرجل الحق فى الحصول على الطلاق ، اذا قضت زوجته ليلة خارج بيت الزوجية ، أو حاولت أن تجد لنفسها زوجا آخر أثناء حياة زوجها !

وفى حالة اتخاذ الزوجة عشيقا لها ، كان لزوجها بحكم تلك القوانين التى وضعها جستنيان أن ينتقم لنفسه بنفسه ؛ ولكن بعد أن ينذر زوجته ثلاث مرات بأن تهجر عشيقها . ثم يقدمها للمحاكمة ويقدم الادلة التى تثبت قيامه بتلك الانذارات؛ كما يثبت أنه ضبط زوجته مع عشيقها فى أى بيت ، أو كنيسة، أو فى أحد الملاهى او المقاهى ، أو فى ضاحية من الضواحى

وقد يحكم على العشيق بالاعدام ، وتعاد الزوجة الى زوجها لتحاكم بدورها على حدة ، ثم تأمر المحكمة بارسالها الى الدير

لكى تبقى فيه سنتين على الاقل ، وبعدئذ تعود الى زوجهـــا اذا وافق على ذلك ، أو تصبح راهبة تقضى بقية عمرها بين جدران الدير !

وهذه القوانين كانت تعفى من العقاب كل زوج يقتص بنفسه من زوجته الخائنة وعشيقهـــا ، اذا فاجأهما معا فى حالة مريبـــة

وكان جستنيان يقول عن الزواج : « انه رباط مقدس يجب المحافظة عليه وصيانته من الدنس ، وأن الزواج يجب أن يدوم ويصبح غير قابل للانفصام ! »

وتدلنا أعمال هذا الامبراطور على أنه كان دائما شـــديد الاهتمام بكل ما يتعلق بالزواج ، وأبقاء الوئام قائما بين الازواج من رعاياه !

وكان يحرم الطلاق بلا سبب معقول يبرر الرغبة من الزوجين احدهما أو كليهما فى الحصول عليه ، فلابد من أن يكون أحدهما قد أساء الى الآخر لكى تنظر المحكمة فى القضية . اما اذا تقدم اليها زوجان وطلبا الحكم لهما بالطلاق من غير أن يقدما لذلك سببا غير رغبتهما المشتركة فى الانفصال ، فان طلبهما يرفض ولا يؤخذ به !

ذلك لان جستنيان كان لايرضى بأن يقدم زوجان على الطلاق لانهما على خلاف فى الرأى ، او لان طباعهما غير متشابهة . ولا يرضى بأن يكون لزوجة الجندى الحق فى طلب الطلاق لان زوجها يقضى شطرا من عمره بعيدا عنها . واذا أرادت ارملة جنـــدى أن تتزوج ، فعليها أن تثبت بالادلة الملموسة أن زوجها قتـــل فى الميدان !

وقوانين جستنيان ــ وهى مشهورة معروفة ــ تنص على عقوبات صارمة ضد الذين يخترعون أسبابا وهمية لفصم عرى الزواج ، رغبة منهم فى الانصراف الى حياة اللهو

ولم يكن ذلك الامبراطور يبدى تساهلا فى هذا الشأن الا فى

حالة واحدة ، رغبة الزوج أو الزوجة فى الترهب ، ودخــول الدير .. ففى هذه الحالة فقط ، يحق لاحد الطرفين أن يتقدم بطلب الطلاق . على أن خيانة عهد الرهبنة ، فى نظر جستنيان لم تكن تقل جرما عن خيانة عهد الزواج . فاذا ثبت أن أحــد الزوجين غادر الدير بعد حصوله على الطلاق ، فان عقابه يكون هو الاعدام ، أو السجن المؤيد على الاقل !

غير أن القوانين ونصوصها شيء ، وتنفيذ النصوص وتطبيقها شيء آخر . ففى جميع العصور ، كانت الاغراض الشخصية والايدى الخفية تتلاعب فى التطبيق على حساب النصوص . وهذا ما حدث فى عهد جستنيان وتيودورا . فكانت هى تسهل التسامح مع الزوجات الخائنات ، فى حين كان هو يتغاضى أحيانا عن خطايا الرجال المتزوجين !

▱

واذا تصفحنا دقائق التاريخ وخفاياه فى ذلك العصر ، يتضح لنا بلا عناء أن حقوق المرأة كانت مصونة بمقتضى القوانين على الاقل . فان هذه القوانين كانت تحميها من تعسف الرجــل واضطهاده . وكان لها الحق فى أن تطلب الطــلاق فى حالات معينة ، منها خيانة الزوج أو اخلاله بواجباته عامة . فاذا دفع رجل زوجته الى الرذيلة يحق لها أن تطلب الانفصال عنه .

وكان القانون يحول دون اتهامها زورا وبهتانا بأنها ارتكبت عملا منافيا للآداب . فالمحكمة تطلب أدلة قاطعة وشــهود اثبات لا يتطرق الشك فى صدق قولهم ! . واذا ثبت لها أن الزوج غير محق فى طلب الطلاق ، فانها فى هــذه الحالة تعطى المرأة هذا الحق اذا أرادت ، ويصدر الحكم لصالحها ، ويحــكم على الزوج بدفع غرامة مالية فادحة !

ولا يحق للزوج أن يضرب زوجته الا لاسباب شرعية ، وقد حددت قوانين جستنيان تلك الحالات التى يحق فيها للزوج

ان يضرب زوجته !

وهذه القوانين حرمت على الزوج أن يطرد زوجته من البيت مهما تكن الاسباب ، اذ عليه قبل ذلك أن يرفع أمره الى القضاء وينتظر ما يحكم به لينفذه .. فاذا طرد زوجته وقضت خارج البيت ليلة أو أكثر من ليلة ، ثم اتضح انها كانت فى رفقة عشيق ، فان مسئولية هذا يتحملها الزوج . واذا وضعت سفاحا فالزوج هو المسئول ولا حق له فى أنكار بنوة المولود !

وهكذا كان جستنيان شديد العناية بالمحافظة على سلامة الاسرة ، ولكن الضعف البشرى حمله ـ كما حمل زوجته ـ على التسامح وغض النظر ، بل على التحيز والمحاباة فى بعض الاحيان

▱

كان الضابط الارمنى « ارطبان » ينتمى الى أسرة نبيلة . فهو من سلالة ملكية ، وقد جاء الى بيزنطة والتحق بجيشها وهناك أحرز شهرة واسعة ومكانة مرموقة

ثم حدث بينما كان يحارب مع الجيش البيزنطى فى افريقا أن انقذ زوجة ضابط كبير يدعى « أريوبندوس » من أيدى الثوار الذين قتلوه واسروها ، ثم أحاط أرطبان الارملة بعنايته ورعايته ، مدفوعا بعاطفة انسانية نبيلة ، ومؤملا فى الوقت نفسه ان يجنى فائدة لنفسه ، لان تلك الزوجة المترملة لم تكن غير « بريجكتا » ابنة أخى الامبراطور جستنيان

وصدق ظن الضابط الارمنى ، فان « بريجكتا » النبيلة اعترفت بجميله ، وصرحت بأنها لن ترفض له طلبا أيا كان ! ثم أغدقت عليه المال والهبات ·· وتوثقت العلاقات بينهما فوعدته بالزواج . فسكر «ارطبان» بنشوة الآمال ، ورأى نفسه يوشك أن يكون من أولئك الذين يمكن أن يجلسوا على العرش ، لأن الامبراطور ليس له أبناء يرثون عرشه من بعده ، ولا يبعد اذن أن يئول الى « بريجكتا » . ويشاركها فيه زوجها المحظوظ !

وحينما عادت بريجكتا الى بيزنطة ، قصت على الامبراطور ما حدث لها بالتفصيل ، وذكرت له أنها مدينة بحياتها وشرفها وحريتها لذلك الضابط الأرمنى الشجاع النبيل ، ثم طلبت منه أن يسمح له بالعودة الى بيزنطة فأجاب الأمبراطور طلبها بلا تردد !

وفى مقابلة أخرى لعمها الامبراطور ، صرحت له برغبتها ان تتخذ من الضابط الذى انقذها زوجا ، بعد ان فقدت زوجها فى ايطاليا ، فوافق الامبراطور كذلك على رغبتها ، وعينه قائدا لكتائب المتطوعين الاجانب ليقرب الشقة ويزيل الفوارق بينهما . ثم عينه مديرا للجيش المرابط ، ورفعه الى مرتبة قنصل !

ولكن حدث ما لم يكن فى حسبان أرطبان ، فهدد فجــأة بالفشل تلك الخطة التى رسمها لمستقبله ، بعد أن ابتسم له الحظ فأيدتهـــا « بريجكتا » بقبولها الزواج منه ، وايدها الامبراطور نفسه من حيث لا يشعر ، بموافقته على هــذا الزواج !

لقد نسى الضابط الارمنى ــ أو تناسى ــ انه متزوج ، وانه ترك زوجته فى أرمينيا . . وفيما هو يعد العدة لزواجه الجديد السعيد بالاميرة « بريجكتا » ابنة أخى الامبراطـــور ووارثة عرشه عما قريب ، فوجىء المسكين بوصول زوجته الأرمنية المهجورة الى بيزنطة ، وما لبثت هذه أن وقفت على نبأ الزواج الباطل المنتظر ، فسارعت بشكواها الى الامبراطورة تيودورا حيث وجدت منها كل عطف ومساعدة ، وأكدت لها ان قدسية الزواج فوق كل اعتبار ، وأنه لا سبيل الى حصول زوجها على الطلاق منها لكى يتزوج أخرى ، مهمـــا كانت هذه الزوجة الجديدة !

والواقع ان تيودورا ، لم تكن راضية فى قرارة نفسها عن زواج أرطبان الأرمنى بابنة أخى الامبراطور ، لانها كانت تكره أن تجلس هذه على العرش من بعدها !

وهكذا ارغمت الامبراطورة « ارطبـــان » على العودة الى زوجته ، كمـــا أرغمت « بريجكتا » على الاقتران برجل آخر ، اختارته هى لها ، لكى تقطع عليها وعلى حبيبها كل سبيل لبلوغ العرش من بعدها !

وهذه الحـادثة تدل دلالة واضحة على أن تيودورا كانت ـ مثل زوجها ـ حريصة على سلامة الأسر أيضا ، وان كانت من وقت لآخر تتحيز للنساء ضد الرجال . بل أن هذه الحادثة قد تعد أيضا تحيزا للمرأة ، اذ أن تيودورا وقفت فى صف الزوجة المهجورة وحالت دون وقوع غبن عليها !

وهناك حوادث أخرى تلقى ضوءا على آراء تيودورا وأعمالها فيما يتعلق بالمرأة وحسن سلوكها . فقد حدث مرة أن فقدت شقيقتان من أسرة كبيرة زوجيهما فى آن واحد . وكانتـــا جميلتين غنيتين ، تحبان اللهو وتميلان الى الحياة الحرة من كل قيد . فانصرفت كل منهما الى الانغماس فى الملذات

ولكن تماديهما فى هذا المسلك الشائن ، أطلق الألسنة بالنقد اللاذع . وكانت تيودورا تحبهما وتعطف عليهما وترجو لهما الخير والسعادة . فساءها أن تصبح سيرتهما مضغة فى الأفواه ، فنصحت لهما أولا بالعدول عن سيرتهما ، ولما لم تجد منهما استجابة للنصح ، قررت أن تربطهما بزواج جديد ، واختارت لهما بنفسها رجلين من معارفها ، ولكنهما من بيئة أقل من بيئتهما النبيلة . وقد رفضت الارملتان النبيلتان تحقيق رغبة الامبراطورة ، وهربتا ليلا ملتجئتين الى كنيسة آيا صوفيا للاحتماء فيها . ولكن تيودورا لم تتراجع ، وظلت تلاحقهمـــا حتى أكرهتهما على التسليم . ثم بالغت فى النكاية بهمـــا بعد خروجهمـــا من الكنيسة ، اذ رفضـت بشـــدة زواجهما من اثنين من النبلاء تقدما بهذا الطلب انقاذا لهما من الزواج الآخر

غير المتكافىء فيما يعتقـدأن . ولم تمض ايام حتى تم زواج النبيلتين من الرجلين الخاملين اللذين اختارتهما هى بنفسها !

على أن تيودورا ندمت على ذلك فيما بعد ، وهالها أن تكون قد أساءت الى صديقتين احبتهما وشملتهما بعطفها ، فسعت لدى الامبراطور حتى عين زوجيهما فى منصبين كبيرين واغدق عليهما هباته وعطاياه !

عندئذ رضى الجميع بهذا الحل الموفق السعيد

لقد كانت الامبراطورة تيودورا عنيـدة متشبثة بآرائهـا ، لا ترجع عن أمر تقرره . ولكنها فى ذلك كانت تخدم سياستها ، وتعنى دائما بأن تحيط نفسها بالأصدقاء الاوفيـاء والانصار المخلصين . وقد حملها ذلك على التدخل أحيانا فى شئون عائلية خاصة ، لم يكن لها حق التدخل فيها . وانتقدها معاصروها لانها كانت تعقد زواج الناس أو تفضه بمثل العناد الذى تصرف به شأنا من شـئون الدولة . وكانت تربط وتحل الروابط الزوجية ، حسب هواها ، واحيانا من غير أن تستشير أصحاب الشـأن انفسهم اى الازواج والزوجات ، الذين تتصرف فى مصيرهم من حيث لا يشعرون !

لكن تيودورا لم تفعل ذلك مدفوعة بأهوائها وحدها ، بل ان كل عمل أقدمت عليه من هذا القبيل ، كان مدروسا بدقة ، وكانت الامبراطورة الداهية ترمى من ورائه الى هدف سياسى معين ! فاختيارها ذلك الزوج الذى أرغمت « بريجكتا » على قبوله ، كان يرمى الى هدف بعيد .. هو أن ذلك الزوج الذى اختارته لابنة أخى الامبراطور لم يكن غير ابن اخى «هيباتوس» الذى نادى به الثوار امبراطورا لبضعة أيام فى ثورة نيكاس .. فهذا الزواج اذن من شـأنه أن يضمن فى المستقبل ولاء تلك الاسرة للعرش ، فلا تحدث أحدا من أفرادها نفسه بأن يقدم على ثورة جديدة فى البلاد !

ولاسباب سياسية أيضا ، شملت تيودورا بحمايتها الحسناء

انطونينا ، وتحزبت لها ضد زوجها بليزيروس ، ثم أرغمتهاعلى العودة اليه !

ولم تكن الامبراطورة تحسب حسابا للعوامل الادبية والخلقية ، ما دامت مصلحتها السياسية فى احدى كفتى الميزان ! .. فهى شريفة نبيلة صادقة طيبة القلب ، ما دامت تلك المصالح مصونة . أما اذا تهدد الخطر تلك المصالح ، فان هذه الصفات كلها توضع على الرف !

وكذلك كان الشأن ، اذا كانت مصالح أسرة الأمبراطورة ، او مصالح أصدقائها فى خطر . وقد رأينا كيف زوجت أختها « كوميتو » وابنة أختها « صوفيا » . وكيف زوجت ابنة أختها كريزومالو من شاب انتزعته انتزاعا من خطيبته . واسم هذا الشاب « سباتورنيوس » وهو ابن « هرموجينوس » رئيس التشريفات فى القصر !

كان ساتورنيوس يحب فتاة من بنات أسرته ، توافرت فيها جميع الصفات والمزايا التى يرغب الشاب أن تكون متوافرة فى زوجته المقبلة . وقد خطبها له أبوه ، وحدد يوم الزواج .. ولكن تيودورا تدخلت فى آخر لحظة ، فأرغمت الشاب ارغاما على أن ينفصل عن خطيبته ، ويتزوج ابنة أختها . وكان ان تم لها ما أرادت فعقد الزواج فورا

وفى اليوم التالى لزواجه ، أسر ساتورنيوس الى أصدقائه بأن الفتاة التى أرغموه على زواجها لم تكن تلك الفتاة الطاهرة النقية التى وصفوها له ، ثم أضاف الى ذلك انه سيسعى فى طلب الطلاق

وكانت كلماته هذه وبالاعليه ، فقد أمرت تيودورا بالقبض عليه ، وقالت له بعد جلده بالسياط

ـ تعلم يابنى كيف تحفظ لسانك فى المستقبل ، فلا تتفوه بكلمات تسىء الى سمعة الفتيات الشريفات وبنات الاسر النبيلة !

وقالت للذين تشفعوا لديها لكى تعفو عنه :
ـ انه ثرثار .. والثرثرة تستوجب العقاب !

ولزم ساتورنيوس الصمت بعد ذلك الدرس المؤلم ، بل انه انطلق يقسم مؤكدا أن امرأته مثال النبل والطهر والعفاف !

والواقع أن تيودورا فيما يختص بالأزواج والزوجات الذين تدخلت فى حياتهم الخاصة كانت تبدو عادلة حينا وغير عادلة حينا آخر ، ولكنها فى كل هذه الحوادث كانت تتصرف طبقا لما تقتضيه مصلحتها الخاصة ، وقد نجحت فى بلوغ هذه الغاية كل النجاح

وهناك فى هذه الحوادث ظاهرة تلفت النظر ، هى ان تيودورا حرصت فيها جميعا على أن تثبت أنها امرأة قبل كل شىء ، فهى تؤثر مصلحة الزوجة على مصلحة الرجل ، وترغم الزوج على قبول رغبة زوجته وتنفيذ ارادتها ، وتحاول دائما أن تجعل الزوجة « ترضى » بما تريد فرضه عليها ، لا أن تجعلها « ترضخ » مرغمة !

وهذه الظاهرة تبدو بوضوح وجلاء فى القوانين التى حملت تيودورا زوجها الأمبراطور على سنها لمصلحة الممثلين والممثلات والراقصات والنساء الساقطات !

لقد كانت تعرف حق المعرفة مايجرى فى البيئات المنحطة ، والأوساط الموبوءة ، وما فى محيط الملعب ، من أعمال وحوادث وفواجع يندى لها جبين الفضيلة خجلا .. فهى قبل أن تجلس على العرش ، انغمست فى لجة ذلك المحيط ، وعاشرت جميع تلك الأوساط والبيئات التى خرجت منها ونشأت فيها !

ان تيودورا ، الراقصة المتوجة ، لم تنس ما عانته ولمسته من عار وفقر ، وتبعا لذلك لم تنس ما يعانيه غيرها من هذا

القبيل ، فكانت شديدة الرغبة فى أن توجه الجانب الأكبر من عطفها الى ضحايا الفقر والعار !

انها تعرف الداء ، وتريد أن تصف له الدواء ، وتطبق العلاج بنفسها !

وقد سجل الامبراطور جستنيان فى مذكراته الخاصة أنه مدين لتيودورا زوجتــه بالوقوف على حقيقة ما يجــرى فى بيزنطة ، ومعرفة خبايا الأوساط التي انتشر فيها الفساد ، وقد ساعده ذلك على سن قوانين جديدة ، تشمل نصوصها جميع أفراد الشعب ، ولا تهمل بيئة من البيئات

وقوانين جستنيان الخاصة بالآداب كانت ولاتزال حتى أيامنا هذه ، مصدرا من المصادر التى يستوحيها المشترعون فى أعمالهم الاصلاحية . وقد كانت تيودورا هى التى أوحت بتلك القوانين !

كانت الممثلة أسيرة للفرقة التى تعمل فيها ، بل كان صاحب العمل يستعبدها ، فهى لايحق لها أن تتركه ، بينما يحق له هو أن يطردها . فنصت القوانين الجديدة على أن للممثلة الحق فى أن تستقيل من عملها متى شاءت ، وأن تطالب بتعويض اذا طردها صاحب العمل !

ونصت القوانين أيضا على أن مهنة التمثيل لا تحرم على الممثلة أن تحترف مهنة أخرى اذا هجرت المسرح .. وكانت من قبل مرغمة على أن تبقى طول حياتها ممثلة ! كما كانت هناك عقبات تحول دون زواج الممثــلات ، فأزالتها القوانين الجديدة !

وكان أصحاب المسارح والفرق يتعاقدون مع الممثلة على أن تعمل عندهم « مدى الحياة » فألغى هذا النوع من التعاقد بنص صريح فى القانون الجديد . وأصدر الامبراطور أمرا دوريا الى حكام المقاطعات يلفت فيه أنظارهم الى وجوب الاشراف على تنفيذ القانون ، بحيث لا يقع غبن على ممثلة فى أنحــاء

الملكة ، وبحيث لا ترغم ممثلة على القيام بأى عمل لا ترغب فيه ! .. والى جانب عقوبة الجلد والنفى التى فرضت على صاحب العمل الذى يخل بنصوص القانون ، أو يسىء تطبيقه .. فرض عليه أن يدفع للممثلة المجنى عليهـــا غرامة مالية كبيرة لكى تستطيع أن تنفق على نفسها ريثما تجد عملا جديدا !

وهكذا ازالت تيودورا من طريق الممثلة جميع العقبات التى كانت تحول دون تمتعها بحرية العمل ، من ناحية ، وبحقوقها كامرأة من ناحية أخرى . وصارت الممثلة تجد زوجا يقترن بها ، اذا هجرت التمثيل ، من غير أن تضطر الى استجـداء اذن بذلك من الامبراطور ، كما حدث لجستنيان نفسه ، لمـا اراد أن يعقد زواجه على تيودورا ، فاستصدر أمرا من عمه الامبراطور جستين ، يسمح له بأن يحقق رغبته !

وأزيلت أيضا جميع العقبات من طريق بنات الممثـــلات ، فأصبحن يتمتعن بجميع الحقوق التى تتمتع بها نساء الدولة الأخريات !

ولكن شيئا واحدا اشترطته تيودورا على الممثلة : هو ان تهجر التمثيل اذا أرادت أن تتزوج ، وتتعهد بألا تعود الى ممارسته على الاطلاق ، أيا كانت الظروف والأحوال !

وصرفت الامبراطورة همها الى معالجة مشكلة البغـــاء وما كانت تعانيه العاصمة الموبوءة من انتشار المواخير فيها

وقد كان أصحاب تلك المواخير يجيئون بالفتيات ، والنساء من أطراف الامبراطورية ، بعد أن يغروهن بمعســول الآمال والوعود . وكانت هناك سوق للرقيق الابيض ، تباع فيهـا النساء بيع الأنعام . فعملت تيودورا على اصلاح تلك الحال ، ومعالجة ذلك الداء الذى عانته هى نفسها قبل أن تجلس على العرش !

وبفضل الممثلة المتوجة ، صـــدر قانون جديد بمرسوم امبراطورى ، يفرض عقوبة الاعدام على كل من تثبت عليه تهمة

جر الفتيات الى ممارسة الدعارة ! .. ثم صدر قانون آخر مكمل لذلك القانون بتحريم البغاء وغلق المواخير فى المدينة ونفى أصحابها وصاحباتها الى جهات نائية ، لأن بقاءهم فى العاصمة « مضر بالاداب العامة ، ومخالف للقوانين ! »

وجاء فى القانون أيضا هذا النص الصريح :

« اننا نرغب فى أن يعيش جميع رعايانا عيشة صالحة نظيفة شريفة ، فى حدود القوانين السماوية والتشريعات المدنية . فان الفضيلة وحدها تضمن للانسان حياة كريمة فى هذه الدنيا ، والتمتع بالراحة فى العالم الآخر ! »

ويعجب المرء لوجود مثل هذا النص فى قانون صدر فى عهد عرف بأنه عهد فساد وتفكك وانحلال ، ويزداد عجبه عندما يتأكد أن تيودورا ، الممثلة السابقة ، والمرأة الطائشة ، هى التى أوحت بهذا النص أو كتبته بيدها !

وقد عنيت تيودورا بالاشراف على تطبيق هذا القانون . ولم تتردد فى الطواف فى أنحاء عاصمتها ، لكى تتأكد من أن المكلفين بذلك يقومون بواجبهم على أحسن وجه . فهى تريد أن تحطم بيدها القيود التى عرفتها من قبل وهى ممثلة ، وأن تنتشل من بؤرة الفساد جميع النساء اللواتى كانت هى واحدة منهن !

وكانت تقول : « هناك نوعان من العبيد الأرقاء : العبيد الذين نشتريهم من الاسواق لخدمتنا ، والنساء اللواتى يشتريهن الفاجرون للالقاء بهن فى غمرة الرذيلة !

وجمعت تيودورا النساء اللواتى كن يدرن بيوت الدعارة فى العاصمة ، وناقشتهن بنفسها . فطلبت منهن أن يعترفن صراحة بما دفعنه من مال للنسوة الساقطات العاملات فى بيوتهن ، وبما دفعنه لأهل أولئك النسوة الذين باعوهن طمعا فى كسب المال ، أو مدفوعين بدافع الفقر والفاقة !

ثم أعطت تيودورا من مالها الخاص لصاحبات تلك البيوت

خمس قطع ذهبية عن كل امرأة كانت عندهن ، وهو الثمن الذى اشترينها به ، وهكذا افتدت بمالها أولئك البائسات وحررتهن من ذل الاسر والعار . ثم اعطت كل واحدة منهن ثيابا جديدة وقطعة من الذهب ، وأعادتها الى أهلها أو أرسلتها الى أحدى الأسر الكبيرة للعناية بها !

وبقيت فى العاصمة طائفة من النساء اللواتى لم يجدن مأوى . فأنشأت لهن تيودورا ، من مالها الخاص ملجأ أرسلتهن اليه ! . ثم خصصت لهذا الغرض قصرا قديما يقع على شاطىء البوسفور ، من الناحية الآسيوية ، وحولته الى دير سمته « دير التوبة » وأوقفت عليه الأملاك والاموال ، ودعت الراغبات فى الترهب من أولئك النسوة الى الالتحاق بذلك الدير ، حيث وفرت لهن أسباب الراحة والطمأنينة !

ويقال ان بعض أولئك النسوة لم يطقن البقاء فى دير التوبة ، فحاولن الفرار بالقاء أنفسهن من فوق الاسوار . وقد يكون هذا صحيحا . ولكن هذا لا يقلل من أهمية المشروع الذى نفذته تيودورا ، ولا يشوه نبل العمل الذى قامت به لانقاذ الساقطات . فان هذا العمل الجليل يشرف الامبراطورة العظيمة ويحمل أشد الناقمين على أن يغفروا لها بعض ذنوبها من اجله !

لقد أذنبت تيودورا وأجرمت ... ولكنها من ناحية اخرى صنعت كثيرا لمكافحة الذنوب والآثام . ولا شك فى أنها ، حين أوحت الى زوجها بنصوص القوانين الخاصة بالنساء الساقطات والمثلات والراقصات ، كانت تذكر ماضيها ، وما ارتكبته هى من آثام . ولا شك أيضا فى أنها كانت مدفوعة بدافع التوبة والندامة ، ورغبت فى أن تكفر عن ماضيها الأثيم !

ان تيودورا أحبت بنات جنسها . وارادت أن تحول الساقطات منهن الى نساء سعيدات شريفات . ولا يهمنا أن تكون هى ، فى وقت من الاوقات ، قد لطخت نفسها بالعار فان هذا لا يعد دليلا ضدها ، بل هو دليل على أن تلك الراقصة

التى جلست على عرش بيزنطة ، جديرة بالمنصب الذى شغلته والمكانة التى ارتفعت اليها !

لم تقف تيودورا عند حد مكافحة الفساد ورفع القيود عن زميلاتها السابقات ، الممثلات والراقصات وغيرهن ، بل سعت أيضا الى اعطاء المرأة عامة ، فى جميع انحاء الدولة ، وفى جميع ميادين النشاط ونواحى الحياة الاجتماعية، جميع الحقوق التى للرجل ، على أن تقوم بمثل تلك الواجبات التى يقوم بها .. فتيودورا بذلك تعد أول ملكة تولت انشاء « حركة نسائية » كما تتصورها النساء فى عصرنا هذا . واذا كانت لم تذهب فى محاولتها الى النهاية ، فذلك لأنها ماتت قبل الاوان !

وما أروع عمل تلك المرأة ، التى عرفت الفساد ومارسته ثم كافحته وانتصرت عليه . وان اغلاق المواخير وتحريم البغاء لمن المفاخر التى يجمل بالمؤرخين أن يتوجوا بها اسم الامبراطورة التى قالت :

ـ عرفت البؤس فبسطت يدى الى البائسين !



الفصل الثالث

القديسة

تيودورا التقية !

كان الدين يشغل مكانا كبيرا فى حياة الامبراطورة تيودورا . ففى كل عيد من الأعياد الدينية الكثيرة عند طائفة المسيحيين الأورثوذكس ، كانت الامبراطورة ترتدى أفخر ثيابها ، وتضع الطيلسان على كتفيها ، وتخرج فى موكب فخم لحضور الصلاة فى احدى كنائس العاصمة الكبرى ، مثل كنيسة آيا صوفيا ، أو كنيسة الرسل ، أو كنيسة القديس سرجيوس

وفى داخل الكنيسة كانت تجلس الامبراطورة على عرشها ، ومن حولها نساء الحاشية ، فتحضر الصلاة الى آخرها فى خشوع وصمت ، وتنهض احيانا ، ثم تتقدم وبيدها شمعة مضاءة، الى الهيكل حيث تركع على ركبتيها وتصلى أمام الصور المقدسة ومخلفات القديسين !

وكان موكب الامبراطورة يجتاز الشوارع بين القصر والكنيسة ، يتقدمه حاملو الشموع والصلبان

وهناك احتفالات دينية اخرى كانت الامبراطورة تخرج من قصرها للاشتراك فيها ، كالاحتفال بتدشين كنيسة جديدة ، أو افتتاح دير جديد ، أو زيارة مكان مقدس طلبا للبركة والغفران ، أو شكرا لله على انتصار احرزته الجيوش الامبراطورية !

وكذلك كانت الامبراطورة تخرج من قصرها فى ثياب الحداد ، لتزور كنيسة أو ديرا ، مبتهلة الى الله أن يقى البلاد شر وباء داهم ، أو يرسل سحائب رحمته على البلاد لانقاذها من المجاعة التى يهددها بها موسم مجدب !

وكان الناس فى ذلك العصر يعتقدون أن سلطة الملك مستمدة من سلطة الله ، وعلى هذا كان الأباطرة فى بيزنطة يجمعون بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية على السواء

وكان الامبراطور جستنيان يجد سرورا وبهجة فى الحياة على هذه الصورة ، فهو شديد التدين الى حد التعصب والاعتقاد بالخرافات . يؤمن بأنه موضع رعاية خاصة من الله . ويؤكد لخلصائه من رجال الحاشية أن السماء تصنع العجائب من أجله !

ومن الأقاصيص التى كان يرويها ، انه مرض مرة واشتد عليه الداء ، وعجز الأطباء عن شفائه ، فصلى وتضرع الى الله ، واذا بالقديسين « دميانوس وكويجوس » ، اللذين مارسا الطب فى حياتهما ، ينزلان من السماء ليعالجاه فى حجرته !

والواقع أن جستنيان مرض حقا ، واصبح على عتبة الموت ، ولكنه شفى فجأة وفى آخر لحظة . وهذا ما زاد فى اعتقاد الناس بانه شفى بمعجزة من السماء !

وقص جستنيان أيضا على الناس القصة التالية :

كان مصابا بتصلب فى الشرايين . ولم يجد فى علاجه أى دواء وكان هـذا الداء عضالا ، ولما لم يجد من يعطيه الدواء الشافى ، زار ديرا فيه مخلفات بعض القديسين ، ولمسها ، وصلى ، وتضرع ، ودهن مواضع الداء من جسمه بالزيت المقدس ، وعاد الى القصر فاذا به يشفى تماما !

وكان الامبراطور يتوجه بآيات الشكر الى الله ليلا ونهارا على ما حباه به من عطف وشمله به من رعاية . ولذلك كان شديد الحرص على حماية الدين ، وعلى صيانة الايمان من أن يتطرق اليه الوهن والضعف ، وكان كثير العناية بالكنائس وترميمها وتجميلها ، عدا ما كان يشيده من الكنائس والاديرة الجديدة ، حتى امتلأت بها انحاء الامبراطورية الشاسعة ، وقد

ظل طول حيـاته يغدق عليها الأموال بغير حساب ، من بيت المال ، أو من ثروته الخاصة وثروة زوجته !

وكان جسـتنيان من أولئك الرجال المؤمنين المتمسـكين بعقيدتهم لا يتزحزحون عنها . ولكنه كثيرا ما كان يقحم نفسه فى مناقشات ومجادلات دينية حول عقيدته . وقد تعددت المؤتمرات والمجامع الدينية التى اشترك فيها ، وقضي الساعات والايام يجادل الاساقفة وعلماء اللاهوت . وكان يلذ له بصورة خاصة أن يناقش « الهراطقة » المعارضين فى الامور اللاهوتية والروحية ، ويبدى فى ذلك اطلاعا واسعا ، يشوبه الغرور فى كثير من الأحيان ، لاعتقاده أنه لا يوجد فى الامبراطورية خطيب اقوى بلاغة منه ، ولا أوفر حجة ، ولا أفصح بيانا !

وصفوة القول ، ان الامبراطور كان واحـدا من أولئـك العشرات الذين ملئوا الدنيا ضجيجا فى ذلك العصر ، بما أثاروه من مشاحنات دينية ومذهبية ، شغلت بال البيزنطيين مئات السنين ، وكانت فى النهاية سببا من الأسباب التى أدت الى انهيار امبراطوريتهم . وقد عرفت تلك المشاحنات فى التاريخ باسم « المناقشات البيزنطية »

أما تيودورا .. فلم تكن أقل اهتماما من زوجها بالشئون الدينية وما يرتبط بها من بعيد أو من قريب . ولم تكن تهمل شيئا من واجباتها الدينية كامبراطورة . ولم يغرب عن بالها فى وقت من الأوقات أنهـا امبراطورة دولة مسيحية شـديدة التمسك بالدين ، وان كل تقصير من ناحيتها فى أداء واجباتها الدينية سيفسر تفسيرا قد يكون مضرا بمصلحتها ، ماسا بمقامها . فضلا عن أنها كانت فى الواقع تقية ورعة بالمعنى الذى كان الناس فى ذلك العصر يفهمون به التقى والورع !

كانت كجميع البيزنطيات تحترم رجال الدين وتجلهـم

. تصغى الى نصائحهم . على إنها كانت تختص بالجانب الأكبر من احترامها واجلالها أولئــــك الرهبان المتعبدين ، ذوى الأردية الطـــويلة واللحى المسترسلة ، وأولئــــك النسوة الصالحات ، اللاتى هجرن مباهج العالم ، وحبسن انفسهن داخل الأديرة للعبادة والصلاة

وكانت تعتقد أن الرهبـــان يكفرون بفضائلهم عن سيئات الناس ، ويملئون بصلواتهم الفراغ الذى يتركه الذين لا يصلون .. كما كانت تعجب بالحياة التى يحيونهـــا داخل أديرتهم وتصفها بأنها « تقرب بين الله والبشر ، وهى مرحلة من مراحل الطريق بين الارض والجنة ..! »

ومرض زوجها مرة ، فلم تكتف بالأطباء لعـــلاجه ، بل استنجدت برجال الدين ، وارسلت فى طلب الراهب السورى « زوراس » لانقاذ زوجها بصلواته !

وقد رأينـــا كيف طلبت من الراهب الفلسطينى سابا أن يساعدها بصلواته وتضرعاته لكى تلد للأمبراطور ولدا يكون ولى عهده ، وكيف رفض ذلك القديس طلبها

ولها مع الناسك السورى « ماراس » حادث طريف . فان ماراس هذا كان معروفا بتطرفه فى آرائه وتدينه العميق ، وكان يهاجم خصومه بعنف لا يوجد عادة عند الرهبان والنساك . وكان قد بلغ الثلاثين من عمره ، لما قرر أن يهجر العلم ويترهب . فقد عدل عن الزواج فى اللحظة الأخيرة ، وقال انه يفضل أن يضع نفسه تحت حكم الله على أن يضع نفسه تحت حكم امرأة ، وأن نير الرب خير ألف مرة من نير الزواج !

واسترعى الأنظار منذ دخل الدير ومارس الرهبنة بما كان يفرضه على نفسه من ضروب الحرمان والتقشف . ولكن هذا الناسك القاسي على نفسه ، كان أيضا قاسيا على غيره . وقد وقف مرة فى القصر المقدس منتقدا بعبارات جارحة سلوك الامبراطور والامبراطورة . ومنذ ذلك الوقت أعجبت تيودورا

بذلك الراهب الشاب الجرىء الفصيح الملتهب غيرة على الدين والفضيلة . وعولت على ان تتقرب اليه !

كان ماراس فى نظرها قديسا حائزا على رضاء الله ونعمته فدعواته لابد ان تجاب !

وعلى هذا عرضت عليه أن يبقى ضيفا عليها ، ووعدته بأن تضع تحت تصرفه بيتا يقيم به فى ركن من اركان الحدائق الواسعة ، وفى المكان الذى يريده . ولكن ماراس رفض . ولما أرسلت اليه مبلغا من المال ، سارع الى مقابلتها حيث ألقى بالنقود فى وجهها أمام رجال الحاشية !

ولم تيأس تيودورا ، فقد لحقت بماراس الى المكان المنعزل الذى أقام فيه على شاطىء البحر ، وطلبت منه أن يصفح عنها ، فعاتبها على ارسال مال اليه لكى تغريه أو تشترى رضاه وصلواته . وأخذت هى تلح عليه أن يقبل ما يكفى لنفقات معيشته ، ولكنه رفض أيضا .. ثم فر هاربا الى مكان بعيد لينجو من ملاحقاتها !

واشتهر أمر هذا الناسك العنيد وذاع صيته فى البلاد ، فصار الناس يقصدونه لطلب بركته .وحدث مرة أن هاجمه جماعة من اللصوص ودخلوا الخيمة التى كان يقيم فيها وهددوه بعصيهم قائلين :

ــ أعطنا المال الذى ترسله اليك الامبراطورة !

فأجابهم الناسك : « ليس عندى مال . والامبراطورة لا ترسل الى شيئا لأننى لا اريد منها شيئا ! »

ولكنهم لم يصدقوه ، وضربه احدهم بعصاه . فوثب الناسك القوى العضلات عليهم ، وانتزع من احدهم عصاه ، وتمكن من التغلب عليهم وشد وثاقهم ، ثم تركهم على تلك الحالة حتى اليوم التالى ، فأطلق سراحهم قائلا لهم :

ــ تعلموا ألا تعتدوا على رجل صالح لا يملك غير ايمانه بالله !

وانتشر خبر هذا الحادث فى بيزنطة ، فازدادت شـــهرة ماراس ، وزارته الامبراطورة مرة أخرى ، واقنعته بأن يخرج من عزلته ، فرضى بأن تشيد له تيودورا ديرا يبيت فيه مع الرهبان الذين يختارهم ثم أعطته مزرعة يعيش فيهـا هو وأولئك الرهبان . وبقي متمتعا بحب الناس واحترامهم ، حتى مات بالطاعون فى سـنة ٥٤٢ ، فاحتفل البيزنطيون بدفنـه احتفالا قوميا كبيرا

واهدت تيودورا الى بطريرك الاسكندرية تيودوسيوس قصرا فى مقاطعة ترافيا ، كما شيدت ديرا فى داخل القصر المقدس لاقامة الرهبان . وبنت ملاجىء ، وفنادق لينزل فيها الفقراء الذين يمرون بالعاصمة أو يجيئون اليها للبحث عن عمل !

ومن اشهر الكنائس التى شيدتها تيودورا ، كنيسة الرسل وكانت تقوم على المرتفع الذى بنى عليه فيما بعـــد جامع السلطان محمد بالقسطنطينية . وفيها مدافن قياصرة الروم

على ان الامبراطورة تيودورا ــ برغم تقواها والاعمال الكثيرة التى تمت على يدها كانت هدفا لانتقادات جارحة من رجال الدين ، وخاصة من أولئك الذين كانوا يعملون للابقاء على الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية « الرومية والرومانية ! » فقد كانت تيودورا تناصر الكنيسة الشرقية ، ولهذا فان معظم الذين أيدوها وبيضوا صفحتها فى التاريخ ، كانوا من أصدقائها اساقفة آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وأفريقا . أما أساقفة بيزنطة والبلقان وايطاليا ، فانهم حاولوا تسويد صفحتها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا !

والواقع أن تيـودورا قامت بدور كبير فى تاريخ اقامة الكنيسة الشرقية وتدعيمها فى القرن السادس عشر الميلادى . ولولاها ، لقضى على الاساقفة الانفصـــاليين ، لأن زوجهـــا الامبراطور كان يناهضهم !

ولابد لنا لكى نستوعب فهم تلك الشخصية العجيبة ، شخصية الامبراطورة تيودورا ، الممثلة المتوجة ، من أن نشير الى ذلك الصراع الهائل الذى قام فى وقت من الاوقات بين الكنيستين الشرقية والغربية ، أو على الأصح الصراع بين الشرق والغرب ، وهو الذى ادى فى النهاية الى انفصـــــال الكنيسة الشرقية انفصالا تاما عن الكنيسة الأم الاولى فى روما ، التى أصبحت مركز الكثلكة ومقر البابا رئيسها الاعلى

ولا يتسع المقام هنا للدخول فى تفاصـــيل المشاحنـــات اللاهوتية التى نشبت بين الأساقفة المسيحيين حول شخصية السيد المسيح ومسألة الأقانيم وغير ذلك مما يتصل بالعقيدة المسيحية ذاتها . ولكننا نكتفى بتلخيص الحوادث لاظهار الدور الذى قامت به تيودورا فى تلك الحوادث الجسام

فقد بدأ الصراع بين الفريقين فى أواسط القرن الخامس للميلاد . وعقدت مؤتمرات ومجامع أسـقفية لفض النزاع لكنها كلها منيت بالفشل التام ! ثم تطور الخلاف فى النهاية فأصبح خـــلافا بين الشرق والغرب ، وصراعا بين عقليتين : العقلية الشرقية والعقلية الغربية . وكان أباطرة بيزنطة راغبين فى الابقاء على الوحدة بين الكنائس كلها ، على أمل أن تظل سلطتهم شاملة أنحاء الامبراطورية الجديدة والقديمة ، بما فى ذلك روما مقر المسيحية !

وجاء عهد جستنيان فسار الامبراطور على خطة اسلافه وقاوم طلاب الانفصال والاساقفة الشرقيين القائلين بغـــير ما يقول به أساقفة اوربا وبعض زملاء لهم فى افريقا . ولكن تيودورا لم تساير زوجها فى هذا المضـــمار . بل انضمت صراحة وجهارا للأساقفة المعارضين الشرقيين ، وأثبتت بذلك أنها تفكر تفكيرا شرقيا ، وتحتفظ بميولها الشرقية ، وتعطف على قوم شبت وكبرت بينهم ! ويغلب على الظن أن تيودورا لم تتحزب للمعارضين عن عقيدة وايمان ، لا لأنها كانت من

الناحية اللاهوتية الدينية ترى رايهم ، بل لأنها كانت تعطف عليهم لأنهم شرقيون ، وترى انه خير لامبراطور بيزنطة أن يضحى بالوحدة مع روما ، فى سبيل الاحتفاظ بتأييد الاساقفة والرهبان فى الشرق ، وتثبيت ملكه فى بيزنطة على أساس وحدة شرقية كاملة ، لا على أساس وحدة واهيــــة بين الشرق والغرب !

وكان لتيودورا أصدقاء كثيرون من بين رجال الدين فى مصر وسورية ، وهم الذين شـــجعوها وطلبوا حمايتها وتأيـيدها ودفعوها على التحيز والتحزب لطلاب الانفصال . واليها يعود الفضل فى منع الامبراطور جستنيان من أن يستعمل سياسة الاضطهاد والارهاب فى سورية ومصر وأفريقا . فقد منعته من ذلك . بل حملته على أن يسن قوانين خاصة تطبق فى هـــذه البلدان ، وتحول دون وقوع تصادم بين أنصار العقيدتين : عقيدة يعتنقهـــا الامبراطور ويؤيدها ، وعقيدة تعتنقهـــا الامبراطورة وتؤيدها !

ولكن خصومها كانوا كثيرين ، وقد تمكنوا ـ برغم ما بذلته من جهود كبيرة ـ من الحاق الأذى بأصدقائها وأنصـارها الذين أيدتهم

وبقى ذلك الصراع محتدما بين الفريقين حتى بعد موت تيودورا .. ولكن الفريق الشرقى بدأ يتعثر بعد ذلك ، لان موت تيودورا كان ضربة قاصمة له . غير أن أثر الجهود التى بذلتها الامبراطورة فى سبيلهم ظلت باقية حية ملموسة .

وموقف تيودورا فى هذا الصدد هو الذى جعل الاساقفة الذين أيدتهم يواصلون نشاطهم ونضالهم خلال الاجيـــال التالية فى سبيل عقيدتهم .

وأثناء ذلك الصراع العنيف الذى خاضت تيودورا غماره فى الميدان الدينى ، أقدمت الامبراطورة على أعمال على جانب عظيم من الجرأة والعنف ، فى سبيل القضية التى اعتنقتهـــا

وتريد تثبيتها . ومن ذلك ان البابا « أجابيت » مات فى بيزنطة فاغتنمت تيودورا الفرصة السانحة وأرادت أن تعين فى المنصب الذى خلا بوفاته أسقفا من صنائعها . فاختارت لهذا الغرض الأسقف « فيجيل » واتفقت معه على أن يخدم مصالحها وآراءها ، ونادت به « بابا » وأرسلته الى أيطاليا حيث كان بليزيروس مرابطا بجيشه !

ولكن الخطة فشلت فى بادىء الامر · لانه قبل أن يصل فيجيل الى روما ، كان الاساقفة هناك قد انتخبوا للمنصب البابوى أسقفا آخر يدعى « سلفيروس » . واحتدم النضال بين الفريقين ، وتدخل الجيش البيزنطى فى الامر ، وأرغم سلفيروس على الفرار وأجلس فيجيل على الكرسى البابوى ، وهكذا انتصرت تيودورا بقوة السلاح .. ومات سلفيروس فى المنفى سجينا معذبا !

على أن تيودورا اختلفت مع البابا « فيجيل » الذى رفعته الى منصبه بقوة السلاح والمكيدة . فاعتقلته كما اعتقلت سلفه من قبل ، وأرغمته على اتباع السياسة التى رسمتها له وقبل أن يوافيها الاجل ، كانت قد أعادت الى أصدقائها الاساقفة المنشقين بعض ما خسروا فى نضالهم ضد خصومهم فى بيزنطة والمغرب !

الوداع الاخير !

فى التاسع والعشرين من شهر يونيو سـنة ٥٤٨ ميلادية ماتت الامبراطورة تيودورا بمرض السرطان ، بعد أن عانت الامرين من هذا الداء العضال !

واجتمع سكان القصر المقدس رجالا ونساء ، حول جثمان الامبراطورة الراحلة ، لتوديعها الوداع الاخير ، فغصت بهم قاعات الاستقبال الكبرى على رحبتها .. ثم حنطت الجثة ، ووضعت على سرير من الذهب الخالص ، المجلل بالارجوان والدمقس والحرير . واضيئت من حولها الشموع

ان الامبراطورة ترتدي ثوب العيـد الاحمر ، وتضع على راسها التاج ، وتنتعل حذاء ارجوانيا . ولم يكن الموت قد طبع وجهها بطابعه بعد . فلون بشرتها مائل قليلا الى الشحوب. ويخيل الى الناظرين اليها انها تنام نوما هادئا كالمعتاد !

ويعلو السرير رواق نصب خصيصا لهذا الغرض ، يغطيه الارجوان ويجلله ، وتحليه الجواهر الزاهية الثمينة . وحول الرواق ، شموع تشتعل فى شمعدانات ضخمة من الفضـة والذهب . وفى فضاء القاعة الواسعة الارجاء ، يتصاعد دخان الشموع فيمتزج بدخان البخور ، ويختلط برائحة الازهار والعطور النادرة التى نثرت هنا وهناك !

وعند قدميها، ركعت الجوارى والخادمات والوصيفات باكيات نادبات . وخلفهن الخدم ورجال الحاشية يشاركونهن الندب والبكاء !

وفتحت الابواب ، فهرع سكان القصر والعاصمة لمشاهدة

امبراطورتهم للمرة الاخيرة ، فمرت صفوفهم متراصة متتالية خاشعة امام الجثة المسجاة على السرير الذهبى . وجاء البابا فيجيل ، ضيف بيزنطة وضيف الامبراطورة ، والمدين لهـــا بمنصبه ، وحوله رهط من الاساقفة والراهبات . كما جاء البطريرك ميناس الاسكندرانى ومعه رجال الدين التـــابعـون له ، وأعضاء مجلس الشيوخ جميعا ، بأزيائهم الزاهية الرسمية، والنبلاء ، والقضاة ، وقواد الجيش ، ورجال الحـــاشيتين ، وموظفو القصر المقدس ، ورؤساء المصالح الحكومية وتابعوهم !

وكذلك جاء لتوديع الامبراطورة الراحلة كل زوجات القضاة والحكام والقناصل والقواد ، ووقفن بجانب الوصيفـــات والخادمات والجوارى ، ثم مررن فى صمت وخشوع أمام جثمان المرأة التى ملأت القصر حياة ونشاطا ومرحا حقبة من الزمن

ثم جاء دور الامراء والاميرات من الاسرة المالكة ، فمشوا وراء جستنيان الامبراطور الحزين الذى كان ينهنه كالاطفال ، وقد شعر بأن الخطب جسيم ، وبأن خسارته فى زوجته لن تعوض ، وحمل الى المرأة التى أعجب بها فتزوجها وقدسها ، هداياه الاخيرة : حليا فاخرة نادرة ، وحجارة كريمة ، واقمشة مزركشة بالحرير والفضة وموشاة باللآلىء ، وعددا كبيرا من التحف والقطع الفنية وأدوات الزينة والعطور والمساحيق ، وكل ماكانت تيودورا تحبه فى حياتها

ووضعت الهدايا مع جثمان الموتى فى قبورهم ، وهى عادة موروثة عن الاقدمين ، وكانت فى ذلك الوقت لا تزال متبعة عند الاسر الكبيرة فى بيزنطة

وانحنى الامبراطور وطبع قبلة على جبين الامبراطورة . ثم ضم بين ذراعيه الجثة الهامدة ، وبللها بدموعه السخينـــة ، وتمتم وداعه الاخير لعزيزته تيودورا

وسمح لفريق كبير من السكان ، يمثلون الاحياء والبيئات ومختلف الصناعات ، بدخول القصر والمرور أمام الجثة ، لتحيتها

التحية الاخيرة باسم العاصمة الحزينة الواجمة

وباشارة من الامبراطور ، تقـــدم حملة النعش ورفعوا السرير الذهبى بين أيديهم . وخطا رئيس التشريفات خطوتين وقال بصوت جهورى ، مرددا ثلاث مرات :

« آخرجى من هنــا أيتهــا الامبراطورة ؟ فان ملك الملوك يدعوك اليه ! »

ومشى حملة النعش فى الردهات والممرات ، وتبعهم الموكب الرهيب .. وكان الشعب قد احتشد فى الخارج وملأ الميدان والشوارع المؤدية اليه ، وقد اتشح الناس جميعا بالسواد . وعلى الشرفات وفى نوافذ البيوت وفوق أسطحها ، وقف الناس واجمين يذرفون الدموع ، وقد حلت النساء شعورهن ، وراح الاطفال ينشدون الاناشيد الحزينة

وفى الشوارع ،غطيت الجدران بالستائروالسجف ، وفرشت الارض بالرمل ، ووضع الناس المباخر على الابواب واحرقــوا فيها البخور بلا انقطاع . واصطفت الجمـــوع على الجانبين ، وركع كثيرون على الارض وبأيديهم المسابح او المباخر !

وفى وسط ذلك الحشد الخـــاشع ، مر الموكب فى خطى وئيدة ، يتقدمه الرهبان وحملة الشموع والصلبان ، والمرتلون والمرتلات . وتتبعه فصائل من الجند ، ينشدون أناشيدبعضها مفهوم وبعضها بلغات غير مفهومة !

وقد اشترك الخضر والزرق معا فى موكب تشييعالامبراطورة الى مرقدها الاخير ، ونسوا فى ذلك اليوم خلافاتهم واحقادهم !. ومشى الموكب من القصر الى كنيسة الرسل ، للصــــلاة على الجثمان ودفنه فى الضريح الذى خصص له فى أقبية الكنيسة ، بين أضرحة الاباطرة السابقين !

وبعد الصلاة ، تقدم رئيس التشريفات مرة أخرى من الجثة وقال بصوته الجهورى :

« أيتها الامبراطورة ! ادخلى دار الراحة والخلد ، فان ملك

الملوك ، وسيد الاسياد ، يدعوك اليه ! »

ثم تقدم الرجل ونزع التاج الذهبى عن رأس الامبـراطورة الميتة ، ووضع مكانه عصابة من الارجوان . وحمل الجنـــود النعش الذهبى ، ووضعوه فى التابوت المرمرى الذى اوصت بصنعه تيودورا فى حياتها ، وأنزلوا عليه غطاءه الثقيل . وهكذا رقدت تيودورا بسلام رقدتها الاخيرة . وعاد الامبراطــور مطأطىء الرأس محنى الظهـــر الى قصره ، ومن خلفه رجال الحاشية والاتباع والأصدقاء !

⏥

وظلت العاصمة تبكى وتنتحب أربعين يوما . ولكن الحزن لم يشمل جميع البيزنطيين ! فلما انتشر فى أرجاء المملكة خبر موت الامبراطورة العتيدة الداهية ، تنفس خصومها الصعداء، واستعادوا فى الحال آمالهم وثقتهم فى نفوسهم والمطامع التى وقفت تيودورا سدا منيعا فى سبيلها !

عاد جان كابادوكى الى بيزنطة ، وما مضت أيام على عودته ، حتى جعل يتبجبح أمام الناس بأنه استعاد عطف الامبراطور وثقته !

وكذلك أسرع آرطبان الارمنى الى طلاق الزوجة التى فرضتها عليه الامبراطورة الراحلة ، ورأى ان الجو قد خلا له ، فراح يدبر فى الخفاء مؤامرة ضد جستنيـــان ، على أمل أن ينتقم لنفسه من الزوج بعد موت الزوجة !

وخرج جرمانوس وأبناؤه من عزلتهم ، هائجين متحمسين ، على أمل أن يسترجعوا بعض مافقدوه بسبب معاملة الامبراطورة لهم !

وانطونينا ــ انطونينا نفسها ــ الوصيفـــة المحبوبة التى آثرتها تيودورا على كل من عداها من النساء . . انطونينا هذه نسيت الماضى ، واسدلت عليه ستارا كثيفا ، وجعلت تبحث عن علاقات جديدة ، ومحالفات جديدة ، لتحتفظ بنفوذها فى

القصر المقدس !

وخيل للناس جميعا ان موت الامبراطورة لابد أن تعقبه حركة رجعية تشمل الميدانين السياسى والدينى معا . وبدأ انصار الكنيسة المركزية يحرضون الامبراطور على خصومهم اصدقاء تيودورا ، لكى يقضى عليهم قضاء تاما ، قبل أن يجمعوا صفوفهم من جديد !

وتهامس رجال القصر المقدس فيما بينهم قائلين : ان الوقت قد حان لطرد الرهبان والنساك الذين جاءت بهم تيودورا واسكنتهم فى دار فسيحة داخل اسوار القصر بعد أن حولتها الى دير

وتشجع خصوم الامبراطورة ، فنصحوا جستنيان بأن يرغم الاساقفة والرهبان المعارضين على العودة الى حظيرة الكنيسة ارغاما !

على ان هؤلاء جميعا قد فاتهم أن الامبراطور ، كان يكن لتيودورا كل احترام ووفاء واخلاص حتى بعد وفاتها ، فلم يكن مستعدا لان يهدم شيئا بنته فى حياتها ، أو يخرج على ما رسمته من الخطط والنظم والقوانين !

وكانت تيودورا قبيل موتها ، قد دعت اليها الزوج الذى يعبدها ، وقالت له :

« جستنيان !. لقد احببتك واحببتنى .. وهأنذا الآن أستعد للرحيل عن العالم .. فأقسم أمامى الان بأنك لن تضطهد أحدا ممن حميتهم انا ، ولن تسىء الى احد ممن أحسنت اليهم أنا ، ولن تلحق ضررا بأحد ممن كنت أنا سبب سعادتهم ونجاحهم ! »

وقد أقسم الامبراطور . واعتزم احترام القسم !

لم تمت تيودورا فجأة بل بعد مرض طويل . وكانت تشعر بأن داءها عضال لايرحم . ولهذا ، فقد أدركت أن ساعتها الاخيرة تقترب فاحتاطت للأمر وافضت الى زوجها بما كان يجول

فى خاطرها من أفكار وآراء ، وفى صدرها من مخاوف وآمال

وصمم جستنيان على أن يظل وفيا لها بعد موتها ، كما كان دائما وفيا لها فى حياتها . وهذا ماحدث فعلا . فقد واصل الامبراطور تنفيذ السياسة التى وضعها بالاتفاق مع تيودورا . وفشل خصومها فىمحاولاتهم لحمله على تغيير خطته ومسلكه، اذ أغلق بابه فى وجه جان كابادوكي ولم يعد اليه شىء من نفوذه السابق ، ولم يغير رأيه فى بليزيروس برغم مساعى زوجته أنطونينا

واحتفظ جستنيان بالرجلين اللذين كانت تثق بهما ثقة عمياء وهما : برسيماس ونرسيس

وقد بقيت أنطونينا وصيفة فى القصر ، لانهـا كانت تذكر الامبراطور بالعطف الذى شملتها به تيودورا

أما جرمانوس وأبناؤه فقد عفاعنهم الامبراطور ، ولكنه لم يسمح لهم باستعادة نفوذهم وقوتهم !

واصطفى الامبراطور من بين أفراد أسرته الشاب الذى كانت تيودورا نفسها تفضله على سواه وهو جستين ابن أخيه وزوج صوفيا ابنة أخت تيودورا ، فجعله وارثا للعرش من بعده !

ونفذ جستنيان أيضا ، فى الميدان الدينى ، تعليمات تيودورا قبل موتها . فبدل أن يطارد الاساقفة الذين حمتهم ، قربهم اليه ودعاهم الى القصر المقدس ، وحاول أن يتفاهم معهم لايجاد حل للخلافات المذهبية بالطرق السلمية ، وهذا ما طلبته منه تيودورا قبل موتها ، فقد قالت له :

ــ فى الشئون الدينية ، يجب عليك أن تسلك طريق التوفيق والتفاهم لا طريق الضغط والارهاب . فحاول أن تقنع خصومك أو حاول أن تقتنع بآراء خصومك . فهذا خير من العراك الذى لايؤدى الا الى توسيع شقة الخلاف !

وواصل الامبراطور اتصالاته ومباحثاته مع الاساقفة الراضين والناقمين على السواء ، على أمل أن يحقق رغبة

زوجته بعد موتها . ولكنه فشل . وظل الخصام مستحكما بين الطرفين . بل زاد اتساعا بعد موت جستنيان نفسه !

وهكذا لم ينس جستنيان تلك المرأة الساحرة الجذابة ، والشريكة الذكية النشطة ، والامبراطورة الجريئة الحكيمة ، التى شاءت الاقدار أن تشاطره الاحزان والافراح ، وتخلد اسمه بجانب اسمها فى سجل التاريخ !

وقد احتفظ فى قصره بجميع الذين كانوا يعملون فى جناحها من الوصيفات والخدم والحراس ، وظل يلفظ اسمها ويردده فى كل مناسبة ، وكان هذا الاسم آخر كلمة نطق بها لسانه وهو على فراش الموت !

واذا أراد ان يقطع على نفسه وعدا ، أو عهداً ، أو قسما ، فباسم تيودورا كان يفعل ذلك ! وكان دائما يقول : « أن الامبراطورة الجميلة الحكيمة الطيبة ، التى حملت معى أعباء الحكم ، تصلى الآن من أجلى فى السماء ! »

وقد تكون الامبراطورة تيودورا قد اقترفت فى حياتها من الاعمال المحرمة أو السيئة مالا يتفق مع أخلاق الابرار القديسين . غير أن جستنيان كان واثقا من أن زوجته عاشت قديسة ، وماتت قديسة ، وانها احتلت مكانها ـ بعد موتها ـ بين القديسين فى جنة الخلد . وكان هذا أكبر عزاء له !

اما نحن ، فاننا نكتفى بأن نقول :

« كانت تيودورا وحيدة عصرها . عصامية صنعت مصيرها بيدها . نبتت فى بيئة مرذولة ، وارتفعت منها الى أوج المجد والسلطان ؛ فتربعت على أعظم عرش فى العالم . وكانت امرأة بارعة الجمال . وكانت امبراطورة عظيمة . وكانت مصلحة واسعة الافق . ولولاها لما احتل عهد جستنيان فى التاريخ ذلك المكان الذى يشغله حتى الآن ! »

ثم نقول أخيرا : « أن تيودورا ـ الممثلة المتوجة ـ جديرة حقا بأن يدون اسمها فى سجل الخالدين !

الفهرس

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى سلسلة ثقافية كبيرة قمت بنشرها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ثمن الكتاب الواحد ١٠٠ مليم بخلاف مصاريف البريد المسجل وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

١ ــ عبقرية محمد (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٢ ــ ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

٣ ــ هرون الرشيد (نفد)
تأليف المرحوم الدكتور أحمد أمين

٤ ــ أبو الشهداء (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٥ ــ جنكيز خان
سفاح الشعوب (نفد)
تأليف ف . بان

٦ ــ قلب النسر
تأليف اوكتاف أوبرى

٧ ــ السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

٨ ــ غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

٩ ــ زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

١٠ ــ الزعيم احمد عرابى (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

١١ ــ بطلة كربلاء (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

١٢ ــ اشعب أمير الطفيليين (نفد)
تأليف توفيق الحكيم

١٣ ــ نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

١٤ ــ حديث رمضان (نفد)
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

١٥ ــ عبقرية خالد (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

١٦ ــ الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ . س . ارمسترونج

١٧ ــ كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

١٨ ــ الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

١٩ ـ لا تخف (نفد)
تأليف ادوارد سبنسر كولز

٢٠ ـ مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية (نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى

٢١ ـ القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

٢٢ ـ زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل (نفد)

٢٣ ـ مذكرات عرابى
(الجزء الاول) (نفد)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٤ ـ مذكرات عرابى (جزء ثان)
تأليف الزعيم احمد عرابى

٢٥ ـ عبقرية عمر (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٦ ـ آمنة بنت وهب (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٢٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٢٨ ـ عصا الحكيم فى الدنيا والاخرة
تأليف توفيق الحكيم

٢٩ ـ أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

٣٠ ـ البؤساء (نفد)
تأليف فيكتور هيجو

٣١ ـ علمتنى الحياة (نفد)
لنخبة من علماء الشرق والغرب

٣٢ ـ فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

٣٣ ـ مدرسة المغفلين (نفد)
تأليف توفيق الحكيم

٣٤ ـ لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

٣٥ ـ عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب
(نفد)

٣٦ ـ الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة ـ الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

٣٧ ـ ذو النورين عثمان بن عفان (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٣٨ ـ محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان

٣٩ ـ عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

٤٠ ـ الحرية الحمراء
تأليف حبيب جمالى

٤١ ـ أهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

٤٢ ـ الله (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد

٤٣ ـ عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

٤٤ ـ علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

٤٥ ـ نساء النبى (نفد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

٤٦ ـ ثائرون
تأليف محمود تيمور

٤٧ ـ زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم

٤٨ ـ هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب

٤٩ ـ غادة النيل
تأليف اميل لودفيج

٥٠ ـ مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد

٥١ ـ يوميات نائب فى الارياف
تأليف توفيق الحكيم

٥٢ ـ طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه
٥٣ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الاول) (نفد)
٥٤ ـ عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
٥٥ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)
٥٦ ـ مدرسة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم
٥٧ ـ ألف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)
٥٨ ـ معاوية بن ابى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد
٥٩ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)
٦٠ ـ اعرف نفسك (نفد)
تأليف ادوارد سبنسر كولز
٦١ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)
٦٢ ـ مع الله .. فى السماء (نفد)
تأليف الدكتور احمد زكى
٦٣ ـ الف ليلة وليلة
(الجزء السادس)
٦٤ ـ قصة الثورة كاملة (نفد)
تأليف أنور السادات
٦٥ ـ جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد
٦٦ ـ بنات النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
٦٧ ـ عبقرية الامام على (نفد)
تأليف عباس محمود العقاد
٦٨ ـ شاعرة الطليعة : عائشة تيمور
تأليف الآنسة مى
٦٩ ـ الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد

٧٠ ـ بطل الكفاح : الشهيد محمد فريد
(نفد)
تأليف عبد الرحمن الرافعى
٧١ ـ قال الرئيس
للرئيس جمال عبد الناصر
٧٢ ـ بناة النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان
٧٣ ـ محمد الرسول البشر (نفد)
تأليف توفيق الحكيم
٧٤ ـ القصر المسحور
تأليف طه حسين ـ توفيق الحكيم
٧٥ ـ قصة الثورة كاملة (نفد)
تأليف أنور السادات
٧٦ ـ أسرار الثورة المصرية
تأليف أنور السادات
٧٧ ـ عصفور من الشرق
تأليف توفيق الحكيم
٧٨ ـ البؤساء (طبعة جديدة)
تأليف فيكتور هيجو
تعريب محمد حافظ ابراهيم
٧٩ ـ اخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان
٨٠ ـ لا شيوعية ولا استعمار
تأليف عباس محمود العقاد
٨١ ـ قصة الوحدة العربية (نفد)
تأليف أنور السادات
٨٢ ـ حياة المسيح
تأليف عباس محمود العقاد
٨٣ ـ الفكاهة فى مصر
تأليف الدكتور شوقى ضيف
٨٤ ـ عش سعيدا بغير مرض
تأليف الدكتور ابراهيم فهيم
٨٥ ـ شهر رمضان
بقلم خليل طاهر
٨٦ ـ سارة
بقلم عباس محمود العقاد

۸۷ ـ صلاح الدين الايوبى
تأليف محمد فريد أبو حديد
۸۸ ـ يا ولدى .. هذا عمك جمال
بقلم انور السادات
۸۹ ـ ابليس
بقلم عباس محمود العقاد
۹۰ ـ جبران خليل جبران
بقلم ميخائيل نعيمة
۹۱ ـ روائع شكسبير (الجزء الاول)
تلخيص شارل ومارى لام
۹۲ ـ سكينة بنت الحسين
بقلم الدكتورة بنت الشاطىء
۹۳ ـ روائع شكسبير (الجزء الثانى)
تلخيص شارل ومارى لام
۹٤ ـ روائع شكسبير (الجزء الثالث)
تلخيص شارل ومارى لام
۹٥ ـ آخر الطريق
بقلم أمينة السعيد
۹٦ ـ دروس من القرآن الكريم
للاستاذ الامام محمد عبده
۹۷ ـ حديث عيسى بن هشام
(الجزء الاول)
بقلم محمد المويلحى
۹۸ ـ حديث عيسى بن هشام
(الجزء الثانى)
بقلم محمد المويلحى
۹۹ ـ مذكرات نجيب الريحانى
بقلم نجيب الريحانى
۱۰۰ ـ ليالى سطيح
تأليف حافظ ابراهيم
۱۰۱ ـ اعترافات شبابى
بقلم ليوتولستوى
۱۰۲ ـ عجائب وأساطير
تأليف الدكتور شوقى ضيف
۱۰۳ ـ المرأة فى القرآن الكريم
تأليف عباس محمود العقاد
۱۰٤ ـ الملك والثوار فى عربة
تأليف فتحى رضوان
۱۰٥ ـ الدكتور زيفاجو (الجزء الاول)
تأليف بوريس باسترناك
۱۰٦ ـ الدكتور زيفاجو (الجزء الثانى)
تأليف بوريس باسترناك
۱۰۷ ـ مذكرات محكوم عليه بالاعدام
بقلم فيكتور هيجو
ترجمة لطفى سلطان
۱۰۸ ـ الاسلام فى القرن العشرين
تأليف عباس محمود العقاد

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد عز العرب « المبتديان » بالقاهرة ومن جميع المكتبات الشهيرة ، واكشاك الصحف ، ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذه السلسلة

وكلاء مجلات دار الهلال

لبنـــــان و الاقليم الشمالى : وكالة دار الهلال ـ شارع فرنسا
صندوق البريد ٣١٥٧ ـ بيروت

العـــــراق : السـيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية
ببغداد

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص . ب ٤٩٣

البحـــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص . ب ـ ٢١

البـــرازيل : Dr. Michel H. Tomé,
Paeto Do Colegio No. 3
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL

غـــانا : Mr Joseph Hassan,
The Cine Travel Co.,
P.O. Box 1883,
ACCRA, GHANA

نيجـــريا : Mr Mohammed Said Mansour,
P.O. Box 652,
LAGOS, NIGERIA

سيراليـــون : Messrs. Allie Mustapha & Sons,
P.O. Box 410,
Freetown Sierra Leone

سنغـافورة Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assahargi,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

هـذا الكتاب

.. لم تكن تيودورا من سلالة النبلاء والاشراف، ولـكنها كانت من عامة الشعب . كانت ممثلة ، ثم اتيحت لها الفرصة ، واستطاعت بذكائها ودهائها ان تقتنصها ، وان تعتلى أريكة الملك ، وتصبح امبراطورة لدولة يمتد سلطانها الى آسيا وافريقا

كانت تيودورا شــخصية من أعجب الشخصيـات التاريخيـة ، وكانت امرأة موهوبة ، ذات ذكاء خارق ، ودهاء عجيب ، وارادة حديدية . فكانت تفرض سلطانها على القريب والبعيد ، وعلى خارج بلادها

وليست هي قصة امرأة بارعة فى جمالها وفى قدرتها الفذة ، بل هى تاريخ أمة ، وتاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقيــة بتقاليدها وعاداتها فى حقبــة دقيقــة من تاريخهــا الطويل ، فليس هذا الكتاب قصة خيالية ، بل هو قصة تاريخية واقعية رائعة استطاع مؤلفها ان يجمــع دقائقها التــاريخية من مختلف المراجع ، وقام بترجمتهــا ترجمة شائقة الاستاذ الكبير حبيب جاماتى